يصدرها حلمي مراد

مطبوعات كتابي

النص الكامل لقصة ايفان ترجنيف الطويلة الخالدة

مياه الربيع

مصدرة بأروع ترجمة لحياة ترجنيف

بقلم : اندريه موروا

طبعة فاخرة مجلاة بعشرات الصور الفوتوغرافية النادرة



ايفان ترجنيف

مياه الربيع



LES EAUX

PRINTANIERES

PAR

IVAN TOURGUÈNIEV

الثمن ١٢ قرشا

مطبوعات

كتابى

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها : حلمى مراد

الكتاب الخامس والخمسون

مياه الربيع

ترجمة : سامى الدروبى

مع مقدمة عن « حياة تورجنيف »

بقلم : أندريه موروا

ترجمة : ديمترى نخله

الادارة : عمارة الجندول ـ ١٤ شارع ٢٦ يوليو ـ بالقاهرة

تليفون ٥٩٥٥٦

مجموعة كتــابى

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها اثنان وتسعون كتابا، يضاف اليها كتاب جديد فى اول كل شهر.

مطبوعات كتابى

(الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية)

صدر منها خمسة وخمسون كتابا (ومجلدان خارج السلسلة يحتويان على الترجمة الكاملة لقصة « دكتور جيفاجو ») ، وتطلب قائمة بأسماء الكتب جميعا من الادارة .

الاشتراكات

• تطلب الاعداد السابقة من كل من المجموعتين من :
ادارة « كتابى » : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا) بالقاهرة

• الاشتراكات عن ١٢ عددا من كتابى فى ج.ع.م والسودان والمملكة السعودية والاردن ولبنان وليبيا والعراق ١٤٠ قرشا سنويا خالصة أجر البريد المسجل ، وما عداها من البلاد العربية الاخرى والبلاد الاجنبية على أن يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر . علما بأن سعرها فى مصر

ولمن شاء أن ترسل له الاعداد بالبريد الجوى المسجل ، أن يدفع فرق الرسوم .

• ترسل قيمة الاعداد والاشتراكات فى مصر باذن بريد عادى . وللمشتركين فى البلاد الاخرى أن يرسلوا القيمة بشيك على أحد بنوك القاهرة ، أو تحويلات مصرفية ، أو كوبونات بريد دولية فئة ٤٠ مليما ، فالاشتراك السنوى ١٨٠ قرشا سنويا خالصة أجر البريد المسجل .

قصة غرام ((ترجنيف)) ذاته !

عزيزى القارىء ..

لعلك قرأت فى (كتابى) من قبل ، أكثر من قصة ملخصة من روائع أدب الروائى الروسى العاطفى «ايفان ترجنيف» (١) - منها على ما أذكر الآن : **(آسيا)** ، فى العدد (١٣) من كتابى ، و **(الحب الاول)** ، فى العدد (٢٠) .

لكن الفرصة لم تسنح قبل الآن كى أقدم لك النص الكامل لاحدى روايات ترجنيف ، فلما عرض على الصديق الاستاذ «سامى الدروبى» - وهو الأديب المدقق ، المتمكن من اللغتين الفرنسية والعربية على السواء - ترجمته هذه الكاملة لقصة ترجنيف الطويلة ((**مياه الربيع**)) - على حد تعبير النص الفرنسى للقصة ، وهو الذى ترجمها عنه - أو ((**سيول الربيع**)) ، على حد تعبير الترجمة الانجليزية لها .. أعجبتنى القصة بمجرد الانتهاء من قراءتها ، فرأيت فيها فرصة سانحة كى تتعرف معى على عمل كامل من أعمال هذا الأديب الروسى الفحل ، بعد أن تعرفت من قبل فى (كتابى) على عدد من قصصه فى قالب مختصر ..

---

(١) واسمه الكامل « ايفان سرجيفتش **ترجنيف**» - أو ((**تورجنييف**)) كما يطلق عليه بالفرنسية ، وكما أطلق عليه « اندريه موروا » فى سيرة حياته التى صدرنا بها هذا العدد .

وموضوع هذه الرواية ، كما هو الشأن فى غالبية رواياته ، هو «الحب» .. لكنه الحب المغلف بتشاؤم « رومانتيكى » !

..على أن **المفاجأة الحقيقية** فى الأمر ، أو الاعتبار الهام الذى يضفى على هذه الرواية - بالذات - أهمية خاصة ، تفوق أهمية جميع روايات « ترجنيف » الاخرى .. **هى انها قصة « واقعية » .. قصة غرام « ترجنيف » نفسه ! ..** أو على حد قوله فى الحديث عنها بعد أن نشرها فى عام ١٨٧١ :

« ان (مياه الربيع) قصة « عشتها » أنا نفسى ! .. انها قصتى الشخصية .. ومن ثم فانى كتبتها بسهولة ، دون عناء كبير » .

ولعل هذا يفسر القوة غير العادية التى يلمسها فيها قارئها ، ولا سيما فى تداعى الذكريات حين تتواتر من الماضى على مشاعر بطل القصة .. كما يفسر الوضوح الخالص للصور والاحداث التى يرسمها المؤلف خلالها ، حتى لتبدو وكأنها مألوفة بالنسبة لقارئها ، أيا كان !

وعلى ضوء هذه الصفة « الواقعية » للقصة ، واستكمالا لمتعتك بقراءتها ، رأيت أن أمهد لها بمقدمة طويلة تروى لك سيرة مؤلفها «ترجنيف» ذاته ، كما كتبها -- بين دفتى كتاب مستقل شائق - أشهر كتاب السير فى عصرنا الحاضر : الاديب الفرنسى المعاصر « اندريه موروا » .

والله ولى التوفيق ..

حلمى مراد

القسم الاول

١ ـ نظام روسيا الاجتماعى فى القرن التاسع عشر

ليس من السهل على المرء الذى يعيش فى الحقبة الحاضرة من القرن العشرين ، ان يكون فكرة صحيحة عماكانت عليه حال النبيل الروسى فى غضون القرن التاسع عشر . فقد كان المجتمع فى روسيا يتطور تطورا مضادا لتطوره فى أوروبا الغربية ، حتى لنشعر عند مطالعة تاريخ تلك البلاد فى ذلك العهد بأننا نتخبط فى ظلمات القرون الوسطى ، اذ بينما كان نظام استرقاق الفلاحين آخذا فى الاضمحلال والزوال رويدا رويدا فى أوروبا الغربية ، اذا بنا نراه يستقر ويرسخ فى روسيا !

ومما يفسر لنا هذا الوضع الغريب ، ان الدولة الروسية كانت فى القرن السابع عشر تحتاج ، بين الفينة والفينة ، الى معونة نبلائها . فكانت تتنازل لهم ـ مقابل ما يؤدونه اليها من خدمات جليلة ـ عن ممتلكات شاسعة مترامية الاطراف يتولى الفلاحون رعايتها وحرثها وزراعتها .. ومنذ ذلك العهد ، أصبح الفلاح الروسى تابعا للارض ثم لشخص المالك نفسه ! **وكان السيد الروسى أو « البارين » كما يدعى فى روسيا ، يملك ألفا أو ألفين أو خمسة آلاف من هؤلاء التعساء ، يتصرف فى امرهم تصرفه فى الماشية ، اذ كان يبيعهم ليشترى غيرهم ، ويعدم منهم من يشاء ويبقى على من يشاء .. وكان كل من يأوى فلاحا هاربا ، يعد فى نظر القانون مجرما أثيما حقت عليه اللعنة والعقاب !**

وفى القرن الثامن عشر ، عززت حكومة «كاترين العظيمة» — وكانت امبراطورة مستبدة ممن يؤمنون بنظرية الحرية ولا يعملون بها ! — سلطة الملاك ووطدت اركانها . فحصل هؤلاء فى عهدها على حق نفى الفلاحين لاقل الاسباب وأتفهها . وكانوا يزوجونهم على الرغم منهم دون مراعاة لميولهم الطبيعية أو عاطفة الحب عندهم . واذا ما تراءى لاحدهم أن يرفض الزواج لسبب ما ، جز شعر رأسه وأرسل الى الجيش للخدمة فيه مدة خمسة وعشرين عاما ! .. وصفوة القول ، ان الفلاح كان عبدا مسخرا لاطعام سيده ، وكان من حق سيده عليه أن يجلده ويبيعه . ويقول المؤرخ «كوستين» فى هذا الصدد : « ان هؤلاء التعساء ما كانوا يملكون من متاع الدنيا شيئا : لا أكواخهم ولا نساءهم بل و لاقلوبهم !! »

ولقد نرتكب خطأ نفسيا وتاريخيا فى آن واحد ، لو تصورنا أن نبلاء روسيا فى ذلك الوقت كانوا أشد ظلما من غيرهم .. اننا نعرف هؤلاء الروس الذين كانوا يعيشون فى سنة ١٨٠٠ ، مما ورد عنهم فى مؤلفات « تولستوى » و « تورجنييف » نفسه . فانهم لم يكونوا أكثر ولا أقل قسوة من السادة الفرنسيين الذين تقدموهم ببضعة قرون ، ولكنهم لسوء حظهم ، جاءوا فى غير أوقاتهم .. وقد كان بعضهم قاسيا ظالما وبعضهم عادلا ذا نفس مترددة قلقة . **على أن معظمهم كانوا على جانب عظيم من البله والكسل ، لا يعرفون فلاحيهم ولا يميلون الى التعرف اليهم !** وكثيرا ما كانوا يخولون ما لهم من سلطة ونفوذ لمن يسيئون استعمالها كى لا يختلطوا بهم أو يهتموا بأمرهم . ولقد كان نظام الرق فى روسيا أشبه بما كان عليه فى عهد الامبراطورية الرومانية ، أو قل ان الفلاحين الروس كانوا أشبه حالا بزنوج الولايات المتحدة قبل تحريرهم . فكانوا يعيشون فى رخاء وسرور

عند بعض السادة ، وفى شقاء ليس بعده شقاء عند البعض الآخر .

وفى أوائل القرن التاسع عشر أى فى عهد القيصر « اسكندر الاول » — وهو امبراطور متصوف متدين — لم يطرأ أى تعديل على حال الفلاحين .. لقد ظن الروس بادىء ذى بدء أن اسكندر الاول سيحاول اصلاح الاوضاع وتجديدها ، على أن ذلك الامبراطور المتدين كان يعتقد فى قرارة نفسه أن العناية الالهية أرسلته لمعاقبة شرور نابليون الاول . وقد بلغ به التعصب لرسالته المزعومة حدا جعله يرى فى كل معارضة ولو هينة خروجا على رسالته ، لا سيما عقب ثورة لواء « سيمنوفسكى » . فقد ساءت ظنونه برعاياه وازدادت شكوكه فيهم وأصبح يعتبر نفسه ضحية جمودهم ، حتى أنه لم يبد أقل اهتمام بتحريرهم . وقد كانت روسيا عند مولد تورجنييف عام ١٨١٨ بلاد الاوتوقراطية المطلقة التى لا تعرف للشفقة معنى ولا الى الرحمة سبيلا .

ومن مساوىء ذلك العهد المظلم أيضا ، انه لم يكن فيه أثر لحرية الفكر . فقد عمل الإمبراطور اسكندر الاول على تطهير الجامعات الروسية من الوجهتين السياسية والدينية، وأدى تمسكه باهداب الدين وعطفه على رجاله الى نشوء حالة تصوف كاذبة بين المجتمع الروسى . وكان من المحظور على أساتذة الجامعات فى عهده أن يلقنوا المبادىء الفلكية أو الجيولوجية الحديثة ، كما أنه كان يفرض على أستاذ الآداب أن يبرهن لطلابه على أن أدب « الكتاب المقدس » هو أرقى الآداب قاطبة ، ويحتم على أستاذ الاقتصاد السياسي ان يشيد بالفضائل الناجمة عن تحويل الخيرات

المادية الى خيرات روحية . ولم يكن التشريح فى كلية الطب مسموحا به ، والى جانب ذلك ، لم يكن فى وسع أى كاتب أو صحفى أن يؤلف كتابا أو ينشر مقالا دون عرضه على الرقابة . وكانت الرقابة فى تلك الايام أشد ما تكون صرامة ، حتى أن الفلاح أو رجل الشارع فى فرنسا كان أكثر حرية من أى سيد فى روسيا !

وعند وفاة القيصر اسكندر الاول ، خلفه « نيقولا الاول » ، فحاول هذا أن يعمل على ايجاد نظام حديث ، لولا انه اضطر ، منذ ارتقائه أريكة العرش ، الى مكافحة المؤامرات المفجعة التى نسجت خيوطها فى شهر ديسمبر وأخذ الجنود يهتفون خلالها بحياة « الدستور » ، ظنا منهم أن كلمة «الدستور» ، انما هى اسم عقيلة الغراندوق «قسطنطين» !

.. وهكذا افتتح الامبراطور «الشهم» عهده بأن أمر باطلاق المدافع على أفراد شعبه واعتقال المتآمرين وشنقهم . ومنذ ذلك الحين ، خيل الى الامبراطور « العظيم » — الذى كان اعداؤه يحاربونه باعتباره الها لا انسانا — انه مرغم على استخدام شهامته وبطولته فى الدفاع عن عرشه وتاجه ، فغدا بطل السلطة المطلقة و «دون كيشوت» الاوتوقراطية ، واتخذ شعارا له «الارثوذكسية والاوتوقراطية والوطنية» ، ولم يلبث أن حكم الكنيسة حكما عسكريا فعين أحد قواد فرسانه رئيسا لمجمع الاساقفة المقدس . وهكذا أصبح مروضاً للثورات على الرغم منه ، وحاول طوال حياته أن يحوط الطبقة الراقية فى روسيا « بسور أشبه بسور الصين . » !

ومهما يكن من أمر ، فلا يتصورن أحد أن القيصر كان فى ذلك العهد رجلا واسع الثقافة والاطلاع أو على علم بكل ما يقع حوله من صغيرة أو كبيرة .. بل لعل العكس

كان الصحيح ، فقد روى « تورجنييف » فى أحد مؤلفاته أن نظم البروتوكول كانت تحظر على القيصر أن يطالع كتابا قبل أعادة نسخه خصيصا له بخط رسمى . وقد وصف المؤرخ « كوستين » رحلة قامت بها الامبراطورة « كاترين » الى القوقاز ، فقال : «أن ولاة الامور اقاموا على طول الطريق الذى مرت به الامبراطورة منازل من الورق المقوى المدهون كى يوهموها برخاء الشعب الروسى .. وهكذا لم يكن القيصر يعرف من آراء شعبه وميوله سوى المظهر الكاذب الخداع .

على أن هذه البلاد التى كانوا يحاولون ازهاق انفاس الحرية فيها ، كانت تضم طبقة مثقفة لا يخلو فكرها من جرأة وشجاعة . فمنذ عهد «كاترين العظيمة» ، كان معظم النبلاء الروس فى المدن الكبرى متشبعين بأفكار الفلاسفة الفرنسيين حتى أن الامبراطورة نفسها كانت تفكر فى الغاء نظام استرقاق الفلاحين . وكان الشبان النبلاء ممن درسوا على أساتذة فرنسيين وتلقنوا حكمة القرن الثامن عشر الخطير ، يدينون بمبادىء فولتير وديدرو وروسو ، وكذلك الضباط الذين اقتفوا آثار نابليون مع جيوش الحلفاء وعاشوا زمنا طويلا فى (باريس) ، **فقد عادوا من فرنسا وقد غزتهم بعد ما غزوها ، فاذا بهم يبدون عظيم استيائهم لبيع الفلاحين فى القرى الروسية ، ويستنكرون اشد الاستنكار الاساليب الوحشية المتبعة فى معاقبة هؤلاء المساكين البائسين** .. وتألفت جمعيات سرية عديدة لنشر تعاليم الثورة الفرنسية ، حتى أن المسيو « لافيرونيه » سفير فرنسا قال يوما للامبراطور نيقولا مازحا أن الطبقة الارستقراطية فى روسيا بأسرها غدت جزءا من المعارضة !

كل ذلك يبين أن السيادة المطلقة من الممكن أن تعيش فى مجتمع يرتضى مبدأها ، وأنها تندحر حتما فى ظل مجتمع

يساير حضارة مختلفة عن حضارته وينشد السعادة والهناء .. وقد كانت روسيا فى عام ١٨٢٠ تفتقر الى الاتزان والاستقرار ، وهذه الحالة وان كانت تهدد الامه من الوجهة السياسية بخطر داهم مستطير ، الا انها قد ساعدت على خلق فئة من فطاحل الكتاب فى روسيا ، نظرا لان الاهواء فيها كانت جارفة والانقلابات فجائية عنيفة .

٢ ــ نشأة تورجنييف

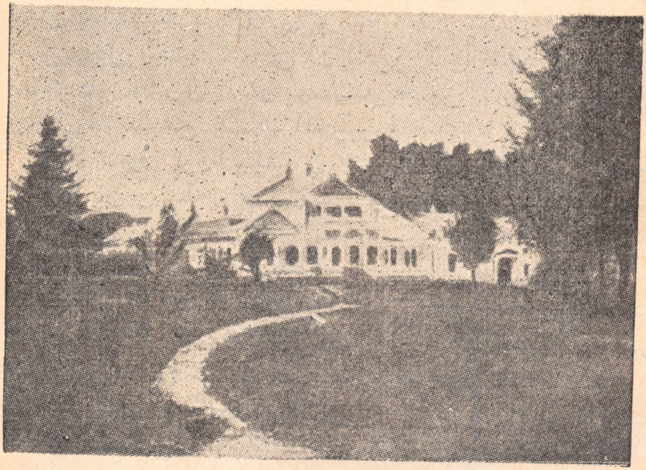
أما وقد فرغنا من وصف المجتمع الذى عاش فيه «تورجنييف» ــ وهو مجتمع كان النبيل فيه مطلق السلطة فى علاقاته باتباعه ، ومحروما من كل حرية فى علاقاته بكبار الموظفين وبالقيصر نفسه ــ فاننا نستطيع الاسترسال فى سرد حياة بطلنا فى مختلف اطوارها .

ولد «ايفان سرجييفيتش تورجنييف» بمدينة (أوريل) فى ٢٨ اكتوبر سنة ١٨١٨ ، من أسرة نبيلة من صغار الملاك تنحدر من أصل تترى . ويقال أن أحد اجداده قدم من آسيا واتخرط فى خدمة القيصر عام ١٤٠٠ وخلف سلالة من القواد والحكام سرعان ما بددوا ثروتهم على مر الايام ؛ بحيث لم يبزغ فجر الجيل الثامن عشر حتى كانت أسرة تورجنييف لا تملك من حطام الدنيا سوى مائة نفس ، وقرية من اعمال ولاية (اوريول) . وكان والد تورجنييف ضابطا مفلسا فى سلاح الفرسان .

ولكن رب الاسرة لم يكن فى الواقع الأب ؛ بل الأم التى كانت تنتمى الى أسرة « لوتوفينوف » وهى أسرة وضيعة الاصل عظيمة الثراء ، تاريخها حافل بحوادث الاجرام .. ومن غريب ما يروى عن جدة تورجنييف ــ وكانت امرأة مشلولة لاتستطيع مغادرة فراشها ــ أنها انهالت فى احد

الايام ضربا بعكازها على الغلام الذى يتولى خدمتها حتى قضت عليه ! .. وقد ورثت والدة تورجنييف عن امها شراسة أخلاقها وحدة طبعها ، وقد قضت شبابا قلقا مضطربا اذ عاشت مع احد أعمامها فى ظروف تدعو الى الريبة والشبهات ، على أن ذلك العم الثرى لم يلبث ان قضى نحبه تاركا لها ممتلكات (سباسكوى) الشاسعة ، وثروة طائلة ، وعشرين قرية ، وأكثر من خمسة آلاف نفس !

وكانت « فرفارا بتروفنا لوتوفينوف » - والدة تورجنييف - مسترجلة فى شبابها ، تهوى القنص على ظهور الجياد وتفوق الرجال براعة فى لعب « البلياردو » . وكانت الى جانب ذلك تتحلى بثقافة عالية وعلم غزير ، وتتذوق الادب والشعر . وكانت تتميز بعينين ساحرتين ، أما أنفها



قصر (سباسكويا) ، حيث عاش ترجنيف فترة من صباه

فكان ضخما أفطس وذقنها بارزا دلالة على الصلابة والعزيمة، وكانت عارمة الطباع ، عنيفة النزوات ، تود ان تجد رجلا يحبها لنفسها. ولكنها لم ترق لاحد من الشبان المحيطين بها .

وقد حدث فى أحد أيام الربيع ، ان التقت فى قرية (سباسكوى) المجاورة لقريتها بضابط من ضباط الفرسان، طويل القامة ، أنيق المظهر ، جميل المحيا ، يدعى « سرج ايفانوفيتش تورجنييف » . ومع انها كانت تكبره بست سنوات ، فقد قررت الاقتران به . فشرعت فى مغازلته ونصب شباكها حوله .. ولم يحاول الضابط أن يقاوم اغراءها أو يصد هواها ، وانى له أن يفعل والفتاة التى تلاحقه صلبة الارادة ذات عزيمة لاتلين ، سيما اذا كانت تحمل اليه ثروة طائلة تكفل له رغد العيش !.. على ان الضابط الشاب الذى بدا أشبه بعملاق فى هيئته ، كان يحمل بين جنبيه نفس رجل مخنث ، حتى ان الذين كانوا يلمحون صورته معلقة على جدران الدار يحسبونه امرأة أو بالاحرى غانية فى زى ضابط من ضباط الحرس !

وقد تناول تورجنييف فى كتابه « الحب الاول » وصف العلاقة بين والديه ، فقال : « تزوج والدى وهو لايزال شابا جميلا من والدتى — التى كانت تكبره بعشر سنوات — بدافع المنفعة ! .. وقد قضت والدتى الى جانبه حياة تعسة اذ كانت قلقة مضطربة دائما ، تغار على زوجها وتثور لأتفه الامور ، ولكنها لم تكن لتجرأ أن ترفع صوتها فى حضرته خشية بأسه . أما هو فكان باردا متحفظا .. »

وقد كان زواجهما شاذا غريبا حتى لقد اثرت طبيعته — الى حد كبير — فى تشكيل خلق تورجنييف .. **فانه لم يرث عن والده ضخامة جسمه وشاربه الاشقر وتخاذله فحسب ، وانما ورث أيضا عن امه حدة الطباع التى كان**

من شــأنها أن زادت من ضعفه الطبيعى ، فاذا بها تخمد فى نفسه كل عزيمة وتقضى على كل ارادة !

وكانت مــدام تورجنييف تعتبر نفســها ملكة صغيرة فى «سباسكوى» . فكانت تطلق على رئيس خدمها اسم « وزير البلاط » ، وتدعو الخادم المكلف بحمــل رســائلها « وزير البريد » ! وكان يتولى صيانة الامن فى أملاكها ضابط شرطة خاص بها . ومما يذكر أنها كانت ترعى جيشا حقيقيا من الاتباع . فقد كان جناحا قصرها اللذان يحتويان على أكثر من أربعين غرفة يأويان من جهة ، الامهــات اللاتى ينسجن الملابس ويطرزنها ، ومن جهة أخرى ، الموسيقيين وكانوا من الفلاحين الرقيق . وكان من حق المالك فى ذاك الوقت أن يبتــاع من جاره فرقة موســيقية بأكملهــا . وكان والد تورجنييف يختــار خليــلاته الجميــلات من بين خادماته ، مما كان يذكى نار الغيرة فى صدر زوجته فتنتقم من العبيد لخيانة زوجها لها ! . وقد شاهد تورجنييف فى نعومةأظفاره فلاحين شابين ينفيان الى مجاهل سيبيريا ، نزولا على رغبة والدته ، لا لشىء الا لانهما نسيا ان يطأطئا رأسيهما عنــد مرورهما أمامها فى الحديقة . وكان تورجنييف ــ فيمابعد ــ يطلع زواره على النافذة التى كانت تجلس اليها والدته قائلا : « تلك هى النافذة . . وانى أذكر انها كانت مفتوحة ، وكنت حاضرا ، عندما اقترب الرجلان منها حاسرى الرأس وركعا على ركبتيهما أمامها مستأذنين فى الرحيل الى المنفى ! »

وكان المدرسون ــ من فرنسيين وألمانيات ــ الذين يؤمون القصر لتلقين الطفلين « ايفان » و «نيقولا» مبادىء اللغتين الفرنسية والالمانية ، يعاملون بفظاظة وكأنهم نفر من الخدم . وكان من حق أولاد النبــلاء أن يلعبوا مع أطفــال الفــلاحين ويضربوهم دون أن يستطيع هؤلاء البؤساء ان يقابلوا ضربات

أسيادهم بمثلها ! .. ويروى تورجنييف ان والدته شاهدت يوما صراعا عنيفا نشب « بالوسادات » بينه وبين فلاح صغير ، فأمرت فى الحال بجلد الفلاح ، فجلد حتى أدمت السياط ظهره وكادت روحه أن تزهق . وكان ايفان ونيقولا تورجنييف - سيدا هذا القصر الصغيران - يتمتعان بسلطة مطلقة فى مملكتهما ، ويشعران فى الوقت نفسه بضعف متناه أمام والدتهما ، شأنهما فى ذلك شأن جميع اطفال روسيا النبلاء فى ذلك العهد . وقلما كانا يقضيان سحابة يومهما دون أن يتعرضا للضرب الذى كان يعد اذ ذاك وسيلة من وسائل التقويم والتهذيب !

وعلى الرغم من هذه الحياة العائلية التى كانت أشبه بحياة المعسكرات ، فقد ظل تورجنييف يذكر دائما عهد طفولته فى (سباسكوى) ، اذ يبدو أن فى مناظر روسيا الطبيعية جمالا أخاذا غامضا لايبرح مخيلة الذين تمتعوا به ، حتى الممات .. **ولم ينس تورجنييف قط ذلك الضباب الشفاف الذى يتصاعد من سفوح التلال والهضاب ، ولا أشجار الحور والصفصاف ، ولا تلك النفحة الزكية التى تضوع من حقول القمح والكتان فتعبق الجو وتعطر النسيم**

ومنذ بضع سنوات، نشرت فى (موسكو) رسائل يستدل منها على مبلغ اهتمام الكولونيل تورجنييف بتربية ولديه وتعلقه بهما وعطفه الصادق عليهما ، على الرغم مما كان يبديه نحوهما من تغاض وعدم اكتراث ابان اقامتهما معه فى القصر .. ومعظم هذه الرسائل كان موجها الى الابن الاكبر « نيقولا » ، حيث كان الوالد يريد ان يستعلم منه عن نوع الحياة التى يقضيها مع أخيه ، وقد جاء فيها :

« .. انكما تعلمان ولا شك كم يهمنى أمر دروسكما .. فلا تكتفيا بمجرد ابلاغى ان الاساتذة راضون عنكما وانكما



« فارفارا بتروفنا » والدة ترجنيف



« سيرجى نيدولاييفيتش » ، والد ترجنيف

تحاولان دائما تنفيذ أوامرى ، بل اكتبا الى عن كل مادة على حدة .. قولا لى مثلا انكما تدرسان كذا وكيت بالفرنسية والالمانية ، وأنكما تتعلمان هذا وذاك باللاتينية والروسية ! وكذلك عن الجغرافيا والتاريخ والرياضيات وعن كل مادة تدرسانها ، سيما الموسيقى » .

ولعل الشيء الذى كان يختلف فيه سرج تورجنييف عن معظم رجالات روسيا فى ذاك الوقت ، انه كان يود أن يرى ابنيه يتقنان كتابة اللغة الروسية اتقانا تاما . فقد كتب اليهما يقول :

« .. انكما تكتبان الى دائما بالفرنسية أو الالمانية . فلم هذا الاحتقار للغتكما الاصلية ؟ .. لقد آن الوقت الذى يجدر بكما فيه لا التحدث بالروسية فحسب ، بل اجادة الكتابة بها أيضا . وفى وسعكما – بلوغا لهذه الغاية – أن تحررا الى يومياتكما على النحو التالى : يوم الاثنين بالفرنسية ، والثلاثاء بالالمانية ، والاربعاء بالروسية ، وهلم جرا .. »

٣ – عهد الدراسة

وفى غضون عام ١٨٣٢ ، انتقلت الاسرة الى موسكو حيث أتم ايفان دراسته . وكانت موسكو فى ذلك العهد مدينة الشعر والخيال . ففى الشتاء ، كان لايسمع فى شوارعها المغطاة بالجليد الناصع البياض سوى وقع حوافر الخيل وحفيف الزحافات . وقد احتفظ تورجنييف فى مخيلته طيلة حياته بصور تلك الكنائس ذات القباب المذهبة التى كانت تسطع فوق الكون !

وقد دخل تورجنييف المدرسة وهو فى الرابعة عشرة من عمره . وكان اذ ذاك غلاما طويل القامة ، رقيق الطباع ، نحيف البنية ، خيالى المشاعر ، يميل الى الشعر والادب .

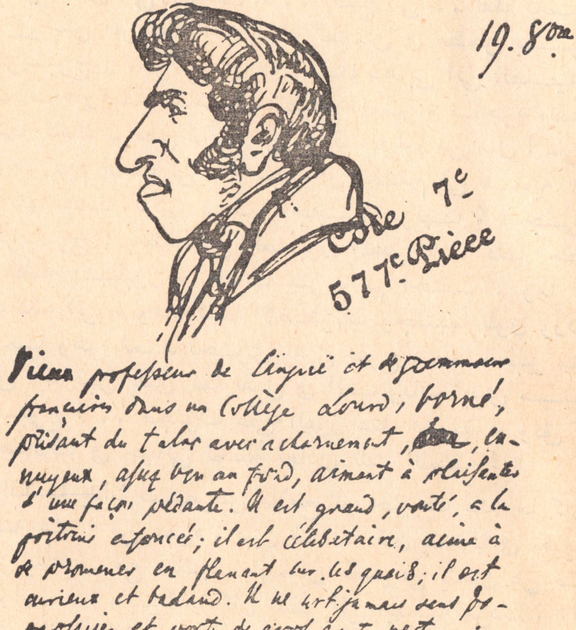
وقد طلب اليه أساتذة الجامعة عند دخوله أن يوقع ورقة يثبت فيها انه لا ينتمى الى أية جمعية سرية . ففعل ، ولكنه كان فى الواقع جمهورى النزعة بدليل انه كان يعلق على جدران غرفته صورة « فوكييه تانفيل » (١) . وكان زملاؤه حوله يظنون أنفسهم ثوريين . وفى جامعة موسكو ، كان الطلبة لايشبهون ملاك الرقيق من الفلاحين الا بالنمور والافاعى .. وكانوا عند انتهاء الدراسة ، يجتمعون فى هيئة خمسة أو ستة من الشبان حول الموقد ، فيتناولون الشاى ويتجاذبون أطراف الحديث عن الله والحقيقة والمستقبل والانسانية والأدب والشعر ، فلا تلبث المناقشة أن تحتدم بينهم . فتلتهب وجوههم حماسة وتضطرم أعينهم كأنها شعلة من النار !

وقد نقل تورجنييف بعد ذلك من موسكو الى جامعة بطرسبرج لأنها كانت تعتبر أرفع مكانة واغزر علما . وكان التعليم فى تلك الجامعة يسير على أساس الأساليب الالمانية . فكان « جيته » وخصوصا « هيجل » يحتلان المكانة الاولى .. وهكذا مر تورجنييف ، كجميع رفاقه ، بعهد من التوتر العصبى الذى تحدثه كثرة التفكير فيما وراء الطبيعة . وعندما بلغ السابعة عشرة من عمره ، شرع فى تدوين مذكراته التى كتب فيها يقول : « **لقد بلغت السابعة عشرة .. واننى أريد أن أدون كل ما أعرفه عن نفسى وحياتى ، ولكن لماذا ترانى أفعل ؟ .. ان ذلك يرجع لسببين : أولا ، لأننى ، وقد انتهيت من سرد حياتى ، لن أمد يدى الى هذه المذكرات حتى أبلغ الخمسين ، وما من شك فى أننى سوف أجد فيها اذ ذاك ما أفكر فيه وأحلم به اليوم !.. والآن وقد**

(١) النائب العام فى محكمة الثورة الفرنسية .

انتهيت من وضع المقدمة، فانني سأبدأ ..» ولكنه لم يخط بعدها حرفا واحدا .. ولعل ذلك مرده الى مايستحوذ عادة على النفس الناشئة الفتية من شعور بالقلق ، ناجم عن التفكير فيما وراء الطبيعة ، والى الاضطراب الجنسى . سيما وان دار والديه كانت آهله بالفتيات الجميلات اللاتى كن يستسلمن لسيدهن الشاب ويقفن رهن اشارته ! فكان ذلك موضع اختباراته الاولى ، وقد وصفها بعد أعوام طوال لأصدقائه « جونكور » و « دوديه » و « فلوبير » فى أحد مجالسهم الادبية ، بقوله : « كنت فتى ناضر العود عفيف الجسد ، تتنازعنى الرغبات التى تتنازع عادة من هم فى الخامسة عشرة من عمرهم .. وكانت عند والدتى ، وصيفة جميلة تدل هيئتها على البله . على ان من الوجوه ـ كما تعلمون ـ ماتكسبها البلاهة مسحة من العظمة الغامضة !.. وقد حدث فى يوم رطب ، ممطر ، من تلك الايام المستحبة لدى العشاق لتبادل عبارات الغزل وآيات الحب ، أن وقع نظرى بغتة ، وأنا أتنزه فى الحديقة عند الفسق ، على تلك الفتاة .. فاذا بها تقترب منى ، أنا سيدها ، وتجذبنى من شعرى ثم تقول لى بلهجة آمرة : « تعال ! .. » أما ما أعقب ذلك ، فكان مجرد شهوة ككل الشهوات التى تتملكنا .. ولكن طريقة جذبها لى من شعرى دون أن تنبس الا بتلك الكلمة وحدها ، لاتنفك تعاودنى أحيانا ، ومجرد التفكير فيها يلذ لى ويطربنى ! » وقد تحدث الى « فلوبير » عن أول امرأة أحبها كما لو كان يتكلم عن شىء مجرد غير ملموس ، اذ قال :

« أما أنا ، فحياتى حافلة بالنساء ، فليس فى العالم كتاب أو ماعداه من الاشياء يمكن ان يغنينى عن المرأة .. ترى كيف أعبر عن ذلك ؟ .. اننى أرى أن الحب وحده هو الذى يستطيع أن يحدث فى النفس من الارتياح والنشوة مالا



رسم « كاريكاتورى » ساخر رسمه ترجنيف للمدرس الذى كان يدرسه « قواعد النحو » الفرنسية ، وقد علق عليه بقوله : « ان ذلك المدرس كان عصبيا ، ضيق الافق ، شغوفا باستنشاق السعوط الى حد الولع ، ثقيل الظل ، وان كان سليم الطوية ، ولوعا باطلاق النكتة ! »

يستطيعه أى شىءسواه !)) .. اصغ الى .. لقد كانت لى ، وأنا فى سن المراهقه ، خليلة تعمل فى مطحن بضواحى (بطرسبرج) . وكنت أراها أثناء ذهابى الى الصيد .. كانت فتاه رقيقة الحاشية ، لطيفة المعشر ، ساحرة القسمات، ولكنها كانت ترفض دائما كل ما أقدمه لها من مال ! على أنها فى ذات يوم قالت لى : « يجب أن تقدم لى هدية » واذ سألتها عما كانت تريد ، أجابتنى بقولها : « جئنى من (بطرسبرج) بقطعة من الصابون المعطر » . فلما أحضرت لها قطعة الصابون ، أخذتها منى ، ثم اختفت . وما لبثت ان عادت الى ، وقد كسا الاضطراب وجنتيها بلون وردى ، وتمتمت وهى تمد نحوى يدين يفوح منهما عبير منعش رقيق : « قبل يدى كما تقبل فى الصالونات أيدى سيدات بطرسبرج ! .. فجثوت على الفور عند قدميها ، وثق اننى لم أصادف فى حياتى لحظة تعادل تلك اللحظة ! »)

واذا ما بدأنا نستعرض ملامح تورجنييف عند ما كان فى الثامنة عشرة من عمره ، تبين لنا انه كان عملاقا فى تكوينه ، تتميز يداه — مع ذلك — بابهامين قصيرين ينمان عن ضعف وخمول .. (وكثيرا ما كان ينظر الى ابهاميه مرددا : «كيف يتسنى لى أن أشتهى ، وقد أوتيت مثل هاتين اليدين ؟!...) . وكان محياه يدل — عند النظرة الاولى — على المرح البرىء والسذاجة المشوبة بشىء قليل من البله الذى يمتاز به أولاد النبلاء الذين ولدوا وشبوا وسط الطبيعة .. وكان الناظر اليه ، يجد له مشية مترددة وابتسامة مثيرة تنم عن التحدى، ويلمح عنده مزاجا مرحا وصحة..وخمولا !.. وكان أبوه قد قضى نحبه ، الا ان « فارفارا بتروفنا » — أمه — كانت ما تزال فى عنفوان الحياة وكفيلة بأن تضطلع بسلطة رب الاسرة . وكانت — ككثير من الروس — تشعر بازدراء بالغ



ترجنيف فى سن ٢١ سنة



ترجنيف فى سن ١٢ سنة

لجامعات بلادها . ولما كانت (برلين) منبع العلوم والمعرفة فى ذلك الوقت ، فقد عقدت العزم على ارسال ابنها لاتمام دراسته فى ألمانيا !

والتقى فى برلين بجالية صغيرة من الشباب الروسى . وكان « ستانكفيتش » رائدهم وزعيمهم . وما لبث أن صادف ، بعد ردح من الزمن ، رجلين كان لهما تأثير كبيرعلى حياته ، هما « اسكندر هرزن » و « باكونين » . وكان « هرزن » ابنا غير شرعى لاحد الملاك الروس يدعى « ياكوفليف » ، وكان قد نفى من روسيا بسبب عقيدته ، ولما يتجاوز الرابعة والعشرين . أما « باكونين » فكان شخصية عجيبة شديدة التعقيد ، وكان يشبه تورجنييف فى نواح عديدة . فقد كان ـ مثل تورجنييف ـ ابن «بارين»، وكان أبوه يحكم اثنىعشر ألف نسمة فىمزرعة (برموخلينو) . وكان ـ مثل تورجنييف أيضا ـ عملاقا ، الا أن شعره الكستنائى اللون كانأكثف وأكثر غزارةمن شعر صديقه . وكان فى شبابه أكثر هياجا وأشد اضطرابا . فقد ثار على أبيه وعلى القيصر ، وحمل شقيقاته على مشاطرته حماسه فكن أشبه بكاهنات شيعة أخوية ، ينتظرنه وهن يقرأن للشاعر الرومانتيكى الالمانى « نوفاليس » ويبعثن اليه بالرسائل الحارة . **وقد اهتم تورجنييف كثيرا بباكونين ، فكان تارة يعجببفصاحة صديقه الجديدوبلاغته القوية الحادة، وطورا يشك فى أنه كان على غزاره يخفى نفسا ضعيفة فى جسم قوى غليظ !**

وفى غضون السنوات التى أمضاها تورجنييف فى ألمانيا ، كان باكونين لايزال معتدلا على نحو ماكان عليه هرزن . وكان هيجل الفيلسوف الذى يلتف حوله جميع هؤلاء المريدين ، لأنه كان يقول بأن كل ماهو حقيقى نابع من العقل ، فى الوقت

الذى كان فيه مريدوه يقبلون المجتمع كما وضعه التاريخ . ذلك ان الناس يطلبون دائما من كل مذهب أن يكون دليلا عقليا على مشاعرهم وأعمالهم ! فالشباب الروسى الذى كان يخضع فى سنة ١٨٤٠ للقيصر، كان يعرف انه مستبد، ولكنه كان يعبده على الرغم منه !.. وهذا الشباب كان يتوهم بأنه واجد فى « فلسفة الحق » لهيجل ، حججا وأسانيد لتعليل خضوعه .. كانوا يقولون له ان الدولة كيان حى ، وهى هى كما اوجدها التاريخ ، ولا يستطيع فرد ـ أو مجموعة ـ أن يغيرها تبعا لأهوائه . « وهكذا لا يوجد مجال للمناقشة فى ضرورة الطاعة المطلقة للقيصر ، فذلك أمر واضح جلى فى حد ذاته ! »

تلك كانت نظرية هيجل كما رأتها جماعة اليمين . على ان هرزن كان يتبين انه يمكن ان يستمد من هيجل بالذات، الدليل على شرعية كل مقاومة للاوتوقراطية ، اذ انه لو صح ان كل ما هو حقيقى نابع من العقل ، فالثورى ـ اذ يوجد ـ يعتبر جزءا من التاريخ !.. « اذا كان العقل يعزز النظام الاجتماعى القائم ، فان كل مقاومة له ، ما دامت موجودة ، تعد معززة كذلك » . وهكذا تشكلت من فلسفة هيجل صورة أخرى ، أخذت بها جماعة اليسار !

ويبدو ان تورجنييف ـ رغم اندماجه فى تلك المناقشات الفلسفية ـ قد ظل محافظا على مبادئه الاصلية ، حتى انه كثيرا ماكان يمزج الافكار السامية عن ماهية الحب الالهى بحياة وضيعة مليئة بالفسق والمجون !

٤ ـ تورجنييف والحب

عاد تورجنييف من ألمانيا وهو شاب يافع فى الثانية والعشرين من عمره . وقد ملأ السرور نفسه حين وقعت

أنظاره على برك المياه التى راحت تسبح فيها طيور البجع ، وحين أخذ يستنشق رائحة الكتان والقمح التى تنبعث من الحقول المترامية .. وكان صيادا ماهرا ، فما أن استقر به المقام فى قريته حتى عاوده ولعه بالصيد . فكان يستيقظ مع الفجر والنجوم لاتزال تتلألأ على صفحة السماء ، ويمضى يضرب فى السهول الروسية طولا وعرضا ، فى مركبة يجرها زوجان من الجياد المطهمة الاصيلة . وكان اذا ما اشتدت عليه برودة الصباح ، انكمش على نفسه داخل معطفه واستسلم لسنة عذبة من الاسترخاء والنوم !

وعلى أثر عودته الى (سباسكوى) ، اتخذ تورجنييف من حائكة والدته خليلة له، فرزق منها بطفلة أسماها «بيلاجيا» . واذ أعرب لوالدته عما يساوره من قلق واضطراب بشأن والدة طفلته ، كتبت اليه تقول : « يالك من شخص غريب ! .. انى لا أرى هناك ضررا لا من جانبك ولا من جانبها .. وما الامر الا مجرد نزوة طبيعية بسيطة ! »

ولعل ما يفسر هذا التصرف العجيب من قبل الوالدة ، أن أخلاق الارستقراطية الروسية فى غضون سنة ١٨٤٠ كانت وليدة أخلاق القرن الثامن عشر الفرنسى ، وان كانت تختلف عنها فى بساطتها وسذاجتها .. وبينما كان تورجنييف ماضيا فى اشباع غريزته الجنسية ، كان يعمل فى الوقت ذاته على انشاء علاقة أخرى روحية مع احدى شقيقات صديقه « باكونين » ، وكانت تدعى « تاسيانا » . وكانت فتاة فى السابعة والعشرين ، متحمسة ، مولعة بالمثل العليا . وكان باكونين قد عهد الى تورجنييف فى برلين بخطاب الى أسرته ، فاستقبلته فى (بريموكينو) استقبال الصديق النائب عن الشقيق ! .. ولم يلبث ، بما عرف عنه من براعة وقدرة على رواية القصص الطريفة الشائقة ، ان اجتذب اليه

الشقيقات الثلاث العذارى ولاسيما ((تاسيانا)) التى كانت تعبر عن شعورها نحوه بقولها انها التقت برجل عبقرى !..

ولكن علاقات تورجنييف بالنساء كانت تمتاز دائما بطورين .. فقد كان يندفع فى بادىء الامر تحت تأثير شهوته ، حتى اذا ما منحته المرأة حبها وأوشكت على الاستسلام له ، تبين انه لم يخلق للنزوات العنيفة وانه يمقتها ، فاذا به يرتد خجلا من نفسه مخيبا رجاء المرأة فيه ، فسرعان ما يتحول حبها الى يأس فاحتقار !

وذلك ما حدث مع ((تاسيانا باكونين)) ، اذ بدأ يطارحها الهوى ، فما أن بدت عليها عوارض الهزيمة حتى تقهقر وعمل على أن يسمو بعلاقته بها من المستوى المادى الى المستوى الروحى . وقد كتب اليها ذات مرة يقول : ((اننى لم أحب امرأة قط أكثر منك ، بل لعلنى لم أحبك أنت حبا عميقا كاملا ! .. وانى لعمرى أود أن أكون شاعرا من أجلك .. من أجلك وحدك ، أنت التى ترتبط بها روحى ارتباطا عميقا يجل عن الوصف .. أواه ، ليتنا نستطيع ان نتنزه فى صباح يوم من أيام الربيع تحت أشجار الصفصاف ، فأمسك يدك بيدى ، وأشعر بأن روحينا تمتزجان وأن كل ماهو وضيع سفيه قد تلاشى الى الابد !)) .. وما أن توثقت عرى المودة بينها وبين تورجنييف ، حتى عرفت فيه شابا شارد البال يتحدث عن الفضيلة بطيش ورعونة، فاذا بها تقول فى مرارة : ((يا للغرابة ! .. كم من أناس يستطيعون أن يحملوا أنفسهم على الايمان بكل مايريدون .. وكم تبدو أقدس الاشياء فى نظرهم أشبه بالعرائس والدمى ، فلا يترددون فى انتزاع كائن آخر من حياتهم واقصائه بعيدا عنهم ! ولكن ترى لماذا لايستطيعون أن يروضوا أنفسهم على الاستقامة والشرف ؟ .. أتراهم لا يعرفون ماهو الحق وما هو الحب ؟))

٥ - طريق الأدب

ولكن ما الطريق الذى سلكه « ايفان سيرجيفيتش تورجنييف » فى الحياة ؟ .. لقد فكر فى أن يكون مدرسا للفلسفة ، ولكنه سرعان ما عدل عن هذه الفكرة كما أعرض عن مزاولة اية مهنة أخرى ، فلقى من والدته مايشجعه على البقاء عاطلا بغير عمل، اذ قالت له : « أتريد ألا تعمل شيئا ؟ .. فليباركك الله ! .. لا تعمل شيئا ، ولتعش مطمئنا ناعم البال .. اكتب ، وتنزه ، وتمتع بالصيد ، وسافر ان كان يروق لك السفر !.. امض الشتاء فى بطرسبرج ، واغش المسارح ، ثم عد الى الريف متى أطل الربيع .. أما فى الصيف فقد نسافر .. وفى الخريف ، يمكنك أن تستمتع بالصيد .. وخلاصة القول : عش ودعنا نعش بالقرب منك ! »

على أن الحياة بالقرب منها لم تكن بالامر الميسور المستحب ، اذ كانت كلما تقدمت بها السن ، ازدادت أطوارها غرابة وأخلاقها شراسة وجنونا . فاذا صادف مثلا ان استيقظت من نومها فى صباح عيد الفصح وهى ضيقة الصدر أو منحرفة المزاج ، أمرت فلاحيها فى الحال بعدم قرع الاجراس فى قراها العشرين وعدم الاحتفال بالعيد ما دامت لاتستطيع الاستمتاع به ! .. وقد أمرت يوما بتحويل مجرى أحد الانهار لأن خرير مياهه كان يقلقها فى نومها . وكثيرا ما كان ايفان المتشبع بروح الديمقراطية يشتبك معها فى نزاع لا نهاية له بشأن الفلاحين الارقاء ، ولكنه كان دائما ينصرف عنها مهزوما مسلما بهزيمته ، ومن ثم حاول أن يبتعد عنها ويعيش فى (بطرسبرج) ويلعب فيها دور « دون جوان » على غرار بيرون والشعراء الرومانسيين، ولكن احدا من الناس لم يول ذلك الرومانتيكى أى اهتمام . وكان العاشق الخجول

يثير حوله السخرية والابتسام ، اذ كانت تتنازعه عواطف متناقضة هى خليط من الاقدام والحذر والجرأة والاحجام، ولذا أمضى جل وقته يقرض الشعر ويؤلف المسرحيات ويناقش أصدقاءه ومن بينهم الناقد المعروف «بييلينسكى» ، فيدور الجدل بينهم حول « الغرب وروسيا » .. وهناك أيضا - كما كان شأنهم فى الجامعة - كانوا يتحدثون فيفيضون فى الحديث ، حتى لقد نفذ مرة صبر بييلينسكى، فاذا به يهتف فى صديقه قائلا : « تبا لك يا ايفان .. لقد تناقشنا ست ساعات متوالية ، وما زلنا نجهل هل الله موجود أم لا ، فهيا بنا نتناول العشاء ! »

وكان عالم الأدب فى (بطرسبرج) ينقسم اذ ذاك الى فريقين : فريق الصقالبة وفريق الغربيين . وكان أنصار الفريق الاول يحاولون أن يجدوا فى سمو الروح الروسية وسذاجتها ، مادة يغذون بها فنهم وفلسفتهم .. فكل ما هو روسى كان فى نظرهم رائعا مقدسا : المذهب الارثوذكسى ، والحياة الروسية ، والفن الروسى .. وكانوا يعتقدون أن اليوم الذى سوف تصبح فيه روسيا ، بقدرة العناية الالهية، منارة تضىء خطوات الانسانية العاثرة ، آت لا ريب فيه .

أما انصار الغرب فكانوا على نقيض ذلك يقولون بضرورة دخول روسيا مدرسة الغرب . **وكان تورجنييف الذى تلقى علومه فى برلين وطالع ((شيللر)) و ((جورج صاند)) ، يرتاح الى الاختلاط ((بالغربيين)) والاندماج فى أوساطهم .** وقد أورد على لسان « بوتوجين » بطل روايته « الدخان » نقدا لاذعا الى أنصار الصقالبة اذ قال : « زرت فى هذا الربيع قصر الكريستال فى لندن . وهذا القصر، كما تعلمون، يضم نماذج لجميع المخترعات ، وهو بعبارة أصح دائرة معارف للانسانية بأسرها . وقد جلت بين هذه الآلات

والادوات وشاهدت جميع تماثيل العظماء ، فانتابتنى هزة من الهلع اذ طرأت على ذهنى فكرة هى : اذا اختفت أمة من عالم الوجود فجأة واختفى معها كل ما فى هذا القصر مما اخترعته ، فان أمتنا الصغيرة ، روسيا الارثوذكسية ، تستطيع أن تغوص فى التترية دون أن تزعزع مسمارا واحدا أو تغير شيئا فى هذا الوجود ، اذ ان مائدة الشاى الروسية والاحذية الروسية و « الفلقة » الروسية ، وهى من أهم منتجاتنا ، ليست من صنعنا نحن ! »

وكان انصار الصقالبة ـ على النقيض من ذلك ـ يعتقدون أن الحضارة الاوروبية تسير فى طريق الانحطاط بخطوات بطيئة ثابتة ، وأن روسيا هى البلد الوحيد الذى يمكن أن يعلق عليه الامل فى الخلاص . أما فى نظر أنصار الغرب ، فقد كانت روسيا دولة لا تقل تخلفا عن غيرها من الدول ، بل لعلها كانت أشد الدول جميعا تأخرا . وبذلك كانت هوة الشقاق بين الحزبين عميقة ، والصراع بينهما شديدا عنيفا !

وعلى الرغم مما كان يبدو على تورجنييف من ميل ظاهر الى الحضارة الغربية فلم يك فى استطاعته أن يحدد موقفه من الحزبين . ففى السياسة ، كما فى الحب ، لم تكن النزعات العنيفة الجارفة من طبيعته .. **لقد كان من أولئك المراقبين المحايدين الذين يفطنون دائما الى ماتنطوى عليه آراء أعدائهم من حقيقة وصواب** . فانه ـ مثلا ـ لم يكن يقر استبداد الاحزاب والمنتديات ، فكان يقول : « ان المنتدى يحول تيار الحديث الى مناقشات حادة ، ويدفع بالرجال الى الثرثرة الجوفاء ، ويفقدهم نضارة الروح وصفاءها ، كما ان الحياة تسير فيه على وتيرة واحدة ، تبعث السأم والملل فى النفس باسم الصداقة والعطف ! » ..

ولكنه رغم انتقاده اللاذع المر لعيوب المنتديات ، كان لا يفتأ يتردد على أشهرها عن طيب خاطر !

٦ - « بولين فياردو »

فى شتاء سنة ١٨٤٣ - ١٨٤٤ ، افتتحت الفرقةالتمثيلية الايطالية موسمها الغنائى فى (بطرسبرج) بعد أن ظلت زمنا طويلا بعيدة عنها . وكانت الفرقة تضم بين مغنياتها « مدام بولين فياردو » التى كان اسمها الاصلى « بولين جارسيا »، وكانت تنتمى الى أسرة تمثل الفن الموسيقى بأجلى معانيه ، اذ كان والدها مغنيا إسبانيا شهيرا . وقد غنت « بولين » لاول مرة بعد وفاة شقيقتها « ماريا فيليتشيا (١) » بثلاثة أعوام ، فلما سمعها الشاعر « موسيه » خيل اليه أنه يستمع الى صوت حبيبته الراحلة ! فحاول أن يغازلها ، بيد أن « بولين الخائنة » أقصته عنها واقترنت بالمسيو لويس فياردو ، مدير الاوبرا الايطالية فى (باريس) . **وقد مهدت السبيل الى هذا الزواج الكاتبة المعروفة « جورج صاند » ، اذ كانت تحب بولين حبا جما حتى لقد اتخذت منها نموذجا حيا لبطلة روايتها « كونسويلو » .**

ولم تكن بولين جميلة بمعنى الكلمة ، بل كانت - على العكس من ذلك - تبدو للناظر اليها ، بظهرها المحدودب وعينيها البارزتين وملامح وجهها القوية ، دميمة منفرة !.. لكن دمامتها كانت من النوع الذى يجذب الرجال ويستميل قلوبهم ، حتى إن الشاعر الالمانى الشهير « هنرى هين » كان

(١) مغنية مشهورة تدعى «لامالبيبران» ، وقد ولدت فى باريس عام ١٨٠٨ وتوفيت عام ١٨٣٦ ، وكانت فى وقت ما عشيقة للشاعر الفرنسى المشهور « ألفريد دى موسيه » .

يشبهها بغابة موحشة غريبة ! .. وفى يوم عقد خطوبتها على فياردو ، قال أحد الرسامين البلجيكيين لخطيبها : « انها دميمة .. دميمة للغاية ، ولكن لو قدر لى ان أراها مرة ثانية فلن أتمالك نفسى من الوقوع فى حبها ! »

وقد أحرزت بولين نجاحا باهرا ، ولهجت الالسنة بالحديث عن الاوبرا الايطالية ، حتى ان الطلبة كانوا يجتازون نهر «السنيفا» ويخاطرون بحياتهم فى صقيعه وجليده الهشين ، علهم يحصلون على أماكن ليستمعوا الى صوت المغنية الملهمة» !

وفى اليوم الاول من نوفمبر عام ١٨٤٣ ، تعرف اليها تورجنييف ، فكان ان صار هذا اليوم مقدسا عنده يحتفل بذكراه كل عام .. ولم توله بولين أول الامر اهتماما كبيرا ، ولا بد انها سمعت عن شهرته كصياد ماهر وشاعر عاثر . ولكن المثابرة تعد فى نظر النساء فضيلة كبرى !.. وقد أخلص لها تورجنييف ومضى يوالى التردد عليها حتى انتهى بها الامر الى ان أذنت له بدخول مقصورتها بالمسرح . **وكانت أرض تلك المقصورة يكسوها جلد دب أبيض تجلس بولين فى وسطه ، دون ان يستر جسدها البض الا ثوب فضفاض من الحرير الأبيض الشفاف** . وكان حق الجلوس بجانبها ، يعد شرفا عظيما لا يحظى به الا المقربون اليها .. وكان يتحتم على كل من يفوز بذلك الشرف ان يروى ـ أثناء فترة الاستراحة ـ قصة لمدام فياردو . فكان يقدر لتورجنييف أن يظفر دائما بالمرتبة الاولى فى هذا المضمار . ولم تلبث قصة غرام تورجنييف بمدام فياردو أن انتشرت فى جميع أنحاء بطرسبرج . وكان من جانبه لا يألو جهدا فى التحدث عنها الى جميع رفاقه وأصدقائه . وكان تصفيق هذا العملاق يزعج بحدته كل مساء ، جمهور النظارة فى دار الاوبرا . وفى الصيف التالى ، سافر لاول مرة الى فرنسا لزيارة مدام

فياردو فى قصرها الشائق فى (كورتافنيل) ، وهناك توثقت عرى الصداقة بينه وبين الزوج لويس فياردو وأطفاله ..
على انه من الصعب أن نقرر ما اذا كان تورجنييف قد صار عشيقا لمدام فياردو ، اذ لم يكن لويس فياردو بالزوج



« بولين فياردو » فى سن الرابعة والعشرين

المتفافل ، ولكن الا يحتمل - مع ذلك - أن يكون قد جهل الحقيقة أو ظل غافلا عنها ؟ .. وكيفما كان الامر ، وسواء كانت عاطفة تورجنييف حبا أو صداقة ، فقد أصبحت منذ ذلك الوقت تملأ عليه حياته ! .. ولما لم تعد بولين فى السنة التالية الى بطرسبرج ، اذ شدت رحالها الى برلين ، لحق بها تورجنييف حيث رافقها بعد ذلك الى درسدن ، ثم قفل راجعا معها الى قصر (كورتافنيل)

وكان القصر يقع فى (لابرى) على بعد ستين كيلومترا من باريس . **وقد وجد تورجنييف فيه المرأة التى يحبها ، والموسيقى العذبة التى تبعث النشوة الى أعماق قلبه ، والصيد الوفير الذى كان يقضى وقته فى مطاردته واقتناصه ، فمكث هناك فصل الصيف بأكمله مطمئنا ناعم البال** .. ولعل موقفه كان اذ ذاك يبدو فى نظر الفرنسى أدعى الى الغرابة والدهشة منه فى نظر الروسى ، الذى جاء من بلاد لا حد لحسن الوفادة فيها اذ هى من تقاليدها الموروثة ، حيث تفتح أسرها بيوتها للغرباء فيأوون اليها وسرعان ما يعدون من أبنائها ! .. ولما أقبل الشتاء ، وبدأت أسرة فياردو جولاتها الغنائية ، استأجر تورجنييف حجرة بالقرب من (الباليه رويال) فى باريس ، وأخذ يتردد كل يوم على مدام جارسيا ، والدة بولين ، التى كان يدعوها «ماما» ! ولم يكن يهتم اذ ذاك بشىء فى الوجود قدر اهتمامه ببولين وأسرتها ومهنتها . وفى صبيحة كل يوم . كان يبعث اليها برسائل طويلة يحدثها فيها عن كل شىء .. كان يرشدها فيها الى الكتب التى تجدر بها مطالعتها ، ويمتدح عقلها الراجح ، ويصف لها نزهاته فى حدائق (التويليرى) . وقد كتب اليها ذات يوم يقول : « اننى أرقب الاطفال وهم يمرحون ويلعبون .. فملاطفاتهم وحركاتهم الرزينة ووجناتهم الوردية الصغيرة التى لسعها الشتاء

ببرده القارس ، ورعاية الخادمات لهم وحدبهن عليهم ، والشمس الجميلة الحمراء التى ترسل أشعتها الى أشجار الكستناء الضخمة ، والتماثيل ، والمياه الراكدة ، وعظمة قصر (التويليرى) بلونه الرمادى القاتم .. كل ذلك يلذ لى، ويسرنى غاية السرور ، ويروح عن نفسى ، ويريحنى من عناء العمل .. أتراك تذكرين ذلك اليوم الذى كنا ننظر فيه الى السماء الصافية الاديم من خلال أوراق الصفصاف الذهبية ؟ .. اننى أقضى هنا حياة هنيئة ممتعة .. اعمل فى الصباح، وفى الساعة الثانية بعد الظهر أخرج لزيارة «ماما» (أى والدة بولين) ، فأمكث عندها زهاء نصف الساعة ، ثم أطالع الصحف ، وأتريض ، وأذهب بعد العشاء الى المسرح أو أعود الى « ماما » ، وأخيرا آوى الى فراشى ، وهذا كل ما هنالك ! »

ومما يذكر ، أنه كان يسدى اليها نصائح قيمة عن فنها ، ويسدد خطاها فى هذا السبيل . فكان يمدها بتوجيهاته اذا ما طلب اليها تمثيل دور « افيجينى » ، فيشير عليها بأن تطالع « جوته » ، ويعرب لها عن ثقته بأنها ستكون خير من يقوم بدور تلك الشخصية التى تمتاز ببساطتها الاغريقية القديمة وطهرها الهادىء العذب .

وعندما كانت بولين بعيدة عنه ، كان يجد لذة لا تعادلها لذة فى مطالعة الصحف لتتبع خطوات صديقته والوقوف على أنباء نجاحها الباهر . وقد حدث ـ ذات يوم ـ بينما كان يقيم بمفرده فى قصر (كورتافنيل) ـ اذ كانت أسرة فياردو قد رحلت الى انجلترا ـ أن اقترض ثلاثين فرنكا من عمة بولين ، وأنفقها فى الذهاب الى باريس ليطالع فى الصحف الانجليزية بيان الحفلة الموسيقية التى أقامتها بولين فى لندن ! على أن أهل القصر ما لبثوا أن أخذوا يضيقون به ذرعا

ويتذمرون من وجوده بينهم ، لكنه لم يفهم ذلك ، اذ سرعان ماكتب الى بولين يقول : « ماذا حل بفياردو ؟ .. أتراه ضجر من إقامتى هنا ؟ اننى أعيش حزينا كئيبا كالكلب الذى يشعر بأن الناس يسخرون منه ويهزأون به ، فيرفع عينيه وينظر الى من حوله وكأنما ضوء الشمس الساطع يبهر بصره ! »

٧ – فى فرنسا

وفى غضون اقامته الطويلة فى فرنسا ، التى امتدت من عام ١٨٤٧ الى عام ١٨٥٠ ، لم ينقطع تورجنييف عن الكتابة لحظة واحدة .. فقد نشر فى المجلات الفرنسية ، قبل عودته الى روسيا ، سلسلة رائعة من القصص الروسية . ولطالما تحدث كثيرون من الكتاب الروس عن أفراد الشعب ، بيد ان أحدا منهم لم يصور روح الفلاح المستعبد بالدقة والصدق اللذين صورها بهما تورجنييف فى صفحاته الخالدة . فقد بين للرأى العام الروسى أن هؤلاء الفلاحين الفلاظ الخشنين ، الذين يعاملون كالحيوانات ، ويباعون فى الاسواق ويشترون كالسلع ، بغض النظر عن أواصرهم العائلية ، انما يضمون بين جوانحهم روحا سامية وشعورا عذبا رقيقا وقلبا يفيض بأسمى العواطف وأنبلها ..

وهكذا استطاع بكلماته أن يوحى الى روسيا بقيمة شعبها وان يوحى الى الشعب بجمال بلاده ! .. وقد عرف بعبارات مستترة لبقة ، ان يمزج بين جمال الطبيعة الباردة الصماء وحياة الناس ، وأن يخلق فى قصصه جوا من الصمت الرهيب ، مما جعل وقع عباراته الدقيقة يسمع بجلاء ووضوح . وكانت مناظر الطبيعة التى يرسمها بقلمه الساحر تتجلى فاتنة رائعة ، حتى انه لم يسبق لكاتب أن تحدث عن

الاشجار وأوراقها بمثل الروعة التى تحدث بها هو عنها . فقد كتب فى وصف الطبيعة يقول عنها : ((.. **وكانت الاغصان فوق رأسى لا تكاد تنثنى . الا أن هذا الحفيف الصامت كان كافيا لتحديد فصل السنة ، فلم يك فى الواقع شبيها بخلجات الربيع المرحة الضاحكة ولا بهمهمة الصيف البطيئة المداعبة ولا بهمسات الخريف الوديعة الطيبة ، ولكنه كان أشبه بذبذبة ناعمة ناعسة ! ..**)) . ومثل هذا الوصف لا يمكن أن ترسمه الا ريشة رجل عاش فى وسط الطبيعة وامتزج بها ووقف على خفاياها وأسرارها !

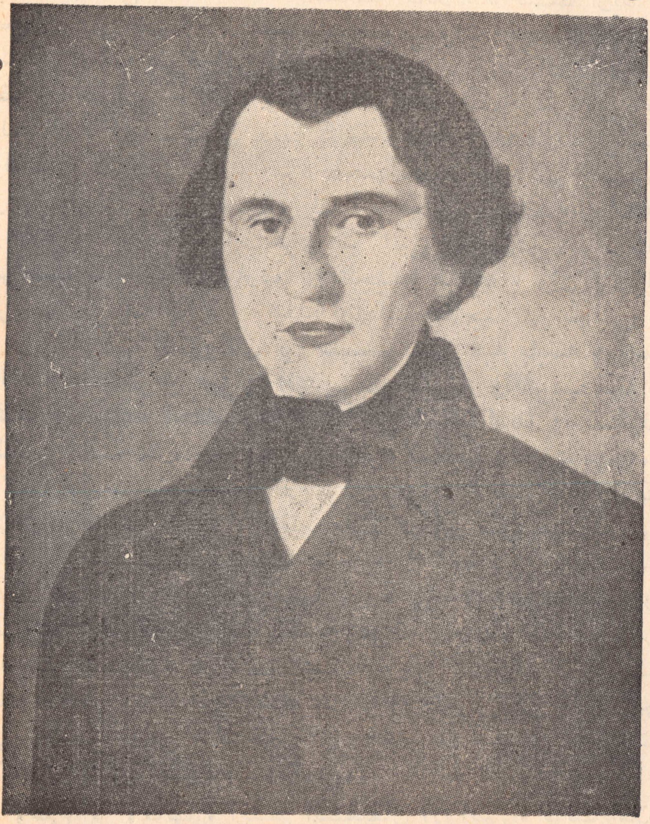
ولعل أكثر ما كان يؤثر فى نفوس القراء الروس انما هو ذلك النقد اللاذع الذى كان يوجهه الكاتب بطريقة غير مباشرة الى نظام استعباد الفلاحين ، وقد كان تورجنييف فنانا عظيما أرفع من أن يبسط نظرية ويتولى الدفاع عنها . ولو قد فعل ، لكانت الرقابة ـ على كل حال ـ قد حالت دون نشر قصصه . على أن مجرد جنوحه فى كتاباته الى التحدث عن الفلاحين وجعله أولئك الاشخاص ، الذين لم يكن أحد اذ ذاك يعرفهم على حقيقتهم أو لا يكاد يعرفهم ، يعقلون ويشعرون ، يعد فى حد ذاته ضربا من ضروب النقد البارع . فقد كان يبرز شظف عيشهم وقسوة رؤسائهم وجهل ملاكهم ، ويصف كيف كان السيد ، وهو ثمل ، يكره الفلاحات على الرقص والغناء طوال الليل ، وكيف كان يستحثهن على مواصلة الرقص بالسياط اذا ما بدت عليهن عوارض الاعياء والكلل ! .. **وقد كان يستحيل على القارىء الغربى أو الروسى المتشبع بمبادىء الغربيين وعقائدهم ، أن يطالع تلك القصص دون أن يفكر فى قرارة نفسه أن مثل هذه الحال ما كانت لتدوم الى مالا نهاية !**

٨ ــ العودة الى روسيا

وفى عام ١٨٥٠ ، عقد تورجنييف عزمه على العودة الى روسيا وقد انتابه شىء من الخوف والوجل من والدته نظرا لانه فى كل مرة كان ينبئها فيها بمقدمه ، لا يلبث أن يعود فيعدل عن رأيه ، وظل يسير على هذا المنوال زمنا طويلا .. ولكنه عزم أخيرا على الرحيل ، فحزم أمتعته وكتب الى المسيو فياردو يودعه قبيل سفره قائلا : « لست أريد أن أغادر فرنسا ، يا صديقى العزيز ، دون أن أعبر لك عن عظيم حبى وتقديرى ومبلغ أسفى لفراقك .. ولا شك فى أن للوطن الاصلى حقوقا ، ولكن أليس الوطن الحقيقى هو حيث يكون العطف والمودة ، وحيث يشعر القلب والعقل بالراحة والهناء ؟ ! .. والواقع أن ما من مكان فى الدنيا يحظى بحبى مثل (كورتافنيل) ..!!

وكانت « فرفارا بتروفنا » قد ترقبت عودة « جانيت » ــ كما كانت تسميه ــ بلهفة وشغف ، فلما طال غيابه ــ لا سيما بعد ان تعلق قلبه بتلك المغنية نصف الفرنسية ونصف الاسبانية ــ ثارت ثائرة ملكة (سباسكوى) المخيفة واستشاطت حنقا على ولديها لهروبهما ، الواحد تلو الآخر ، من ذلك المنزل الذى كانت تأمل أن تسيطر فيه عليهما وعلى زوجتيهما واطفالهما !.. وكانت قد أقامت فى الطريق الرئيسى المؤدى الى القصر لوحة تحمل هذه الكلمة : « سيعودان » ، ولما لم يعودا ، أمرت بانتزاعها .. وأخيرا ، عندما وصل ايفان قادما من باريس ، أخذت ترحب به ، ولكن سرعان ما نشبت بينها وبين نجليها مناقشات حادة حول المال ، اذ كان ابناها قد طردا من القصر فتاة كانت قد تبنتها ، فما لبثت الام ــ بدافع السطوة والاستبداد ، لا البخل ــ أن رفضت

منحهما شيئا من المال . فقررا أن يهجراها ، وذهب نيقولا يطلب العيش فى أملاك والده فى (تورجنييفو) ، وسرعان ما لحق به ايفان !



ترجنيف فى سن الخامسة والعشرين

والتقى ايفان هناك بـ « بيلاجيا » الصغيرة ، ابنته التى كان قد رزق بها من الحائكة . فكتب الى مدام فياردو يحدثها عن تلك الطفلة التعسة قائلا : « لست أريد أن تجهلى عنى شيئا .. فمنذ تسع سنوات خلت ، كنت فى الريف أتقلب على فراش الكآبة والضجر . واذ ذاك استرعت نظرى احدى حائكات والدتى ، وكانت فتاة على شىء من الجمال ، فهمست فى أذنها بكلمة رقيقة . فانقادت لرغبتى وأذعنت لارادتى .. وأخيرا نفحتها قليلا من المال ومضيت فى سبيلى .. » وراح يروى لها انه يحاول مساعدة الوالدة ، وانه يريد للطفلة حياة أخرى غير التى تحياها . واذ ذاك عرضت عليه مدام فياردو أن تأخذها عندها ، وان تتولى تربيتها مع أطفالها .. وهكذا أرسلت بيلاجيا الى باريس !

وفى الوقت الذى كان تورجنييف يعنى فيه بابنته ، كانت والدته تحتضر فى منزلها القديم بموسكو . والغريب انها لم تفقد فى ساعة احتضارها شيئا من استبدادها وسطوتها اللذين كانت تمارسهما وهى فى نضرة شبابها وتمام صحتها ..
وكتب عندئذ تورجنييف الى بولين يقول : « لقد كانت أيامها الاخيرة حزينة كئيبة .. فليحفظنا الله من مثل ميتتها .. فانها لم تحاول فى ساعاتها الاخيرة الا التغاضى والنسيان ، حتى لقد أمرت فى ليلة وفاتها بأن يؤتى ، فى الغرفة المجاورة لغرفتها ، بفرقة من الموسيقيين تعزف ألحانا راقصة ، وكأن زفرات المحتضرة ما كانت لتتصاعد من صدرها الا على مثل تلك الانغام .. واننى لأشعر بالخجل يغمرنى من قمة رأسى الى أخمص قدمى ، اذ أقول ان والدتى لم تفكر فى لحظاتها الاخيرة الا فى افقارنا انا واخى .. »

وعلى أثر وفاتها ، اقتسم الشقيقان الاراضى ، فآلت أملاك (سباسكوى) الى ايفان .. وقد سلك السيد الجديد مع

اتباعه مسلكا ينطوى على الطيبة والكرم ، ولكنه لم يحاول يوما ما أن يحـرر فلاحيـه من الرق . ومع انه كان يضيق بامتلاكهم ، فقد كان يجزع من الاقدام على اتخـاذ قرارات خطيرة حاسمة كتحرير الفلاحين . على أنه لم يشعر أحدا من أتباعه بوطأة الشقاء فى اراضيه ، حتى لقد كان الفلاحون يسرقون ــ ما استطاعوا الى ذلك سبيلا ــ تورجنييف الذى كانوا يسمونه « السيد الاعمى » بسبب « المونوكل » الذى كان يضعه على عينيه !.. ويروى تورجنييف ذاته أن عربته توقفت عن السـير يوما وسـط الثلوج المتراكمة ، ولما طال بها الوقوف أطل من النافذة ليستطلع جلية الامر ، وكم كانت دهشته عنـدما رأى الحوذى والسـائس واثنين من الفلاحين العبيد يلعبون الورق . فلم يجرؤ على الكلام ، بل لبث هادئا فى مكانه حتى انتهى خدمه من اللعب .. ولا شك فى أن هذه صورة لطيفة شيقة لنظام استرقاق الفلاحين !

ولم يكن تورجنييف يفكر اذ ذاك الافى «بولين» و(كورتافنيل) . فكان لا ينفك يكتب الى حبيبته يقول : « **ما من يوم يمر دون أن تطرأ ذكراك العزيزة على خاطرى مائة مرة ، وما من ليلة تمر دون أن أراك فى أحـلامى ! .. فيـاليتنى استطيع أن أفرش حيـاتى كالبسـاط تحت قدميك المحبـوبتين اللتين أقبلهما ألف مرة !.. انك ولا شك تعلمين اننى ملك لك الى الأبد جسدا وروحا !** » وختم خطابه الذى يستأذنها فيه أن يهديها كتابه « مذكرات صياد » ، بقوله : « أما أنت فأقبل قدميك ساعات طوالا .. وألف شكر لاظافرك النـاعمة العزيزة ! » .

وكان تورجنييف يعيش وقتئذ فى موسكو .. وقد نالت فيها قصصه نجاحا منقطع النظير . فأقبل النـاس على قراءتها ، واشتروا مئات النسخ منها ، فاذا باسمه يتألق فى

سماء الشهرة ، ويصبح موضع حديث العامة والخاصة ، فسعى الكل الى معرفته ، وفتحت أبواب القصور أمامه . وكان يؤلف مسرحيات هزلية مضحكة كتلك التى أشتهر بها الكاتب الفرنسى « ماريفو » فى القرن الثامن عشر . وكان فى حفلات افتتاح تلك المسرحيات ، يردد اسم بولين مستبشرا به ! .. وكان قلبه الجريح المفعم بحبها يخلع عليه مسحة من الكآبة والألم تليق بكاتب شاب بلغ من الشهرة أوجها . وكانت قصته « مذكرات صياد » تتسم بجرأة بالغة ، فلم تلبث أن نالت تقدير شبان الجيل الجديد واعجابهم . ولكن بوليس القيصر السياسى أخذ يراقب حركاته وسكناته ، ويقتفى أثره ، ويضيق عليه الخناق ، مع انه لو قد رأى ما اوتيه ذلك العملاق من أنامل رقيقة ، لما أوجس خيفة منه على الاطلاق !!

القسم الثانى

٩ - فى السجن والمنفى

قضت الثورة الفرنسية ، التى اندلعت نيرانها فى غضون سنة ١٨٤٨ ، على راحة القيصر نيقولا الاول واقضت عليه مضجعه ، فاضطر ذلك العاهل المستبد الى قمع عدة حركات ثورية نشبت فى بولندا وهولندا ، واخذ « دون كيشوت » الاوتوقراطية يكافح فى غير هوادة ويستميت فى النضال ضد سحرة الديمقراطية . وكان رجال الرقابة ، أسوة بغيرهم من الموظفين ، يتزلفون الى القيصر ويسايرونه فى أهوائه ونزواته ، حتى انهم كانوا ، كلما وقعت أنظارهم فى مقال على عبارة « جلال الطبيعة » ، يبادرون بشطبها ، بحجة ان لقب « الجلالة » لا يجوز اطلاقه الا على الذات الملكية ! ..

والعجيب فى أمر هذه الرقابة الصارمة ، أنها تركت كتابا « كمذكرات صياد » يفلت من مخالبها ، ولكن مما يدعو الى الاسف، انها لم تدع مؤلفه ينجو من قبضة يدها أمدا طويلا !

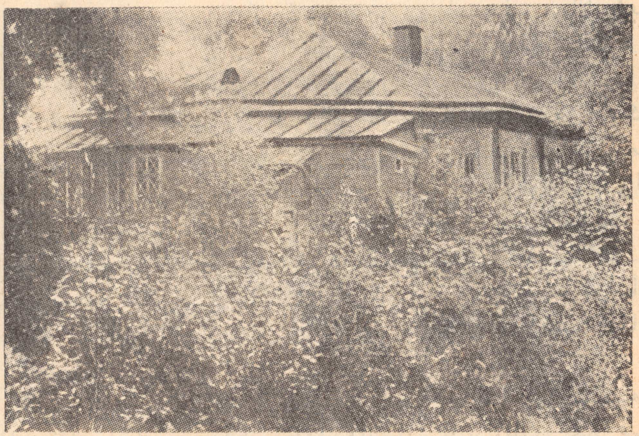
ففى عام ١٨٥٢ ، توفى فى موسكو الكاتب العظيم « جوجول » ، فكتب تورجنييف الى بولين فياردو يقول : **« ليس فى روسيا بأسرها من لايقطر قلبه دما فى هذه اللحظة الرهيبة .. لقد كان جوجول فى نظرنا أكثر من كاتب ، اذ أظهرنا على حقيقتنا وبصرنا بأنفسنا ! .. ان هذه الكلمات قد تبدو لك مشوبة بالمبالغة ووليدة الحزن والشجن، ولكنها فى الواقع صادقة خالصة ، لا يستطيع غير الروسى أن يشعر بها ويدرك مغزاها .. وانى أؤكد لك بأننى لم أتأثر فى حياتى قط تأثرى بوفاة جوجول ، حتى ليخيل الى الآن ان الظلام يخيم بصمته الرهيب فوق رأسى ! »**

وما لبث تورجنييف ان كتب لاحدى الصحف مقالا يؤبن فيه أستاذه . بيد ان رقابة بطرسبرج لم تسمح بنشره ، ليس لأنه كان مثيرا للخواطر ، بل لأن جوجول كان كاتبا ، والكتاب كانوا يعتبرون اذ ذاك خطرا على المجتمع ، وكل اطراء أو مديح يسبغ عليهم — حتى بعد وفاتهم — كان يعد تحريضا للشبان على الاهتمام بأمور تستوجب اللوم .. ولم يحتج تورجنييف على ذلك التصرف الأخرق ولم يغضب ، بل أرسل المقال الى موسكو حيث سمح بنشره رقيب أكثر وعيا وأرجح عقلا من زملائه فى بطرسبرج . ولكن ما ان بلغ الحادث مسامع الامبراطور حتى أمر باعتقال صاحب المقال على الفور !

وقضى تورجنييف فى السجن شهرا واحدا لم يشعر خلاله بالشقاء أو الوحدة . فقد كان الشارع الذى يقع فيه

السجن ـ على سعته ـ يضيق كل يوم بعربات زواره . وكانت النساء يرسلن اليه ايقونات مقدسة ، والفتيات زهورا مجففة ، والرجال مالذ وطاب من الطعام والشراب .. وبعد انقضاء عشرين عاما على حادث الاعتقال ، كان تورجنييف لا ينفك يروى لاصدقائه فى باريس كيف كان « قومندان » البوليس ـ بعد استسلامه لنشوة الشراب ـ يرفع كأسه هاتفا : « ليحيا روبسبيير » !

وأثناء وقت فراغه فى السجن ، استطاع تورجنييف أن يدرس اللغة البولندية ، وان يضع قصة عنوانها « مومو » ، وهى قصة حقيقية وقعت فى منزل « فرفارا بتروفنا » والدة تورجنييف وبطلة القصة .. **وتدور حوادث القصة حول فلاح من العبيد اسمه « جيراسيم » ، يعمل بوابا عند سيدة مستبدة نصف مجنونة .. وهذا البواب ، الى جانب ماهو**



« كوخ المنفى » ، بضيعه (سباسكويا)

عليه من بكم وصمم ، مخلوق دميم لا يستطيع الكلام ، واذا تكلم ، همهم همهمة غير مفهومة ! .. وهو لا يملك من حطام الدنيا سوى كلبة يدعوها ((مومو)) ، يحبها ويعتز بها لأنها الكائن الوحيد الذى يعطف عليه . على أنه يحدث ذات يوم أن يوقظ نباحها سيدة الدار ، فتأمر هذه بقتلها فى الحال .. ويهلع الخدم جميعا لهذا الامر ، ويستحوذ عليهم الخوف



((شارع المشى)) ، بضيعه (سباسكويا)

لما يعهدونه فى ((جيراسيم)) من قوة مخيفة وشدة بأس وبطش . أما هو ، فلم يلبث أن أخذ الكلبة فى زورق الى وسط النهر ، واذا به يربط حجرين الى عنقها ، ثم يحملها بين ذراعيه ويودعها بنظرة أخيرة ، بينما راحت هى ترمقه فى حنان وثقة ، وتبصبص له بذنبها ، وتهز رأسها هزا خفيفا مستحبا . ولكنه يدير رأسه ، ويغمض عينيه ، ثم يفتح يديه .. ولم يسمع شيئا .. لا نباح ((مومو)) المسكينة ، ولا خرير المياه .. عندئذ يرفع رأسه ، فيرى سيول (الموسكوفا) وقد أخذت تتدفق فى مجراها الطبيعى وتتحطم امواجها على جانبى زورقه ..

ومع انه لم ترد فى هذه القصة ــ مثل غيرها من قصص ((مذكرات صياد)) ــ كلمة لوم او استنكار واحدة ، فان ما صوره المؤلف من تباين ظاهر بين قوة الارملة الخرقاء وسمو خلق ((جيراسيم)) وجموده المؤثر ، يعد فى ذاته انتقادا مستترا لاذعا لحال المجتمع الروسى فى ذلك العهد !

واذ انقضى شهر السجن المحكوم به عليه ، تلقى تورجنييف الامر بالتزام داره فى (سباسكوى) وعدم مغادرة املاكه . فدفع هذا الامر الجديد الكآبة الى نفسه وملأ قلبه حزنا وقنوطا ، اذ كان قد اعتاد حياة المدن وبدأ يتذوقها . وكان الاستياء البالغ يتملكه كلما فكر فى أنه لن يستطيع استشارة طبيبه الخاص فى موسكو أو الاستماع الى أناشيد بولين فياردو اذا ما أتت الى بطرسبرج . فراح يتوسل ويسعى لدى الامبراطور وولى عهده كى يلغيا أمر نفيه ، ولكن مساعيه وتوسلاته ذهبت ادراج الرياح ، ولم يلق منهما أى عطف أو شفقة . فاضطر تورجنييف الى البقاء فى سهول روسيا الغنية الخضراء وقراها الصغيرة الساحرة فامتزج بطبيعتها ،

وأصبح كل ما فى هذه الطبيعة الروسية ، التى لم يرها منذ زمن بعيد ، يثير فى نفسه شعورا بالسرور المقرون بالالم والحزن .. وكان يحس ان صدره تملأه الكآبة والانقباض ولكنه احساس لم يكن ليخلو عنده من لذة مريرة عذبة !

وقد ابتاع ، فى ذلك الحين ، من احدى بنات عمه ـ على سبيل اللهو وتمضية الوقت ـ فتاة من الفلاحات دفع ثمنا لها سبعمائة روبل ، وكانت تدعى « فيوكتيسست » . وكانت على جانب كبير من الجمال ، لها قد ممشوق وقوام فارع كغصن البان .. وسرعان ما علمها تورجنييف القراءة واتخذها خادمة ثم خليلة له فى قصره (بسباسكوى) .. **ومن عجب ان حبه البوهيمى ظل دائما مرتبطا بعالم الفلاحات الجميلات الوديعات !**

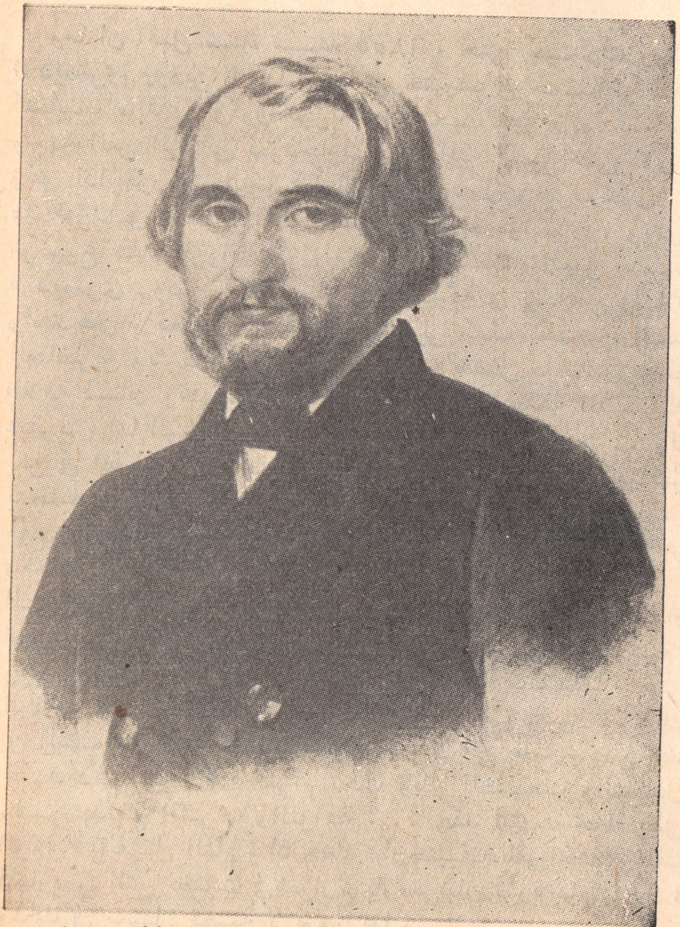
١٠ ـ « ديمترى رودين »

ترى هل حياة العزلة هى الحياة التى تلائم الكاتب الروائى ؟ .. انها تبدو فى الواقع وخيمة العواقب عليه اذا كانت تامة كاملة ، لانها تحرمه جميع وسائل التأمل والمشاهدة . ولكنها ـ مع ذلك ـ خليقة بأن تعود عليه بفوائد جمة لو أنه أوتى من المواد والخيال ما يسمحان له بالكتابة .. أما فيما يتعلق بتورجنييف ، فقد فعلت العزلة فيه فعل السحر ، نظرا لانه كان فى (سباسكوى) أقل انشغالا وانهماكا منه فى (موسكو) أو فى (بطرسبرج) ، حيث لم يكن ثمة ما يلهيه عن الكتابة والتأليف ، كما أنه كان هناك أقل انصرافا الى استقبال أصدقائه اذ قلما كانوا يترددون عليه . **وفضلا عن ذلك ، فقد كان يعيش فى وسط من الفلاحين والملاك ، كان يستمد منهم نماذج رواياته ، ويصفهم وصفا أشد جرأة من وصفه لاوساط بطرسبرج**

وموسكو .. على ان زمهرير الشتاء القارس مالبث أن أرغمه على التزام عقر داره ، فكان يكتب ويؤلف بينما كانت جاراته من حسان روسيا يعزفن له على « البيانو » ألحانا شجية من مقطوعات موزار !

وكانت نفسه قد بدأت تمل القصص القصيرة المقتضبة كالتي تضمنتها « مذكرات صياد » ، سيما وأنه أخذ يحس - وهو فى الخامسة والثلاثين من عمره - ان شعلة شبابه على وشك أن تخمد وأنه اذا أراد أن يخلف عملا خالدا ، وجب عليه أن يشق لنفسه طريقا آخر، فيؤلف كتابا ضخما يضم موضوعا واحدا !.. وقد كتب فى هذا الصدد ، يقول : **« يجب أن أعدل عن أسلوبى القديم .. فقد قضيت وقتا كافيا فى استخراج مافى الطبيعة البشرية من عطر عكر لافرغه فى قارورات صغيرة..فهلا استروحت أيها القارىء العزيز ، نفحة من هذا العطر ، ففتحت القارورة ، وملأت منه رئتيك !** .. ان له رائحة الزهور الروسية ، أليس كذلك ؟.. ولكن كفى .. كفى .. فالمهم الآن هو : هل فى امكانى أن أقوم بعمل عظيم ؟ .. هل أستطيع أن أصوغ مؤلفا كاملا فى أسلوب رقيق هادىء جلى ؟ .. هذا ما لا أعرفه ، ولن أعرفه إلا متى أقدمت على انجازه ! ولكن صدقنى ، أيها القارىء العزيز ، انك ستسمع عنى شيئا جديدا أو لن تسمع شيئا على الاطلاق!.. لذلك ، أكاد أكون راضيا بعزلتى فى الشتاء ، اذ أجد فيها متسعا من الوقت لكى أخلو الى نفسى ، بعيدا عن كل ما يتعلق بالأدب والصحافة .. واحسب اننى لن أصبح شخصية بارزة الا عندما يموت الاديب فى نفسى !! » ..

وكان الناقد « انينكوف » يقول له : « اننى أنتظر منك رواية تسيطر فيها سيطرة تامة على الاشخاص والحوادث ، ولا تسترسل فيها الي التحدث عن نفسك والاشادة بها .. »



ترجنيف في سن الاربعين (لوحة مائية بريشة « ا. نيكيتين »)

وما أن أقبل شتاء سنة ١٨٥٥ ، حتى صدرت رواية « ديمترى رودين » وقد ألفها تورجنييف فى خمسة أو ستة أسابيع، فأبدع ، فى أول تجربة له ، تحفة فنية رائعة تعد من وجهة الفن الروائى نموذجا لم يرق اليه كاتب حتى الآن ، وهو اذا قورن بروايات «بلزاك» و«ستاندال» و«تولستوى» ، عد فريدا فى نوعه لما ينطوى عليه من طرافة وابتكار . ويدور موضوع هذه الرواية حول رجل فى منتصف العمر اسمه « ديمترى رودين » حل بطريق الصدفة فى بيئة من الملاك والفلاحين ، فعرف منذ الليلة الاولى كيف يستميل اليه الحاضرين ويترك فى قلوبهم أثرا بالغا ، بفضل ما يمتاز به من طلاقة لسان وحماسة ملتهبة ! .. وقد وجدته النساء عبقريا ، أما الرجال فكانوا ينظرون اليه نظرة حسد .. ولم يكن فى القرية ، من حذر الفتيات منه وراح يحاول اقناعهن بتجنبه ، سوى رجل واحد كان يبغض الانسانية بأسرها .. فقد أدرك حقيقة نفس « رودين » المجبولة على الجبن وضعف الارادة التى تستتر خلف عباراته المزيفة ومظهره الكاذب الخلاب . ومع ذلك ، فقد استسلمت فتاة الدار لحبه . واذا بها تبدى استعدادها لأن تهجر كل شيء وتتبعه وتتزوج منه . ولكن ما أن اعترضت أمها سبيلها ، حتى انهارت عزيمة « رودين » وارتد مخذولا على عقبيه .. ذلك أن الحب والارادة ما كانا ليعرفا سبيلا الى قلبه ، ومن هنا فقد دفع عنه ذلك الغرام تحت وطأة الضعف والتخاذل وليس بدافع الشرف والنزاهة ! .. وقد انتهت حياة بطل الرواية بالفشل التام ، اذ جعله تورجنييف يلقى حتفه خلف المتاريس التى نصبت فى شوارع باريس ابان ثورة عام ١٨٤٨ ، وذلك فى سبيل قضية لا يؤمن بها !

ولقد قيل ان « ديمترى رودين » ليس الا « باكونين »

نفســـه .. ولعل هـذا القول لايخلو من حقيقـة ، اذ كان تورجنييف يستمد شخصياته دائما من نماذج حية ، حتى لنجد فى شخصية « ديمترى رودين » العواطف والانفعالات المتناقضة التى تعاقبت فى نفس تورجنييف عند التقائه بباكونين . ولكن ما من شك فى ان بطل روايته يحوى أيضـا الكثير من طباع تورجنييف نفسه . فهو بارد كالثلج ويتظاهر بالحب والاخلاص . وهنا مكمن الشر كله ، لان دور العاشق المتدله الذي يحـاول أن يلعبه ، ليس خطرا عليه ـ اذ هو لايجازف فيـه بثروته ولا بصحته ـ بل على الآخرين ممن هم أكثر صراحة وسلامة طوية وقد يفقدون روحهم بسببه !

ومن طريف مايرويه المؤلف عن « رودين » ، أنه تعـرف يوما الى سيدة فرنسية هى آية فى الظرف ، فأخذ يتحدث اليها عن الطبيعة وفلسفة « هيجل » حتى لقى حظوة لديها .. وسرعان ماضرب لها موعدا ، ثم اقترح عليها أن يقـوما بنزهة فى نهر (الراين) ، واذا به يقضى معها ثلاث ساعات راحا يقطعان النهر خلالها طولا وعرضا فى زورق صغير .. ولكن ترى بماذا كان « رودين » يشغل نفسه فى تلك الفترة الطويلة ؟.. لقد كان يمر بأنامله فوق شعر «أليس» الناعم ، محدقا فى صفحة السماء كالحالم مرددا مرارا وتكرارا انه يكن لحبيبته حنانا أبويا ! .. أما السيدة الفرنسـية التى لم تكن تتوقع مثل هذه المغـامرة الغرامية ، فقـد عادت الى منزلها حانقة ثائرة .. كذلك كان « رودين » ! .. على أن تورجنييف كان خيرا منه ، لأنه خلق بطله خلقا وابتدعه من العدم . ويكفى أن يلمس المرء فى نفسه القوة الكافية للحكم على بعض ملامح خلقه ، ليكون ذلك دليلا على أنه أصبح يسيطر عليها !

ومما هو جدير بالاعجاب ، أن اهتم تورجنييف بانصاف

بطل روايته .. فلم يكن « رودين » كائنا ذا خلق ثابت كأبطال الروايات الدارجة التافهة ، اذ اننا كثيرا ما نغير رأينا فيه كما نغيره فى أى فرد من الافراد الحقيقيين المحيطين بنا .. فهو يثير حماسنا فى الفصول الاولى ، ثم لانلبث ان نحتقره ونقول كما كان أصدقاؤه يقولون : « انه لن يقدم يوما ما على أى عمل من تلقاء نفسه ، لأنه لا يتحلى بارادة قوية .. **ولكن منذا الذى يحق له أن يؤكد أنه لم يؤد أو لن يؤد خدمة لاحد قط ؟ .. ومنذا الذى يحق له أن يؤكد أن كلماته لم تنبت أفكارا نبيلة فى اكثر من نفس فتية لم تبخل عليها الطبيعة بمثل مابخلت به عليه من حيوية خالصة وارادة قوية ؟ !**

١١ - نهاية المنفى

تجلى وجه الشبه العظيم بين تورجنييف وبطل روايته « رودين » - أكثر ما تجلى - حين عفى عنه الامبراطور ، فقرر أن يعود الى موسكو .. فقد أثار اذ ذاك عداء الكثيرين وحفيظتهم ، لا لما كان يتصف به من عيوب أشبه ماتكون بعيوب « رودين » ذاتها ، بل لما كان يتحلى به من فضائل كتلك التى تميز بها بطل روايته ، مثل عدم المحاباة والتزام الصدق والنزاهة فى كل شىء !.. فمن الشائع عن الناس أنهم ينفرون عادة من هذه الفضائل ويتمسكون بأهداب أهوائهم ونزواتهم فلا يتخلون عنها قط ، حتى أنهم ليؤثرون الزعيم الاحمق الذى يوردهم موارد التهلكة باطراء عواطفهم الجارفة ، على الرجل الشريف الذى يثبط من عزائمهم !.. وكان تورجنييف ينظر الى الحياة نظرة المراقب المتأمل ، ومن هنا كان ضعيفا ، وان يكن فى استطاعة هذا الطراز من الرجال أن يعيش سعيدا اذا لم يزج بنفسه فى معترك الحياة الصاخبة . بيد

ان « مذكرات صياد » كانت قد جعلت من مؤلفها رجلا سياسيا بارزا وبطلا من أبطال حركة تحرير الفلاحين الارقاء . فكان الشبان الثوار يلجاون اليه فى حماسة بالغه ، ولكنه كان لايلبث أن يخيب آمالهم ورجاءهم فيه . بل لقد كانت النساء - بوجه خاص - يشكون منه مر الشكوى ، حتى ان زوجة صديقه « هرزن » كانت تقول : **« انني اشعر فى حضره تورجنييف وكانى فى غرفة غير مسكونه تنبعث من جدرانهـا رطوبة تتسرب الى عظامى ، حتى انك لتخشى أن تلمس فى أى مكان أو تلمس اى شىء .. وكل ماتتمناه وانت فى هده الحجرة ، ان تخرج منها الى الهواء الطلق فى أسرع وقت ! .. »** وكانت تتحدث بذلك عما كانت تسميه « نظرة تورجنييف الميكروسكوبية » أو بالاحرى عن عادته « المرذولة » التى كانت تدفعه الى فحص كل شخص جالس فى حضرته من أخمص قدمه الى قمة راسه ، وكان كثيرا ما يحدق تحديقا دقيقا فى الانف وحده ، أو فى الساق ، أو فى الذقن ، دون سائر أعضاء الجسم الاخرى ..

وقد صرحت سيدة أخرى تدعى « فيرا اكساكوف » ، فى هذا الصدد تقول : « آه .. انني لا أحب تورجنييف .. فهو لا يعرف للايمان معنى ، ويعيش بغير مبادىء أدبية ، وافكاره تلطخها سيرة حياته .. » وصفوة القول ، ان تورجنييف لم يكن الا مزيجا من الضعف النفسى والتضعضع الجسمانى ، على الرغم مما اتسم به هيكله من ضخامة ملحوظة !

على ان تورجنييف كان يفيض - مع ذلك - بقوة نفسية دافقة ، ولا سيما فى كل ما يتصل بالادب والفن . فقد كان فى هذا المضمار رجلا لا يقهر ولا يلين ، اذ ما من شىء كان فى نظره يستحق الاهتمام غير الكتابة .. بل ان الحب نفسه ،

لم يكن بالنسبة اليه سوى وسيلة للحصول على مادة ادبية ! .. وقد بعث يوما الى كاتب شاب كان على وشك أن يتزوج عن حب ، يقول : ((**انه لمن دواعى الأسف حقا أن تستغرق فى حب امرأة واحدة !!))** وكان يفسر ذلك بقوله : ((**ان الزواج الفاشل قد يخدم الفنان أحيانا ، أما الحياة الزوجية السعيدة الهانئة فهى تقضى عليه قضاء مبرما ! ..))** فقد كان التقلب مع الهوى عنده ، بمثابة الغذاء الوحيد للعبقرية ، حتى أنه كان لا يحسن العمل الا اذا كانت الصفحة أمامه



أدباء العصر (فى مارس ١٨٥٦) : الجالسون (من اليسار الى اليمين) : جونشاروف ، ترجنيف ، دورشينين ، اوستروفسكى (الواقفون) : توتستوى ، جريجوروفتش

تضطرم بنار حب جديد ! .. وقد أسف فيما بعد لعدم زواجه ، ولكنه لم يعدل قط عن رأيه فى أن العلاقة الدائمة بامرأة واحدة خطر على الفنان.. وقد كتب ذات مرة يقول : « اننى أعرف هذا الموضوع حق المعرفة ، وقد سبق أن تعمقت فى دراسته تعمقا شديدا ، بيد اننى اذا كنت قد حرصت على عدم تناوله فى مؤلفاتى ، فما ذلك الا تجنبا منى للمسائل الشخصية المتعلقة بذاتى ، نظرا لما تسببه لى من حرج وارتباك ! »

وقد اتيحت له فرصة الزواج عدة مرات ، لما كان يتميز به من جمال قسمات واتساق خلقة ، فضلا عن ثرائه



ترجنيف واقرانه من الادباء : (الصف الاعلى ، من اليسار) : ترجنيف ، الكونت سولوجب ، تولستوى . (الصف الادنى) : نيكرا سوف ، جريجوروفتش ، باناييف

وروحه المرحة . وقد كان فى مقدوره أن يظفر باعجاب أية امرأة لعوب ، ولكنه كان – على غرار ابطال رواياته – لا ينشد النصر قط ! .. ولعله لم يحسب لاى شخص فى الوجود حسابا ، ما خلا « بولين فياردو » ، رغم انه ظل بعيدا عنها عدة سنوات .. ومع انها كانت قد أتت لتغنى فى أوبرا بطرسبرج أثناء اقامته فى المنفى، دون أن تحاول السفر اليه فى (سباسكوى) ، فقد ظل يتوق الى رؤيتها ويحلم بالعودة اليها ، حتى لقد بلغت به الجرأة ان غادر (سباسكوى) بجواز سفر زائف كى يراها فى موسكو .. وكان كثيرا ما يردد أن مصيره مرتبط بها ، وأنه لن يسعه غير اللحاق بها بمجرد صدور اذن القيصر بالعفو عنه !

وقد لبث بعض الوقت فى بطرسبرج وهو شبه منفى .. وكانت روسيا اذ ذاك فى حرب مع انجلترا وفرنسا ، ولم يكن لاحد من حديث الا عن القرم وسباستوبول .. ولعل الشىء الوحيد الذى استرعى اهتمام تورجنييف فى تلك الحرب كان حوادث الحصار التى وصفها ضابط شاب يدعى الكونت « ليو تولستوى » .. فكتب لاحد اصدقائه يحدثه عنه قائلا : « هل طالعت وصفه لمعركة سباستوبول ؟ .. لقد انتزعت مطالعتها صيحة الاعجاب من صدرى ، فشربت نخب المؤلف ! » .. ولم تكد تنقضى أشهر قلائل ، حتى تعرف الكاتبان احدهما الى الآخر ، فتبين لتولستوى أن تورجنييف يدعى الديمقراطية ويتظاهر بها ، على حين لاح لتورجنييف أن تولستوى كثير التباهى بلقب « الكونت » الذى كان يحمله .. وليس فى ذلك ما يدعو الى الدهشة ، اذ أن العظماء العباقرة كثيرا ما تتوتر أعصابهم ، وقلما يميل أحدهم الى صاحبه !

١٢ ـ العودة الى فرنسا

وفى عام ١٨٥٦ ، عقد الصلح ، فاستطاع الروس معاودة أسفارهم . وما لبث تورجنييف أن حصل على جواز سفر ، وقفل راجعا الى فرنسا حيث استأنف حياته الهادئة مع بولين فياردو .. وسرعان ما جمعته أواصر الصداقة ـ مرة أخرى ـ بالاسبانية المحدودبة الظهر ، البارزة العينين ، ذات الصوت الالهى ، وباطفال فياردو ، وابنته بولين تورجنييف التى لم تعد تتكلم الا الفرنسية . وقد زار نيقولا شقيقته فى فرنسا فكتب الى امرأته يقول لها : « ان أطفال فياردو يعاملونه معاملتهم لأبيهم ، وان كانوا لا يشبهونه قط .. وانى لا أود الثرثرة ، ولكننى اعتقد أنه كانت تربطه ببولين فياردو ـ فيما مضى ـ صلة أكثر عمقا وأشد وثاقا .. لقد أصبح الآن صديقا للعائلة ، يعيش مع أفرادها عيشة ناعمة هادئة .. »

وكانت الحياة فى قصر (كورتافنيل) يسودها المرح والصفاء .. فقد كان سكانه يطالعون بصوت عال ويمثلون المسرحيات الهزلية مع الاطفال وكانت بولين تورجنييف تبدع فى قيامها بدور « ايفيجينى » .. وكانت جميع الالحان الموسيقية الشائعة فى العالم تتردد بين جدران القصر ، باستثناء ألحان فاجنر التى كان فياردو وزوجته يكرهانها . أما تورجنييف فكان يوجه جل اهتمامه الى الاطفال ، فيكتب لهم المقطوعات الغنائية ويقطع العشب رطبه ويابسه هانئا سعيدا بحياته .. على أن تلك الحياة كانت تظللها سحابة من الحزن الدفين ، اذ كان تورجنييف يتدله فى حب مدام فياردو ، ويتألم من أن يعيش « وهو يوشك أن يخدع رجلا آخر ! » .. وقد زاره يوما اصدقاؤه الروس فى فرنسا ، فألفوه فى

حالة تدعو الى الرثاء ، فقال اذ ذاك لأحدهم فى لهجة ملؤها اليأس والقنوط : « **لقد حجبت شمس بولين عن عينى – منذ أمد طويل والى الابد – أنوار كل ما عداها من النساء.. وانى لأستحق كل ما أعانيه الآن من الآم ، لانني لا أشعر بالسعادة الا متى وطئت امرأة عنقى بقدمها وسحقت أنفى فى الوحل!!** »
ثم تنهد وقال : « يا لسعادة المرأة القبيحة ! »

وقد رآه تولستوى فى باريس فكتب يقول : « لم يدر بخلدى يوما أنه قادر على مثل هذا الحب ! .. » وقد أخطأت « مدام اكساكوف » اذ قالت عنه : « انه عاجز عن الحب » . **والواقع أن المرأة اذا قالت عن رجل أنه عاجز عن الحب ، فانها غالبا ما تقصد التخصيص لا التعميم ، اى أنه عاجز عن حبها هى..** أما مدام فياردو ، تلك المرأة الغامضة ، فقد ظلت تحيا حياة هادئة بين زوجها فياردو وصديقها تورجنييف ، وتعطف عليهما عطف الأم الرؤوم على ولدها ، وتربطها فى الوقت نفسه علاقات غرامية بعدة أشخاص منهم مدير الاوركستر الالمانى « جول ريتز » .

وكانت تجد لذة ومتعة فى الفرار بعض الوقت من فياردو وتورجنييف . وقد كتبت لريتز فى هذا الصدد تقول : « يجب أن أسر اليك بان الرحلات الصغيرة التى قمت بها وحدى فى هذا الشتاء ، كانت لى بمثابة اجازة أثلجت صدرى وحملت الهدوء والطمأنينة الى قلبى ، الذى يميل أحيانا ويفتر من حب لاصدى له ، فضلا عن أن غيابى قد ساعد على مضاعفة تقديرى واحترامى لرجل غاية فى النبل والاخلاص! » ولعل الرجل الذى كانت تقصده من وراء عبارتها تلك ، هو زوجها ، وان تكن عواطفها نحو تورجنييف قلما كانت تختلف عن المشاعر التى تكنها لزوجها . **ويلوح أن مدام فياردو كانت – قبل كل شيء – فنانة على غرار تورجنييف ، اذ**

كانت شديدة الولع بالموسيقى ، وتميل الى الرجال الذين نسجت حياتهم مثلها بخيوط الموسيقى .. ولما كانت قد فشلت فى الحب ، فانها كانت تسمو بالصداقة الى مرتبة العبادة ، وفى هذا تقول : « لولا الصداقة المقدسة ، لقضيت نحبى منذ زمن بعيد .. واحسب اننى قد أوتيت القدرة على أن أكن شعورا بالود والصداقة لا يكن مثله مخلوق . فالصداقة عندى شعور ثابت منزه عن الانانية ، وطيد الاركان ، متين البنيان ، لايعرف الكلل أو الملل اليه سبيلا! »

على أن تورجنييف ما كان ليرضى بمثل هذه الصداقة المشتركة .. ولقد ظلت حياته أشبه بشىء ناقص فاتر ، فلما بدأت صحته تعتل ، أخذ يستشير جميع أطباء أوروبا وينصرف الى مطالعة القاموس الطبى !.. وكان يحس فى قرارة نفسه انه منفى ، اذ لم تكن فرنسا فى عهد الامبراطورية الثانية لتروق له ، فراح يسخر من كتابها ، مستهجنا «صرير قيثارة الشاعر فيكتور هوجو ، ونقيق لامارتين ، ومذهب بلزاك الواقعى الزائف ، وسفسطة جورج صاند ! .. » وما من شىء كان يرضيه فى الحياة ، حتى لقد كان يعتقد ، وهو لا يزال بعد فى الاربعين ، انه لن يعمر طويلا . ولم تصدر روايته الثانية «خداع النبلاء» الا بعدأن عاد الى(سباسكوى) ووطأت قدماه أرض الوطن ..

١٣ ـ « خداع النبلاء »

وقد أحرزت روايته الثانية «خداع النبلاء» ـ دون سائر مؤلفاته ـ نجاحا منقطع النظير ، وفيما يلى ملخص لها :

اقترن شاب روسى يدعى « لافرتيسكى » بامرأة لعوب ، ثم اصطحبها معه الى باريس حيث استسلمت لحب أحد الشبان الفرنسيين ..ولم يلبث الزوج أن اكتشف خيانة

امرأته ، فتركها فى فرنسا وقفل راجعا الى ضيعة كان يملكها على مقربة من (أوريل) .. وهناك تعرف الى « ليزا » ، وهى فتاة روسية بارعة الجمال ، سرعان ما غزت قلبه بسحر شبابها ورقة أنوثتها .. وذات صباح ، طالع فى احدى الصحف الواردة من فرنسا نبأ وفاة زوجته ، واذ ذاك أحس بأنه أصبح حرا ، طليقا .. فراح يطارح «ليزا» الهوى ، الى أن وقعت بينهما عدة مواقف غرامية أشبه بغراميات « فيرتر » (١) .. ففى ذات ليلة ، يتقابل الحبيبان فى حديقة الدار ، ويمضيان يتبادلان اسمى عبارات الحب، ولايفترقان

فى النهاية الا بعد أن يتواعدا على الزواج فى أقرب وقت .. وتعود « ليزا » بعد ذلك الى دارها ، على حين يمكث هو وحده فى الحديقة ينصت الى ساعة المدينة وهى تدق منتصف الليل . ولما يرى انوار منزل « ليزا » تنطفىء ، والظلمة تخيم على غرفتها ، يردد هامسا : « طاب ليلك ، يا طفلتى العزيزة ! » . ويظل هكذا فى مكانه جامدا ، لا يغض من بصره عن نافذة الغرفة المظلمة .. واذ يعود « لافرتيسكى » مع الفجر الى ضيعته ، يجد نفسه وجها لوجه أمام زوجته وقد أتت تتوسل اليه أن يصفح عنها وان يردها وطفلها الى المنزل ! .. على انها لم تفقد شيئا من طيشها وخداعها ، اذ سرعان ما تذهب فى اليوم التالى لزيارة أسرة « ليزا » ، فاذا بها تسحر الجميع وتخدعهم بدلالها وجمالها . أما «ليزا» — التى حيل بينها وبين تحقيق حلمها الجميل — فانها ما تلبث أن تلجأ ، من فرط حزنها وقنوطها ، الى الدير .. وتتلاحق الاعوام ، واذا بلافرتيسكى يعود لرؤية دار الحبيبة، ويجلس فى الحديقة على المقعد الخشبى الذى طالما جلس واياها عليه

(١) بطل رواية « آلام فيرتر » للشاعر الألمانى «جوته» .

.. ويقع بصره على فتيان الجيل الجديد وفتياته وقد راحوا يمرحون ويملأون أرجاء الفضاء باصواتهم وضحكاتهم ، بينما كان هو يسبح بأحلامه فى الايام الخوالى ، ويعود بالذاكرة الى حبيبته « ليزا » ! .. وقد تبدو عقدة الرواية مبتذلة . لولا انها عولجت بشكل رائع متكامل وبأسلوب سلس وشعور رقيق فياض . ويحتمل أن يكون ما ناله الكتاب – اذ ذاك – من اعجاب ونجاح راجعا الى طلاوته الفائقة . بيد أنه لا يخلو – مع ذلك – من فلسفة عميقة فى الحياة ، وهى فلسفة خالية من التفاؤل الزائف الخداع ، اذ كل شيء فى هذه الرواية ينتهى بهزيمة الخير وانتصار الخديعة واللؤم .. على اننا نرى فيها شباب الاجيال الجديدة يتقبل الحياة فى ثقة ومرح ، فى حين أن الذين قوضت الكهولة صرح حياتهم – من أمثال « لافرتيسكى » – يستسلمون للقضاء والقدر ويخضعون لمشيئة الله !.. ومجمل القول ، أن الرواية تفيض حكمة وانسانية ، وانها جديرة ولا شك بالنجاح الكبير الذى أحرزته !

١٤ – تحرير الفلاحين

فى عام ١٨٥٩، أصدر تورجنييف قصة اسمها « **فى الليلة السابقة** » ، تدور حوادثها حول فتاة تتطلع الى المثل العليا وتبحث عن الرجل القوى الذى يستطيع ان يشاطرها مبادئها فى الحياة ويسير عليها .. وكان الكاتب يرمز بفتاته الى روسيا الناهضة ، ويرمى من وراء قصته الى دعوة الاجيال الروسية الجديدة الى توحيد قواها وجهودها ضد عدوها فى الداخل والخارج !

ومما يجدر ذكره ، أن الكتاب صدر فى وقت كانت فيه الافكار تتطور تطورا سريعا فى روسيا .. فقد مات « نيقولا

الاول » ــ القيصر الحديدى ــ وقضى نحبه مقهورا مغلوبا على أمره ، بعد أن كشفت حرب القرم الستار عن بسالة الشعب الروسي وازاحت النقاب عن عجز البيروقراطية المستبدة التى ظلت زمنا طويلا تتولى ادارة شئونه .. وقد صدرت عندئذ فى موسكو نشرة بغير توقيع جاء فيها : « **تقدم أيها القيصر ! .. تقدم الى محكمة التاريخ .. لقد ارهقت روسيا واستنفدت قواها بكبريائك وعنادك ، وقلبت العالم عليها ، فهلا تواضعت أمام أخوانك ، ودسست جبهتك المتكبرة فى الرغام ؟ ! .. أطلب الصفح والمشورة ، والق بنفسك بين ذراعى شعبك ، فليس لك الى الخلاص سبيل آخر » !**

وقد ساورت نيقولا الاول ــ فى أواخر أيامه ــ الشكوك فى عقيدته ونزعاته ، حتى انه كثيرا ما كان يردد : « فليفعل خلفى من بعدى ما يروق له ، أما أنا فلا يمكن أن أغير مسلكى! »

وقد لاح أن خلفه « اسكندر الثانى » على استعداد لاتباع سياسة التحرير ، اذ أثبتت الحرب أن شعبا يقوم كيانه الاقتصادى على نظام استرقاق الفلاحين ، لا يمكن أن يكافح ضد الدول الحديثة .. وسرعان ما سارت روسيا فى طريق الاصلاح سيرا حثيثا ، ولم يعد مذهب الحرية مجرد عقيدة اعتنقها حزب من الاحزاب ، بل اتجاها عاما راح يسود طبقة النبلاء أنفسهم . واذ ذاك ، بدأ القيصر اسكندر الثانى يهتم اهتماما جديا باعداد مشروع لاصلاح نظام استرقاق الفلاحين فى روسيا !

وفى أوائل عهد القيصر الجديد ، صدر قرار بالعفو عن

جميع «الديسمبريين» (١) ، ولانت شوكة الرقابة نوعا ما ، ثم ألفت لجنة لاصلاح حال الفلاح اشترك فيها الموظفون الى جانب ممثلى النبلاء.. ومالبث الوئام أن عاد يسود بين انصار الصقالبة وأنصار الغرب ، اذ راح الغربيون يهللون لاندفاع روسيا فى آفاق أوروبا الواسعة. بينما طفق أنصار الصقالبة يبذلون قصارى جهدهم ليصبغوا الاصلاح بصبغة روسية محضة ، وذلك بتنظيم الملكية الاشتراكية من أجل الفلاحين !.. وكان الاصلاح اذ ذاك من الامور الشاقة المتعذرة التحقيق حتى على أكثر الرجال استعدادا له .. على انه كان فى الواقع هدفا هينا ميسورا بالنسبة للفلاحين الذين كانوا يعملون فى المنازل ، ويطلق عليهم اسم «عبيد الارض» ، اذ كان الامر لا يتطلب أكثر من تحريرهم . أما فيما يتعلق بالفلاحين من ملاك الاراضى ، فقد كان الاصلاح غاية لا يسهل ادراكها اذ كان يستحيل تحرير الفلاحين دون تعويض سيدهم عن تحريرهم . ولذلك تقرر أن يمنح كل فلاح الارض التى يقوم عليها منزله ، والى جانبها فناء صغير . أما بقية الارض ، فكان يجب عليه أن يقتنيها مقابل تعويض يدفعه للسيد ، على أن يدفع فوائد القرض بواقع ٦ فى المائة .. وكانت تلك الطريقة مبتكرة وعادلة بقدر ما كانت تسمح به الظروف من عدالة وانصاف ، بيد انها سرعان ما أثارت استياء الجميع !

وفى عام ١٨٦١ ، صدر مرسوم القيصر بتحرير ٢٣ مليون

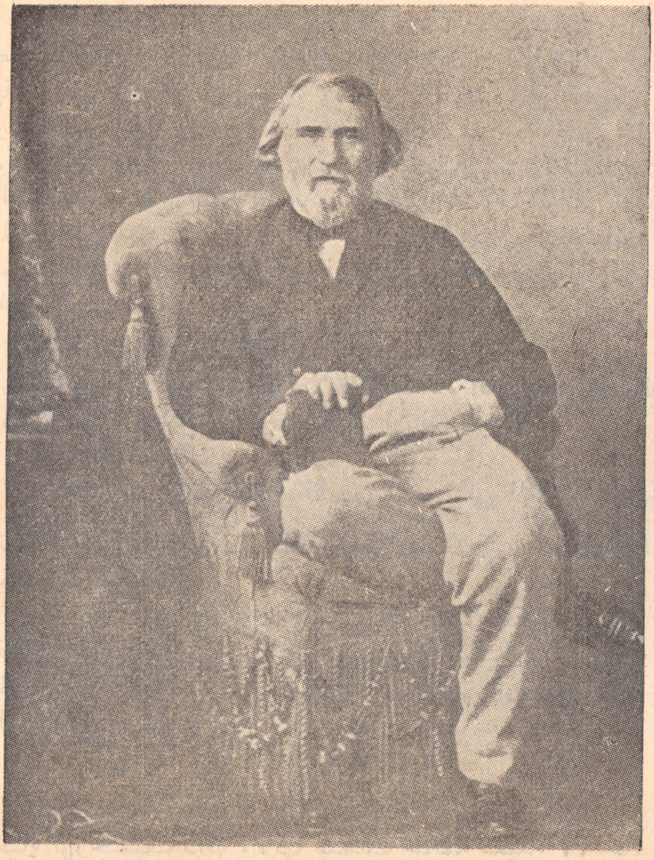
---

(١) فريق من الضباط الروس النبلاء ، تأثروا بمبادىء الثورة الفرنسية ، وحاولوا القيام بانقلاب دستورى فى ١٤ ديسمبر عام ١٨٢٥ .. غير انهم فشلوا ، وأعدم خمسة من زعمائهم ، وقد عرفوا فيما بعد « بالديسمبريين » .

روسى ، وكان تورجنييف وقتئذ فى بلريس ، فلما بلغه النبأ قال : ((فليبارك الله القيصر !)) .. ومما قيل له أيضا ـ وبادر بتصديقه عن سلامة نية ـ أن مطالعة ((مذكرات صياد)) قد أثرت الى حد كبير فى القيصر نفسه ، فدفعته الى اتخاذ قرازه الحاسم !

على أن الفلاحين لم يشاطروا الاحرار حماستهم . فعندما تلا عليهم القساوسة منشور القيصر فى الكنائس ، اذا بهم يتساءلون : ((ما حدود هذه الحرية ؟ ..)) ذلك لانهم كانوا يعتقدون أن التحرر من نظام الرق لن يلبث ان يجعلهم ملاكا للاراضى كلها ، وأن أراضى القيصر وحديقته ستصبح ملكا للجميع . وكانوا مقتنعين بذلك كل الاقتناع ، حتى انهم اجتمعوا فى بعض القرى وراحوا يطالبون مجلس المديرية بأن يترك لبعض السادة النبلاء قصورهم يتمتعون بها طوال حياتهم ، مكافأة لهم على ما أظهروه من ضروب الكرم والشهامة فى ظل نظام الاسترقاق ! .. غير انهم ، ما أن أدركوا أنه سيتحتم عليهم أن يدفعوا للدولة من الفوائد ما يكاد يعادل الضرائب التى كانوا يدفعونها للسيد المالك ، حتى ثارت ثائرتهم ، واستشاطوا حنقاً وحقداً !

وقد تسنى لتورجنييف ـ فيما بعد ـ أن يصف فى مؤلفاته المتاعب الجمة التى عاناها الملاك الذين ارادوا أن يكونوا أسخياء كرماء .. أما هو شخصيا ، فقد حرر منذ ١٨٥٠ عدداً من خدم المنازل ((عبيد الارض)) ، ومنحهم عند تحريرهم قطعا من الاراضى بغير مقابل ، ثم تنازل للفلاحين الآخرين ((الموجيك)) عن خمس التعويض المستحق عليهم .. **على أنه ـ بالرغم من ذلك ـ اتهم بأنه لم يعش وفقا لمبادئه ، ونعى عليه أنه لم يحرر جميع فلاحيه الارقاء على أثر وفاة والدته مباشرة !**



ايفان ترجنيف فى سن الرابعة والاربعين

وقد وصف تورجنييف ـ بصورة ضاحكة باكية ـ حالته بعد أن انتزع منه نصف أملاكه ، فقال : «ان الفلاحين يتركون أبقارهم ترعى فى مروجى ، ويقطعون الخشب فى حديقتى ، ويحطمون ، فى كل شتاء ، مقعدى العزيز المواجه للبحيرة ! »

.. وكان يقول أيضا لصديقه بولونسكى : « لعلنا نرى الفلاحين فى أحد الايام ، ونحن جالسون نشرب الشاى خلف الدار ، يتوافدون علينا من باب الحديقة ، ويرفعون قبعاتهم ، ثم يطأطئون رؤوسهم حتى أقدامهم . فابتدرهم أنا عندئذ بالسؤال قائلا :

ـ ماذا تريدون يا أخوانى ؟ ..

ـ اصفح عنا يا سيدنا ، لا تغضب .. انك سيد صالح واننا نحبك حبا جما ، ولكن يجب أن نشنقك !!

ـ تشنقوننى ؟ !

ـ أجل .. ان مرسوم القيصر ينص على ذلك .. لقد اتينا معنا بحبل .. فاتل صلاتك الاخيرة ، ولسوف ننتظرك قليلا ! »

وان هذا الحوار ، وان يكن لا يخلو من سخرية مرة ، الا انه يعكس الشعور الذى استبد فى ذلك الوقت بجميع المصلحين الاحرار ، بعد أن اتموا اصلاحهم ووضعوه موضع التنفيذ !

١٥ ـ « آباء وأبناء »

كانت فترة التحرير من أهم حقبات تاريخ روسيا وتاريخ حياة تورجنييف ذاته ، لأنها سجلت خاتمة عقيدة .. خاتمة مذهب الحرية الساذج الذى كان أنصاره يخالون أن قليلا من الكرم والسخاء ، كان كفيلا بتهدئة خواطر تلك البلاد الغامضة المترامية الاطراف .. وقد بذل أعضاء اللجنة

الامبراطورية قصارى جهودهم ، وحسبوا فى وقت من الاوقات انهم انقذوا وحدة الشعب ، بيد انهم سرعان ما تبينوا مدى ما وقعوا فيه من خطأ .. والامر الذى لم يستطع شيوخ الاجيال القديمة ادراكه اذ ذاك ، انهم كانوا بصدد خاتمة نظام قديم أولى وفاتحة عهد جديد أقبل ! ..
أما شبان الجيل الجديد ، فقد اخذوا يعتنقون مذاهب جديدة ، بعد أن نفرت نفوسهم من مذهب الحرية الفاشل .
وسرعان ما شعر تورجنييف بأنه يفقد حلقة اتصاله بشبيبة البلاد ، فبدأ الشك يساوره فى السياسة ، وطفق ايمانه بالحب يهتز ويتزعزع ، فكان لا يفتأ يردد : « قليلا من الصبر ثم نرسو فى ميناء الشيخوخة الهادىء ، حيث نلقى نشاط الشيوخ وأفراحهم ! » .. ومع أنه كان فى الرابعة والاربعين من عمره ، فانه لم يكن يلمس فى نفسه أى شعور بالاسف أو الأمل ، اذ كان كثيرا ما يستسلم لدوار اللانهائية الخطير الذى يفقد المصابين به كل شعور بالتوازن البشرى !
.. وكان فى هذا يقول : « **ان الصرخات الضعيفة التى يطلقها ضميرى ، لا تزيد فى قوتها عن تلك الهمسات التى قد تخرج من شفتى وأنا واقف على شاطىء خضم صاخب مضطرب ! .. ان الذبابة تطن لحظة ثم تكف عن طنينها .. وتبدأ ذبابة أخرى – تختلف عن الاولى – طنينها بدورها ، وهكذا دواليك .. من قرن الى قرن !** »
وقد شعر تورجنييف آنئذ بالشيخوخة تتسرب اليه قبل الاوان .. وفى عام ١٨٦٠ ، كتب رواية رائعة عنوانها « **الحب الاول** » لعلها أجمل مؤلفاته ان لم تكن أكملها على الاطلاق ..
وقد عمد فيها الى وصف والده الكولونيل تورجنييف ، ووالدته ، وعذراء جميلة أحبها وهو فى الثالثة عشرة من عمره ، وظل يحبها الى أن اكتشف ان والده ينافسه فى حبها ! ..

وتنتهى هذه القصة بنداء حار موجه الى الشباب : « ايه .. أيها الشباب ، انك لا تبالى بشىء وكأنك تملك جميع كنوز العالم ، بل أن الحزن ذاته يروح عنك والالم يرضيك ! .. انك تتمتع بالثقة والمجون وكأن لسان حالك يقول : « انظروا .. انني أعيش وحدى ! » . بيد أن ايامك ، أنت أيضا ، تمر وتزول دون أن تترك أثرا ، وكل شىء فيك يغيب كالشمس الساطعة وينقشع كسحابة صيف !..ولعل السر فى سحرك لا ينحصر فى كونك تستطيع انجاز كل شىء .. لقد كنت أنا أيضا مثلك ..واسع الآمال ، شديد التطلع الى مستقبل باهر ، عندما كانت تراودنى — وأنا حزين مبتئس — ذكرى حبى الاول .. ولكن ترى ماذا حل بجميع آمالى ؟ ! .. **والآن وقد بدأت ظلمات الليل تكتنف حياتى ، لم يبق لى ما هو أقرب الى نفسى من الحق ولا أعز الى قلبى من ذكرى عاصفة الربيع التى هبت ثم هدأت بهذه السرعة ! »**

وكان لا بد لتلك الفلسفة — التى تقطر حزنا ويأسا — أن تثير امتعاض الشبان وتدفعهم الى الاعراض عنها ، حتى لقد كانت علاقات تورجنييف بالكتاب الناشئين كثيرا ما كانت تؤلمه وتحز فى قلبه ، بالرغم من أنه كان من أشد رجال الأدب تواضعا معهم ، يعاملهم معاملة الند للند والصديق لصديقه، محاولا أن يمد لهم يد المساعدة .. بيد أنه كان يصطدم دائما بجيل قاس فظ الطباع شرس الاخلاق ، لا يحب الرقة واللطف ، ولا يميل الى ما يبديه زميلهم الاكبر من غيرة على الانسانية ولا الى ما يتحلى به من عذوبة أشبه ما تكون بعذوبة النساء !

ولكن على الرغم من الاسى والاكتئاب اللذين كان عداء الشبان له يثيرهما فى نفسه ، فانه كان يرقبهم بوصفه فنانا قبل كل شىء ، فيجد سعادة حقيقية فى محاولة فهم أولئك

بين جيل المادة والعلم وبين مذهب الحرية الشعرى وما بقى من رواسب جيل العقائد الدينية !

ولو أن تورجنييف لم يقدر له أن يجد النموذج الذى صاغ مؤلفه على نمطه ، لكان ذلك البحث الفكرى خطرا مستطيرا عليه .. وقد روى هو نفسه كيف عثر على هذا النموذج ، اذ قال :

« لقد طرأت على ذهنى أول فكرة لرواية « الآباء والابناء » خلال شهر أغسطس من عام ١٨٦٠ ، بينما كنت أتمتع بحمامات البحر فى (فينتنور) بجزيرة وايت .. ولقدطالعت عدة مرات فى مقالات نقدية اننى وضعت هذا الكتاب وفقا لفكرة اختمرت فى فكرى سلفا .. **أما أنا شخصيا ، فيجب أن اعترف بأننى لم أحاول قط أن أخلق نموذجا ، اذ لم تكن هناك ، ليس فقط فكرة توحي الى به ، وانما أيضا شخص حى تمتزج فيه عناصر مختلفة امتزاجا منسجما !.. فقد كنت دائما فى حاجة الى قاعدة وطيدة استطيع الاستناد اليها ..** وكان هذا شأنى فى رواية ((**آباء وأبناء**)) ، اذ كان بطلها وهو « بازاروف » يقوم على شخصية طبيب شاب يعيش فى الريف . وفى هذا الرجل المدهش ، تجسم العنصر الناشىء الذى قام على أساسه فيما بعد مذهب « العدمية » .. وقد كان الأثر الذى خلفه هذا الشخص قويا بعيد المدى .. وفى أول الامر ، لم يكن فى وسعى أن اتمثله لنفسى بوضوح . ولكننى مضيت استخدم عينى وآذانى ماوسعنى ذلك ، فكنت أرقب وأتأمل ما يحوط بى ، وأحاول الاستسلام فى بساطة لما يخالج صدرى من مشاعر وأحاسيس .. »

والعقدة فى قصة ((**آباء وأبناء**)) بسيطة ، غاية فى البساطة ، كما هى الحال دائما فى جميع قصص تورجنييف .. وهى تتلخص على النحو التالى :

الذين كانوا يصلونه نار الخصومة ! .. وكان ينظر اليهم نظرته الى أبطال قصصه ، فيتبين فيهم ملامح رجال تعساء لا يؤمنون بشيء ويرتابون فى الوقت نفسه فى جدوى القيم والافكار ، اذ كانوا لا ينفكون يقولون : **« يجب تدمير ما يمكن تدميره .. والخير كل الخير فيما ينجو من حد السيف .. والشر كل الشر فيما تتطاير شظاياه ويتلاشى فى العدم ! .. وعلى كل فلنسدد ضرباتنا تارة الى اليسار وطورا الى ليمين، فلا يمكن أن ينجم عن ذلك ضرر ما ! »** .. وكان الآباء يبحثون فى أيام شبابهم عن مثل أعلى للبناء والتشييد ، فاذا باولئك الشبان ، الذين استفزهم ما فى العالم من نقص ومساوىء ، يريدون التحرر من كل تقليد ويعلنون الحرب على الفنون جميعا .. وكان كل فنان حر مثل تورجنييف يعتبر فى نظرهم مخلوقا شاذا لا يطاق ! . أما هو ، فكان لا يبحث بينهم الا عن نموذج يستمد منه مادة لقصصه ، فلم يحاول يوما ما الحكم عليهم أو اطراءهم ، لانه ظل دائما يؤمن بأن واجب الفنان يحتم عليه الا يقيم الدليل أو البرهان على شيء ! .. ولكنه كان يريد أن يمثل جيلين ، ويحلل ما يقرب بينهما من رابطة مشتركة متمثلة فى الحب والموت ، وما يبعد أحدهما عن الآخر من شعور الحياء والخجل لدى الآباء الذين كانوا يستميتون فى جهودهم لمحاولة فهم نفسية ابنائهم ! وقد تجلى ذلك النزاع القائم بين الآباء والابناء فى روسيا ، فى غضون سنة ١٨٨٠ ، حيث بدا الشقاق بين الفريقين أكثر جلاء ووضوحا من أى وقت مضى. ولعل فترات الانتقال من أشد الفترات فائدة للكتاب الروائيين ، بدليل أن « بلزاك » استقى الكثير من مواده مما كان يلمسه فى مجتمع العهد القديم من تناقض مع مجتمع نظام الامبراطورية .. أما تورجنييف ، فكان يريد أن يبين أوجه التناقض القائمة

يذهب شابان لقضاء اجازتهما عند والدى أحدهما ثم عند والدى الآخر .. وسرعان ما تتضح ، مما يدور بينهم جميعا من حوار ومناقشات ، معالم ذلك النزاع القائم بين جيلى « الآباء والابناء » ، وشقة الخلاف التى تفرق بينهما ، والمصاعب التى يلاقيها أحدهما فى فهم عقلية الآخر ، على الرغم مما يربطهما من أواصر المحبة والتقدير . ويقع بطل الرواية وهو بازاروف « العدمى » فى غرام امرأة شابه تدعى « مدام اودينتسوف » ، فيعاملها بقسوة وفظاظة مثلما يعامل والديه .. وأخيرا يقضى نحبه كالابله الحقير ، على أثر حقنة طبية . فيذهب موته سدى كحياته ، ويبكيه والداه اللذان لم يفهماه وانما أحباه حبا جما !

ولتحديد ملامح ذلك الجيل الجديد من الشبان ، ابتكر تورجنييف لفظ « عدمى » ، وأطلقه على « بازاروف » ، وهو لفظ مشتق عن كلمة لاتينية بمعنى « لا شىء » ، **وتعنى كل رجل لا يريد الاعتراف بشىء ، أو بالاحرى لا يحترم شيئا ، وينظر الى الحياة نظرة الساخر الناقد ، فلا يخضع لأية سلطة ، ولا يقبل أى مبدأ بغير بحث وتدقيق ، بالغا ما بلغت المنزلة التى يتمتع بها هذا المبدأ بين الناس !**

وقد صادفت كلمة « عدمى » رواجا كبيرا منذ ذلك الحين ، حتى لقد ظل شبان الثورة فى روسيا يعرفون بالعدميين ردحا طويلا من الزمن . ولكن أتراهم لم يكونوا الا معارضين ؟ .. لقد كانوا يعتبرون أنفسهم ، قبل كل شىء ، من ذوى النزعة العلمية ، ويرون انهم ينتمون الى ذلك الجيل الذى كان أول من أراد أن يطبق الطريقة العلمية على السياسة .. وقد كان « بازاروف » يؤثر أن يكون واقعيا على أن يكون فوضويا ، اذ كان الابناء قد ضاقوا ذرعا بثرثرة الآباء عن الاصلاح ، مما جعلهم يرددون :

« **لقد أدركنا ان الكلام عن القروح التى تنخر نفوسنا لا يكفى ، وان الثرثرة وحدها لا تؤدى الا الى الابتذال وما تتشدق به المذاهب من مبادىء جوفاء !** .. وتبين لنا ان الرجال الذين سبقونا لا مناقب لهم ولا مزايا ، واننا نهتم بالترهات والتفاهات كشعارات « الفن للفن » و « القوة المبدعة التى تجهل نفسها » و « البرلمانيات » و « ضرورة المحامين » ، وغير ذلك من البدع التى لا طائل تحتها ، بينما الحاجة ادعى الى التفكير فى خبزنا اليومى ! .. وفى الوقت الذى تخيم فيه الخرافات على عقولنا وتخنقنا ، وتشهر شركاتنا المساهمة افلاسها بسبب عدم توافر الرجال من ذوى النزاهة والشرف ، وتسفر حرية الفلاحين نفسها ـ التى تهتم بها الحكومة اهتماما زائدا ـ عن فشلها فى بلوغ الهدف المنشود ، لما طبع عليه فلاحونا من استعداد دائم لان يسلبوا أنفسهم ، كى يتعاطوا المشروبات المسمومة فى الحانات ! »

أما الآباء ، فكانوا يبثون شكواهم فى هدوء وتؤدة قائلين : « **اننا لم نعد نصلح الا للتقاعد ! .. لقد انتهينا من ترديد انشودتنا الاخيرة** » .. وعبثا حاولوا أن يتقربوا ـ فى لباقة ومودة ـ من الابناء ، فقد كان الجيل الجديد يجدهم متأخرين رجعيين ، لا خير يرجى من التفاهم معهم ! على ان الآباء كانوا يعتبرون أنفسهم ـ مع ذلك ـ دعاة حضارة راقية ، اذ كانت لهم أذواقهم فى الشعر والفن ، وكانت لهم جهودهم ومحاولاتهم لتفهم الادب الحديث وتذوقه .. بيد ان ابناء الجيل الناهض كانوا يأبون الا أن يتجاهلوا كل ما يمت الى الادب بصلة ، وان ينأوا بأنفسهم عن كل مايتصل بالنبلاء من قريب أو بعيد ، غير مكتفين بمد يد المعونة الى الشعب ، حريصين فى الوقت ذاته على أن يكونوا جزءا منه وأن يعيشوا بينه .. وكانوا فى هذا يقولون : « انكم تعتقدون ،

أيها السادة النبلاء ، أنكم رجال عظماء ، وانكم بلغتم ذروة الكمال البشرى ، لمجرد امتناعكم عن ضرب خدمكم ، بينما نحن لا نطالب بغير الضرب والبطش ! » .. وهكذا بدأت تتولد فى « بازاروف » ميول الارهابيين الذين لم يكونوا قد ظهروا بعد على مسرح الحياة الروسية !

وقد أحدث الكتاب دويا كبيرا فى روسيا ، الا انه لم يكن بالصورة التى كان يرجوها له تورجنييف .. فقد كان يحب « بازاروف » ويعطف عليه ، حتى لقد اضطر عند انتهائه من سرد وقائع وفاته ، الى تحويل رأسه خوفا من أن تنهمر دموعه على مخطوطاته فتبللها ! .. وكان يصف بطله قائلا : « اننى اشاطر بازاروف جميع عقائده ، ماعدا أفكاره عن الفن! » . وخلافا لما كان يتوقعه تورجنييف، قابلت الاحزاب المناهضة للاصلاح، الكتاب بسرور مفعم بالسخرية والتهكم ، وراحت أشد دوائر المحافظين تمسكا بمبادئها تبدى استياءها لتحرير الفلاحين الارقاء ، واذا بها تتخذ من شخص « بازاروف » حجة استندت اليها للمطالبة بضرورة تطبيق نظام الاستبداد المطلق، واذا بها تقبل على تورجنييف مهنئة مؤيدة لتنديده فى روايته بروسيا الفتية الناهضة . ومن حسن حظ هذا الاخير : انه لم يقف على التقرير الذى رفعه البوليس الى القيصر وأثنى فيه على المؤلف ثناء عاطرا لاصداره رواية سخر فيها من الثوريين ولقبهم باسم « العدميين » اللاذع . أما هو فلو لم يوضح للرأى العام اعجابه ببازاروف ، لكانت روايته قد منيت بالفشل التام . وما لبثت الشبيبة التى رأت فى الكتاب صورة ساخرة لها ، ان وقفت منه موقف العداء. فكتب تورجنييف يقول : **« لقد أظهر لى الناس الذين كنت أحبهم وأعطف عليهم فتورا قريبا من السخط والاشمئزاز ، على حين رحت اتقبل تهاني**

اعدائى من رجال المعسكر المعارضين ! .. وقد عجبت لذلك وشعرت بقلبى يدمى ، ولكن ضميرى لم يؤنبنى قط ، اذ كنت أؤمن كل الايمان بأنى اتممت بكل دقة وشرف النموذج الذى أردت أن أرسمه . ولقد رسمته ، ليس فقط بغير زعم باطل أو ادعاء ، وانما أيضا فى عطف وحب جمين ! »

ولم يلبث تورجنييف ان ارسل خطابا طويلا الى طلبة « هيدلبرج » الروس ــ الذين كانوا قد احتجوا على كتابه احتجاجا شديدا ــ رد فيه على ماوجهوه اليه من عبارات اللوم ، ولا سيما فيما يختص بالآباء ممثلى طبقة النبلاء القديمة ، لمعالجته موضوعهم فى جو ملائم يدعو الى العطف عليهم .. وقد قال لهم فى رسالته :

« أن ما يقال عن الآباء ومحاولتى رد اعتبارهم ومكانتهم اليهم ، لا يدل الا على شىء واحد هو أن أحدا لم يفهمنى !.. واننى لأرجو منكم أن تحدقوا فى هذه الوجوه .. وجوههم .. انها لا تعكس غير الضعف والاسترخاء وبلادة النبلاء !.. وقد دفعتنى حاسة الفن الى اختيار خير الممثلين للطبقات العاملة لأبرهن على رسالتى . فاذا كانت الزبدة فاسدة فبالاحرى كان اللبن .. » ثم استطرد فقال : « واننى اختم خطابى بهذه الملاحظة .. فاذا كان القارىء لايحب بازاروف بكل مافيه من فظاظة وقسوة وشراسة ، فالذنب فى ذلك ذنبى لأننى لم أبلغ غرضى.. اننى لم أحاول التزلف كالكلاب، ولو اننى فعلت ، لااستطعت بلا شك أن استميل الشبان ، ولكننى لم أرغب فى شراء حظوتى بهذا العمل الخسيس .. واننى لأفضل أن أخسر الحملة كلها على أن اكسبها بهذه الخديعة ! .. لقد تخيلت وجها قاتما شرسا يكاد يكون متوحشا قويا ، ونبيلا شريفا ، ومع ذلك حكم عليه بالفناء

لانه يقف دائما على باب المستقبل !! .. ومعاصرى الشبان يصيحون فى ، وهم يهزون رؤوسهم : « لقد هويت ياصديقنا الشيخ !.. لقد الحقت بنا الاهانة » ، فلم يبق لى – على حد ماجاء فى انشودة الفجر – الا ان انتزع قبعتى وانحنى طويلا .. »

وقل ان يوجد خير من ذلك المثل النابض ، للدلالة على زيف المناظرات وبطلانها وما ينتاب الكاتب من ضعف يجعله يتأثر بحكم معاصريه ورأيهم فيه !.. فها هو ذا تورجنييف، الذى قوبل بحرارة واعجاب ، ووضع فى طليعة الروائيين الروس بفضل قصة ممتعة شائقة مثل « خداع النبلاء » ، يفقد تلك المكانة فى صدور الشبيبة الروسية من جراء كتاب هو فى الحقيقة من الروائع التى يفخر بها الادب ويعتز .. ان حكم الناس مشوش متقلب غالبا ، **« الا ان قيظ النهار لن يلبث ان يمر ، ويخلفه المساء ، ثم تخيم ظلمة الليل .. ذلك الليل الذى يضم جميع المتعبين ، الذين أضنتهم المحن ، فى حظيرة واحدة هادئة ! . »**

١٦ – خصام تورجنييف وتولستوى

لم تتوتر علاقات تورجنييف بالشبان وحدهم ، بل سرعان مادب الخصام بينه وبين تولستوى أيضا .. فما أن تم التعارف بين الاديبين الكبيرين ، حتى أخذت جريدة تولستوى تطلع كل يوم بآراء متناقضة متضاربة عن تورجنييف. فكانت تارة تقول انه انسان ممل مضجر أشبه ما يكون بطفل ، وتارة أخرى تقرر انه رجل ذكى ولكنه لا يؤمن بالذكاء ولا بشىء على الاطلاق ، وتارة ثالثة تؤكد انه لم يحب قط فى حياته وانما أراد فقط أن يحب !.. ومع ان تلك الآراء لم تكن عارية تماما من الصدق، فقد كان فى مقدور

تورجنييف أن يرد عليها بقوله : **« ان تولستوى لم يحبنى قط ، وانما أراد فقط أن يحبنى ! »**

وفيما كان الرجلان يقيمان معا فى باريس ، كتب تورجنييف الى صديقه « انينكوف » يقول : « اننى لا أستطيع التقرب الى تولستوى على الرغم من كل جهودى فى هذا السبيل .. انه على النقيض منى فى كل شىء .. فما أحبه أنا ، يكرهه هو ، والعكس صحيح ! .. واننى لأشعر بالارتباك يستحوذ على فى حضرته ، ولعله يشعر هو أيضا بمثل هذا الاحساس . وليس من شك فى انه سيصبح رجلا عظيما يشار اليه بالبنان ، وسوف أكون أنا أول من يصفق له ويعجب به .. ولكن من بعيد ! »

والحق ان الرجلين لم يخلقا ليعيشا معا فى تفاهم ووئام ، وكان هذا الداء بينهما بغير دواء ! .. وقد أوضحت زوجة تولستوى أسباب القطيعة بينهما فقالت : « التقى تورجنييف يوما بتولستوى عند « فيث » فى (ستيبانوفكا) بولاية أورلوف ، ودار الحديث بينهما حول الاحسان . فروى تورجنييف أن ابنته ، التى تلقت ثقافتها فى الخارج، فتاة كثيرة الاحسان الى الفقراء والبؤساء.. فقال تولستوى انه لايحب هذا النوع من الاحسان ، اذ ان الواجب يحتم على الانسان الا يختار فقراءه على الطريقة الانجليزية ويخصهم بجزء ضئيل محدود من دخله ، فالاحسان الحقيقى هو الذى يصدر عن القلب ويلبى نداءه الاول . فهتف تورجنييف : « أتعنى بذلك اننى لا أحسن تربية ابنتى ؟ » وأجابه تولستوى بأنه لايقصد أحدا بالذات ، وانما هو يعبر عن رأيه الخاص ! فصاح فيه تورجنييف غاضبا : « اذا تماديت فى الحديث على هذا النحو ، فلن أتوانى عن صفعك! » . وما لبث تولستوى ان انصرف متوجها الى المحطة الواقعة

بين أملاكنا وأملاك « فيث » . وهناك بعث يطلب بنـادق وطلقات، ثم أرسل الى تورجنييف خطابا يطالبه فيه بالتكفير عن الاهانة التى ألحقها به ، **وأفهمه أنه لن يتظاهر بالقتال أى أنه لم يكن يرغب فى نزال بين اديبين يصحبهما ثالث ، او فى مبارزة تنتهى بقرع كؤوس الشمبانيا ، انما يبغى القتال حتى الموت ! .. ثم سأل تورجنييف أن يأتى مزودا ببندقية الى (بوجوسلوف) حيث يجده فى انتظاره عند أطراف الغابة !**

« وقضى تولستوى الليل بطوله فى الانتظار . وفى الصباح، بعث اليه تورجنييف يقول انه ليس على استعداد للنزال وفقا للشروط التى يقترحها تولستوى ؛ وطلب أن تكون المبارزة عادية . واذ ذاك ، رد عليه تولستوى قائلا : « انك تخشانى، ولكننى أحتقرك وأرفض أن أوجه اليك كلمة واحدة بعد الآن ! .. » . وانقضت سبعة عشرة سنة على ذلك الحادث دون أن يرى أحدهما الآخر !

وكان تورجنييف يجد صعوبة بالغة للاحتفاظ بعلاقته بصديقه « هرزن » نفسه ، فقد كان يذهب لرؤيته كل عام فى لندن حيث كان قد لجأ وأصدر جريدة «الناقوس» التى نالت شهرة واسعة بين ثوار العالم قاطبة . أما هرزن الذى أصبح من أنصار الصقالبة ، فكان يزعم أن فى أوروبا الغربية حضارة قذرة لطخت نفوس الشعب ، وان فى استطاعة العنصر الروسى وحده — الذى ظل محتفظا بهمجيته وحيويته — أن ينقذ البشرية .. وكان يتهم تورجنييف بأنه يتعلق بالغرب تحت تأثير ضعف الشيخوخة . ولكن تورجنييف كان يدفع عن نفسه هذا الافتراء بقوله : **« حتى لو كنت فى العشرين من عمرى ، لفضلت الانظمة الغربية .. اننى أوروبى، وأحب هذا القلم الذى حملته منذ عهد الصبا !»**

١٧ ــ ((الدخان))

بعد أن انصرف عنه أصدقاؤه ، ازداد مصير تورجنييف ارتباطا بآل فياردو ، وأصبح تعلقه ببولين أشد توثقا من رابطة الحب ذاتها . وكان لا يفتأ يكتب اليها قائلا : **((أننى أستطيع أن أصارحك القول بأننى احمل لك بين ضلوعى عاطفة لم يسبق للعالم أن عرف مثلها ولن يعرف مثلها قط !))**

وفى عام ١٨٦٤، اعتزلت ((بولين)) المسرح، واستقر ((لويس)) مع افراد اسرته فى (بادن) حيث لحق بهم تورجنييف ، وشيد لنفسه منزلا مجاورا لمنزلهما . وكانت ((بادن)) خير مقر لمهاجر مثله. اذ سرعان ما تعرف فى مجتمعاتها الى شخصيات غريبة من مختلف بلاد العالم والى عدد كبير من الروس ، فاستطاع أن يتأمل تصرفاتهم ، وان يدرس طباعهم وأخلاقهم ، واذا به يجد فى حياة المدنية مادة خصبة لروايته التى اصدرها بعد ((الآباء والابناء)) ، وهى رواية ((الدخان)) التى تعد من أشهر رواياته ، والتى تشبه فى موضوعها رواية ((خداع النبلاء)) .. وتتلخص وقائعها فى أن شابا يدعى ((ليتفينوف)) صحب خطيبته ((تاسيانا)) وعمتها الى (بادن) حيث التقى بامرأة جميلة طائشة تدعى ((ايرين)) كان ليتفينوف ، وهو لا يزال طالبا ، قد وقع فى هواها ، ولكنها هجرته فجأة فى الوقت الذى كان يتهيأ فيه للاقتران بها ، ثم تزوجت من رجل على جانب عظيم من الثراء ! .. وها هى ذى اليوم تقيم فى (بادن) مع زوجها وهو قائد برتبة جنرال ، وسيم القسمات ، جميل المحيا ، ولكنه أبله مغفل ! .. انها تسيطر على عالم تحتقره كل الاحتقار .. وسرعان ما يبعث لقاؤها بليتفينوف فى نفسها شعورا بالاسف لفراقه والرغبة فى استرداده . فترسل اليه باقة من الازهار ،

وان هى الا أيام حتى تنجح في اجتذابه واستمالته اليها من جديد .. ومع انه يعلم حق العلم أن خطيبته افضل من « ايرين » المجنونة ، فانه لا يتورع – مع ذلك – عن هجرها واغراء « ايرين » بالهروب معه ! .. ولكن الشجاعة تخون « ايرين » فى اللحظة الاخيرة ، فتقرر البقاء بجانب زوجها ، وبذلك تقوض صرح حياة ليتفينوف للمرة الثانية ! .. وبعد انقضاء عدة سنوات على هذا اللقاء ، يقترن ليتفينوف « بتاسيانا » . أما « أيرين » فتكون قد تقدمت بها السن ، وتظل – على الرغم من ثرائها – أمرأة شقية تعسة ، بعد أن انصرف عنها الشبان لطيشها وغرورها !

وانه ليستحيل على القارىء أن ينسى بعض مواقف هذه الرواية ، مثل لقاء « أيرين » بليتفينوف على السلم حيث يمر بها دون أن يعرفها بسبب النقاب الذى يحجب وجهها .. ومثل باقة السوسن التى يجدها فى حجرته وقد بعثت بها اليه سيدة مجهولة .. ومثل مشهد ايرين وهى على افريز المحطة تحدق فى ليتفينوف بعينيها الناعستين ، وقد ارتدت قبعة سفر لا تكاد تضم جدائل شعرها المتهدل .. وأخيرا مثل رحيل ليتفينوف الذى يستمد منه الكتاب عنوانه : « الدخان » . وقد صور المؤلف هذا الرحيل قائلا : **« كانت الريح تهب فى وجه القطار ، وسحب الدخان تتراقص أمام النافذة سوداء تارة بيضاء تارة اخرى ، بينما كان ليتفينوف يشيعها بنظراته البعيدة ، محدقا فيها وقد تملكه صمت رهيب .. وفجاة طرأت على ذهنه فكرة غريبة .. كان وحيدا فى المركبة ، لا يشغله شاغل ، فاذا به يجد نفسه يهتف : « دخان ! دخان ! » وبغتة لاح له كل شىء كالدخان .. حياته .. الحياة الروسية .. كل ما هو انسانى ولا سيما كل ما هو روسى .. لم يكن كل شىء فى نظره الا كالدخان أو**

البخار ! .. كل شيء بدا له فى تغير مستمر ، فالصور تتتابع مختلفة ، والاحداث تتلاحق سراعا ، غير أن كل شيء يظل فى الواقع على ما هو ! .. كل شيء يسير سيرا حثيثا ويندفع الى حيث لا نعلم .. كل شيء يتلاشى دون أن يخلف وراءه أثرا أو يبلغ غاية ! .. واذ ذاك ، عادت به الذاكرة الى ما وقعت عليه انظاره من أحداث فى لجة تلك السنوات الاخيرة الصاخبة ، فالفى نفسه يهمس : « دخان ! دخان ! »

على أن رواية «الدخان» لم تكن رواية فحسب ، بل كانت أيضا نقدا شديدا لاذعا تناول فيه تورجنييف العالم والقواد من أصدقاء ايرين وأصدقائه القدامى.. فقد كان تورجنييف قد ضاق ذرعا بالاهانات التى كان يقذفه بها أولئك الشبان الخياليون الذين كانوا يتوهمون أن روسيا هى منقذة الانسانية ، ومن ثم اتخذ من روايته سلاحا لشن هجومه المضاد عليهم .. وقد حوت الرواية ـ الى جانب تصوير أشخاص القصة الرئيسيين ـ وصفا واقعيا لاذعا لروس (بادن) حتى ليقف القارىء على أحاديثهم الجوفاء ، ويكاد يسمع الضجيج الذى يثيرونه حولهم وقد خيمت عليهم سحابة كثيفة من دخان سجائرهم ! .. على أن تورجنييف لم ينه الرواية بمثل ما انهى به رواية « آباء وأبناء » ، أى بموت بعض ابطالها واستسلام البعض الآخر للقضاء والقدر ، وانما ضمنها ـ لأول مرة ـ انشودة جديدة ، هى انشودة الأمل ، اذ جعل « ليتفينوف » ـ بعد عدوله عن ملاحقة ايرين ـ يذهب الى الريف ليزرع أراضيه ، ويعنى بشئون فلاحيه ، ويعانى الامرين من النظم الجديدة التى لا يعمل بها والنظم القديمة التى فقدت قيمتها وفعاليتها . فكان يتحتم عليه أن يتذرع بالصبر الذى لا يعرف الكلل دون أن يتورع ـ مع ذلك ـ عن أن يمارس أحيانا أساليب الحيل والخداع

..ولا يتوانى عن التوسل بالحيلة والخداع.أما «تاسيانا» ، فتكرس حياتها فى خدمة فلاحى قريتها حيث تنشىء لهم مستوصفا ، وتتفانى فى القيام بأعمال نافعة مجدية وأن تكن بسيطة متواضعة .. وهكذا يلمس القارىء فى الرواية أن نسمة الحياة المكافحة تطرد أمامها غيوم اليأس والقنوط ،

فيتجلى العالم الحقيقى قاسيا لا يرحم، وان كان جميلا عذبا كالريف فى الصباح، عندما تنقشع ظلمات الليل رويدا رويدا ، ثم تتلاشى تاركة الفضاء فسيحا لأشعة الشمس الضاحكة !

القسم الثالث

١٨ ـ السنوات الأخيرة

لقد شبه تورجنييف ، فى قصته «الدخان» ، الفكر الروسى والجهود غير المنظمة التى تبذلها بلاده فى سبيل الوصول الى حالة استقرار مبهمة ، بذلك الضباب الذى يكسو المروج لحظة ، ثم لا يلبث أن يتبخر دون أن يترك أثرا يدل عليه . وهو اذ أصدر ذلك الحكم ، انما قد حكم بعقله لا بقلبه ، لانه كان روسيا وكثيرا ما كان يشعر هو نفسه بالحاجة الى أن يكتنفه مثل هذا الضباب !

ومع انه كان يرى فى نفسه رجلا أوروبى النزعة ، فانه لم يكن يشعر بالراحة فى أى بلد من بلاد أوربا . ففى عام ١٨٧٠، حل لاول مرة فى منزله بمدينة (بادن) ،ولم تلبث الحرب السبعينية أن أعلنت بين فرنسا والمانيا . وكانت الفكرة التى كونها لنفسه اذ ذاك عن المانيا قائمة على العاطفة ، بدليل أن جميع الالمان الذين تناولهم بالوصف فى رواياته ، كانوا يتسمون بالغباء ويبعثون على الاشفاق ! .. ومن هنا ، فما أن اعلنت الحرب ، حتى أخذ يرتعد هلعا وجزعا على الألمان ،

اذ صورت له مخيلته ((نابوليون الثالث)) وقد راح يكتسح بلاد ((جوته)) و ((هيجل)) بجيوشه الجرارة ، وينزل بها الخراب والدمار .. ولكن ما أن اكتشف أن المانيا كانت على غير ما تخيله عنها ـ أى أنها كانت مادية قوية فظة ـ حتى اتخذت عواطفه وميوله اتجاها آخر جعله يندد بضم (الالزاس) الى المانيا . وقد كتب فى هذا يقول : « أنه لمن الغريب حقا ـ فى مثل هذه الأيام ـ الا يكون المرء لا المانيا ولا فرنسيا .. فقد يصبح مراقبا من قمة رأسة الى أخمص قدميه ، وليس فى ذلك ما يستحب أو يستوجب الزهو ، ولكن ما الحيلة اذا ما ولد المرء مراقبا ؟ ! »

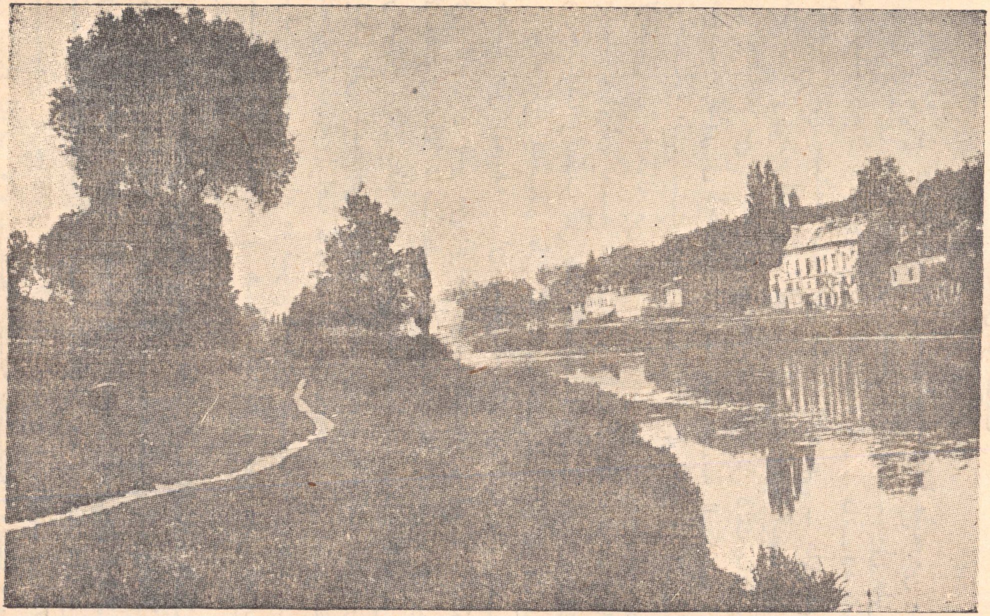
ولم تلبث الحرب أن حرمت أسرة فياردو جميع مواردها ، وقطعت عليها جميع سبل الحياة ، فلما عرض على مدام فياردو أن تعطى دروسا فى فن الغناء فى لندن ، انتقلت الاسرة بأكملها الى عاصمة الانجليز ، ثم بادر تورجنييف باللحاق بها هناك ! .. **وكانت هذه أول مرة يقيم فيها ردحا طويلا من الزمن فى انجلترا .. وقد بدت له الحياة فيها مليئة بالنشاط ، الا انها كانت مغبرة قاتمة تحمل الكآبة الى النفس .** ولعل أكثر ما استرعى انتباهه فى تلك البلاد برود أهلها وجمودهم ! .. فقد حضر فى أحد الايام فى جامعة (كمبريدج) مناقشة بين الطلبة موضوعها : « هل يستحق اعضاء الجمعية الوطنية الفرنسية عطف الانجليز ؟ » ، وبعد أن استمع الشبان فى هدوء تام الى الحجج المؤيدة للاقتراح والمعارضة له ، اقترعوا ضده بالاجماع . فقال عندئذ تورجنييف : « الآن فقط بدأت أدرك لماذا انتم ، معشر الانجليز ، لا تخشون الثورة ! » وكانت متعته الحقيقية الوحيدة تنحصر اذ ذاك فى السفر الى اسكتلندا لممارسة الصيد فى ساحاتها وملاعبها !

وفى أواخر شهر نوفمبر من عام ١٨٧١ ، عادآل فياردو الى باريس. وبعد رحلة وجيزة الى روسيا ، لحق بهم تورجنييف بدوره ، بل لو أنهم قدسافروا الى استراليا ، للحق بهم هناك أيضا دون تردد!.. وقد استأجرت الاسرة وصديقها طابقين ، يعلو أحدهما الآخر ، فى منزل بشارع (دويه) رقم ٤٨ .. وكان الطابق الخاص بتورجنييف مؤلفا من ثلاث غرف ، وكانت فى حجرة مكتبه أريكة يقضى عليها الجزء الاكبر من سحابة يومه ، وقد علقت على جدرانها لوحة زيتية تمثل منظرا طبيعيا رائعا بريشة الرسام « روسو » وصورة بارزة تبين جانبا من وجه بولين ، وقطعة من المرمر نحتت عليها يدها ..

وكانت أواصر الصداقة قد أخذت تتوثق بينه وبين ((فلوبير)) ، والشقيقين ((جونكور)) ، و ((دوديه)) ، و ((زولا)) ، فضلا عن أنه كان يجتمع بكثير من مواطنيه الروس الذين كانوا يرون فيه ((سفيرا لثقافتهم)) فى باريس .. وقد كان يستقبلهم فى أدب ورقة جمين ، ويكرم مثواهم ، حتى انه لم يكن يتردد فى وضع مقدمة لكتاب الفه أحدهم أو الحكم على كتاب أصدره آخر ، معرضا حكمه أحيانا لمعارضات عجيبة متناقضة ، ولكنه كان فى حاجة الى مثل هؤلاء الزائرين ، لانهم كانوا يحملون اليه نفحة من نسيم روسيا العليل الذى كانت نفسه المعذبة تجد فيه دواء لسقمها .. وفى الوقت الذى كان الشبان الروس يتجاذبون فيه أطراف الحديث - فى غير منٔ كلل أو ملل - فى مسكن تورجنييف ، كانت تنبعث من الطابق الاسفل الحان « البيانو » العذبة يصحبها صوت مدام فياردو الساحر الخلاب .. ومع انها كانت اذ ذاك فى الخامسة والخمسين من عمرها ، فقد كانت تأسر دائما قلوب جميع اصدقائها ! .. وفى عام ١٨٧٤ ، اشترى تورجنييف ولويس فياردو منزلا ريفيا فى (بوجينال)

اسمه « لى فرين » سرعان ما صار مكانا يصطاف فيه كل عام مع آل فياردو. وكانت روابط الصداقة التى تشده الى آل فياردو قوية متينة ، ولكنها لم تكن تخلو – مع ذلك – من شوائب الحزن والاسى . فكانت كلما تقدمت السن بتورجنييف ، ازداد شعوره بالاكتئاب ، وأحس أنه أضاع حياته سدى – سواء بوصفه انسانا أو كاتبا روائيا – وان كل شىء قد انتهى ! .. وكان ، فى غمرة اساه ، لا ينفك يناجى نفسه قائلا : « **ها أنذا أجلس الى مكتبى وقد خيم على ذهنى ظلام أشد سوادا من الليل .. والايام تمر بى فاترة لا طعم لها ولا هدف ، وكأنها لحظة عابرة من الزمن ! .. لم يعد لى الحق ولا الرغبة فى الحياة .. اننى أعيش بدون أمل وأحيا بغير رجاء !** »

ومن العوامل العديدة التى ادخلت تلك الكآبة على نفس تورجنييف ، عاملا الغربة والحنين الى الوطن .. وقد تحدث عنه الكاتب الفرنسى «بول بورجيه» ذات مرة يقول : «حسبك أن تلتقى بتورجنييف وتستمع الى حديثه – ولو ليلة واحدة – حتى تتبين الى أى حد ظل العنصر الروسى سليما فى هذا الشيخ المديد القامة ، ذى اللحية الطويلة البيضاء ، والانف العريض ، والنظرات الساذجة ، ولكى تلمح أن شخصية أخرى قد امتزجت بشخصيته الاولى ، وهى شخصية الرجل العالمى ، اذ أن ذكرياته تتناول أوروبا بأسرها من أقصاها الى أقصاها ، فهو تارة يصف منظرا فى جزيرة (وايت) بانجلترا ، وطورا شارعا فى مدينة جامعية بألمانيا ، وتارة ثالثة حيا من أحياء ايطاليا ، وكل ذلك بلغة فرنسية سليمة تدل على أنه قضى زمنا طويلا فى بلادنا ، واختلط بها اختلاطا كاملا عميقا .. »



« شاليه » ترجنيف ، فى ضاحية (بوجيفال)

والواقع ان تورجنييف ظل – رغم ما بدا عليه من مظاهر الرجل العالمى – روسيا حرا اصيلا ، اذ يستحيل على المرء أن يغدو رجلا عالميا فى قرارة نفسه ! .. فالمادة الغزيرة الخفية التى يستمد منها كل منا افكاره هى – على غير علم منا – ذكرى طفولتنا ومطالعاتنا الاولى ، وربما أيضا ماورثناه عن أجدادنا من شعور وعواطف . ففى كل ذلك مادة وفيرة خصبة تظهر فى أحلامنا ، وتعد بالنسبة للكاتب التربة الوحيدة التى نبتت فيها أفكاره ! ولو كان فى استطاعة الانسان – بانتقاله من بلد الى آخر – أن يكتسب روحا جديدة ، أى أن يصبح مواطنا روحيا لبلد آخر ، لما تألم تورجنييف وتعذب كل هذا العذاب ، ولكن انى له ذلك ؟ ! .. وانه لمن المتعذر على كاتب – حتى لو كان يعرف بلدا أجنبيا حق المعرفة – أن يجعل أحداث روايته تدور فيه مع شىء قليل أو كثير من الواقع أو ما يشبه الواقع .. فالكاتب الانجليزي مثلا ، يستطيع ان يصف بطلا انجليزيا فى بيئة فرنسية ، لان بطله قد يحس عندئذ احساس الانجليزى ، وينظر الى أشخاص الرواية الآخرين من الاجانب نظرة رجل يتحلى بثقافة المؤلف نفسه ! ، أما اذا حاول أن يخلق بطلا فرنسيا يدور حوله موضوع احدى قصصه ، ويجعله ينطق بلسانه ، فانه يقدم – فى هذه الحالة – على عمل قد ينجم عنه خطر عظيم عليه !

أما فيما يختص بتورجنييف ، فقد كانت المادة الحقيقية التى يتغذى بها فنه ، سهول (سباسكوى) ، والفلاحين الروس ، ونبلاء العهد القديم ، والشبان الثوريين ، وأولئك النساء الجميلات الغريبات الاطوار .. وقد قال يوما للشقيقين « جونكور » : « اننى احتاج ، لتأليف رواياتى ، الى شتاء قارس ، وصقيع أشبه بصقيع روسيا ، وبرد

زمهرير، وأشجار تغطى أغصانها الثلوج المتجمدة ! » .. ولعله كان يشعر بأنفاسه تختنق فى منزل (دويه) رقم ٤٨ !

والحالة النفسية التى تنتاب الكاتب الذي لا يجد حوله موضوعات تلائمه ، لأشبه بحالة الجائع الذي ينقصه الطعام ! .. وكانت هذه حال تورجنييف ، حتى لقد فكر عندئذ فى مشروع قصة تدور فصولها حول بطل روسى يعيش فى فرنسا ، كى يبين فيها وجه الاختلاف بين الروس والفرنسيين .. وكانت أحداث القصة تدور على النحو التالى :

« غادرت فتاة روسية ، من اللاتى يعتنقن مبادىء « العدميين » بلادها ، وحلت فى باريس حيث التقت بشاب اشتراكى فرنسى واقترنت به . وسارت الامور فى هذه الاسرة الصغيرة على خير ما يرام ردحا من الزمن ، لما كان يجمع بين الزوجين من كراهية مشتركة نحو القوانين والتقاليد . ولكن الزوجة ما لبثت أن التقت بشاب روسى راح يقص عليها ما يصنعه الاشتراكيون من جلائل الاعمال فى وطنهم ، فتدرك اذ ذاك انه ليست ثمة علاقة بين أهداف الثوريين الروس وأفكارهم وشعورهم، وأغراض الاشتراكيين الالمان أو الفرنسيين ، وأن هوة سحيقة تفصل بينها وبين زوجها الذى كانت تعتقد حتى الآن انها على وئام تام معه !

ومع أن الموضوع كان شائقا ممتعا ، وكان فى وسع تورجنييف أن يعالجه على أكمل وجه ، الا أنه لم يرق له أو يجتذبه ، لأن الموضوع لم يكن روسيا قحا ! .. ويبدو أن ميوله نحو الغرب بدأت تضعف وتضمحل رويدا رويدا كلما تقدمت به السن. فمن المسلم به أن الشيوخ يعودون دائما الى أفكار طفولتهم الاولى ، ويموتون وشفاههم تتمتم بكلمات لم تنطق بها منذ عهد الطفولة الاولى . ويفسر علماء النفس

هذه الظاهرة بقولهم : « ان ما يكتسب فى البداية ، يفقد فى النهاية ! » .

هكذا أصبح تورجنييف ـ بعد أن كان يتمنى من أعماق قلبه أن يرى روسيا تتجه نحو الغرب ، وتستلهم أفكاره ، وتلتمس منه النصح الروحى ـ يقول لاصدقائه الروس أن الفرنسيين والالمان استنفدوا نشاطهم وحيويتهم ، وان أراءهم لا تثير فى نفسه غير النفور والاشمئزاز ! .. وقد قال فى أحد الايام ، وهو فى زيارة لصديقه « فلوبير » : « أجل ، انكم قوم لاتينيون حقا ، وفى نفوسكم أثر من مخلفات الرومان وتعلقهم بالقانون ، وصفوة القول أنكم رجال القانون ! .. أما نحن ، فعلى النقيض من ذلك . واليكم مثلا : اننا فى روسيا لصوص ، بيد أنه اذا ارتكب رجل عشرين سرقة واعترف بها ، فان المحكمة لا تتردد فى تبرئته اذا ثبت لها انه كان جائعا أو محتاجا .. أجل ، انكم رجال القانون والشرف ، أما نحن ـ فرغم ما نسير عليه من أوتوقراطية ـ فرجال .. » .. واذ راح يبحث عن كلمة يعبر بها عن فكرته ، أضاف أدمون دى جونكور كلمة « الانسانية » ، فأردف تورجنييف قائلا : « أجل ، هو ما تقول .. اننا رجال الانسانية ، أو بمعنى آخر أقل تمسكا بالعرف والمصطلحات ! » .. على أن كل عنصر يميل الى التفاخر بنفسه عادة ، ومن ثم لم يستنكر أصدقاؤه اللاتينيون المحيطون به فكرة انهم من رجال القانون ، بينما كان تورجنييف يتحدث عن احتقار الروس للغرب بلهجة لا تخلو من اللوم لأولئك الاجانب !

وعندما كان تورجنييف يعكف عن الكتابة ـ وقلما كان يفعل اذ ذاك ـ كان يستوحى ذكريات صباه .. وهكذا أصدر روايتى « مياه الربيع » و « لير .. ملك السهول » ، ثم أضاف قصة جميلة رائعة الي كتابه « مذكرات صياد »

لاهدائها الى «جورج صاند» ، وعنوانها : «الذخيرة الحية» ، وهى عباره عن حوار بسيط يدور مع فلاحة تعيش طريحة الفراش فى كوخ صغير، لا تستطيع الحراك لما ألم بها من سقم وهى فى صدر شبابها ، ولا تتناول من طعام أو شراب سوى ما يتصدق به عليها جيرانها .. انها تعيش وحيدة ، وليس لها من سلوى غير ما يصل الى مسامعها من أصوات العالم الصاخب وذلك الكلب التائه الذى يمر بها من وقت لآخر ، فيقف برهة الى جانب فراشها ثم ينصرف .. وهى ـ مع ذلك ـ تظل تقية صالحة مستسلمة لمشيئة الله ، فتنعم بالسعادة وراحة البال !

١٩ ـ تعليم الشعب الروسى

ولكن ترى ما الذى كان يجرى فى روسيا التى لم تكن لتغيب لحظة واحدة عن بال تورجنييف ؟ .. لقد كاد يسود البلاد عندئذ شعور عميق بخيبة الأمل على أثر الاصلاحات التى اجريت فيها ، اذ ظل الفلاحون على ما كانوا عليه من بؤس وشقاء قبل تحريرهم ، وأخذ النبلاء يشكون مر الشكوى بعد ضياع نصف أملاكهم .. وليس فى الواقع ما يجعل الناس أشد قنوطا ، مثل ثورة يطول أمد انتظارها ثم لا تأتيهم بالرفاهية المرجوة منها ، فيتلاشى كل شعور بالثقة فى قلوبهم ، وتنطفىء جذوة الحماسة فى صدورهم ، ويسقط المرء الى أحط مما كان عليه !

وسرعان ما نما بين الشبان شعور عميق بعدم الثقة بالوسائل المشروعة ، ورغبة جامحة فى الاستهتار بها ، فاذا هم يرون انه لم يعد أمامهم ما ينتظرونه أو يرجونه من القيصر وموظفيه ، فيقررون الهجرة الى الخارج ، ليرتشفوا من مناهله مبادىء المذاهب الاشتراكية والثورية . وكان

بعضهم يعمل من منفاه على نشر مبادىء أوروبا الجديدة فى روسيا عن طريق المنشورات السرية . حتى اذا ما جاء عام ١٨٧١ ، اشادت الجمعية الوطنية فى باريس بالعمل المثمر الذى يقوم به الثوريون الروس .. وفى سويسرا ، كان الطلبة الروس يعيشون مع المنبوذين من الجمعية الوطنية ، فنقلوا عنهم فكرة الثورة الاجتماعية .. وازاء ذلك ، لم يلبث القلق أن استحوذ على حكومة بطرسبرج ، فأمرتهم جميعا بالعودة الى روسيا !

وهكذا ، لم تبزغ شمس عام ١٨٧٣ ، حتى كان الشبان الثائرون المتحمسون قد انتشروا فى سائر أنحاء البلاد .. وبدأت النساء المتعلمات يلعبن دورا خطيرا فى هذا المضمار ، اذ ان مدارس التعليم للبنات كانت قد أخذت تعم روسيا منذ عام ١٨٧٥ ، فوجد الشبان فى زميلاتهم خير عون لهم على نشر رسالتهم ، مما ضاعف من مخاوف الحكومة وقلقها ! .. ولقد كان الفتيان والفتيات يصبون الى تعديل النظام القائم ، ولكنهم كانوا يجهلون الطريق الذى يتعين عليهم سلوكه لبلوغ غايتهم . فقد كان الفلاحون والعمال بالنسبة لهم ، أشبه بشعب أجنبى لا يدرك حتى أفكار تلك الشبيبة التى تدعى أنها تحبهم .. وما لبث أن هداهم تفكيرهم الى ان الواجب يتطلب منهم « الاندماج فى الشعب » مباشرة ، واطلاعه على مدى ما يعانيه من شقاء ، وارشاده الى الطريق الذى يكفل له التخلص منه . وكانت « صوفى باردين » تقول : **« اننا نريد أن نغرس فى نفوس أفراد الشعب فكرة المثل الاعلى لنظام خير من النظام القديم وأكثر اتفاقا ومبادىء العدالة ، وأن نوقظ الشعور الغامض الدفين الراقد فى أعماق قلوبهم ! »**

وفى الفترة ما بين عامى ١٨٧٢ ، ١٨٧٨ ، اختلط بعامة

الشعب ما يقرب من ألفين أو ثلاثة آلاف شاب من الجنسين، ينتمى معظمهم الى الطبقة الارستقراطية ، وجانب منهم الى طبقات أخرى من مهندسين ، وأطباء ، ومولدات ،ومعلمين.. وسرعان ما انتشروا فى الريف أفرادا وأزواجا ، تجمعهم أواصر زواج صورى ، وراحوا يستخدمون جميع وسائلهم الفنية لكسب ثقة الفلاحين ، حتى اذا ظفروا بها ، تلوا عليهم المنشورات الثورية وفسروها لهم . وكان بعضهم يرتدى أحيانا زى « الموجيك » للعمل فى الحقول أو يتطوع للخدمة فى المصانع الى جانب العمال !

وكان تورجنييف ، فى كل مرة يعود فيها الى روسيا ، يبدى اهتماما كبيرا بتلك الحركة ، رغم أنه لم يكن يعود الى وطنه الا للعناية والاهتمام بشئونه الخاصة ، ولا سيما بعد أن فقد كل أمل فى نيل اعجاب مواطنيه أو احتلال منزلة كبار الكتاب فى نظرهم ! .. فقد كان الجمهور الروسى قليل الاكتراث بما ينشره . أما هو فلم يكن ينفق سوى فترات قصيرة فى موسكو أو بطرسبرج ، اذ كان يلجأ الى منزله القديم فى (سباسكوى) حيث كان يعكف على العناية بحديقته ، وتنسيق أزهارها ، ودراسة أخلاق جيرانه وطباعهم .. وكان كثيراً ما يحدثهم عن فرنسا والفرنسيين ، ويشرح لهم طريقتهم الشاذة فى فهم الاسرة والحب ، ويصف الغربيين الآخرين وبخاصة الانجليز الغريبى الاطوار الذين كان ذوقهم يبعث الحيرة فى النفوس ، وكيف أن « ثاكرى » يستغرق فى الضحك عند سماعه احدى قصائد « بوشكين » التى لم يكن يفهمها !.. وكان تورجنييف يهتم بأراضيه حيث كان وكيله وفلاحوه ينهبون ويسلبون كل ما امتدت اليه أيديهم ، فكان يقيم كل عام حفلة شائقة يحضرها جميع

الفلاحين « الموجيك » والفلاحات بملابسهن الحمراء المطرزة بالذهب .. وفى تلك الحفلات ، كان سيد (سباسكوى) يقف متطلعا متأملا — فى شك متزايد — فى هذا الشعب الذى قيل له أن أوروبا ستحيا على يده يوما ، وقد راح ينظر الى أفراده وهم يرقصون ويشربون ، ويرقب روسيا الجديدة باهتمام وشغف !

وفى عام ١٨٧٦ ، أصدر رواية جديدة عنوانها « الاراضى العذراء» ، فأثار ، فى تلك المرة أيضا ، ثائرة الكثيرين عليه ..

وبطل الرواية طالب ثورى يدعى « نيجدانوف » عينه « سيبياجين » — وهو موظف كبير يعد نفسه من الاحرار — مدرسا عنده .. فسافر الى الريف حيث شاطرته «ماريان» — ابنة شقيق « سيبياجين » — أراءه الثورية ، ثم أعتقدت هذه انها تحبه فاعربت له عن رغبتها فى الاختلاط بالشعب .

فيهرب الشابان ، ويلجآن الى جار لهما يدعى « سولومين » وهو مدير مصنع له نزعة ثورية .

و « سولومين » شخصية جديدة لم يسبق لتورجنييف أن عالج مثلها .. انه يمثل رجل الافكار الحديثة ، ولكنه رجل العمل الدائب الذى طالما بحث عنه تورجنييف فى روسيا بغير طائل ، ثم خيل اليه أنه اكتشفه فى الجيل الجديد الناشىء من الشعب .. ولم يكن « سولومين » متحمسا ولا محبذا لمغامرة نيجدانوف وماريان . « .. **لم يكن يعتقد أن نيران الثورة أوشكت أن تندلع فى روسيا ، على أنه لم يشأ أن يفرض رأيه ، فكان يترك الآخرين يختبرون قوتهم ، مكتفيا بالتطلع اليهم ومراقبتهم .. وكان يشاطرهم أراءهم الى حد ما ، لانه كان من الشعب ، ولكنه كان يلاحظ تخلف هذا الشعب الذى يستحيل أن تسير الامور بدونه ، وكان**

يرى ضرورة اعداده زمنا طويلا، ولكن بطريقة أخرى ولغرض آخر ! »

أما « نيجدانوف » فهو – على النقيض من سولومين – رجل خيالى كسائر الشخصيات التى ابتكرها تورجنييف . ولكن اتراه يؤمن بالثورة ؟ .. أجل ، انه يؤمن بها ؛ ولكنه ضعيف متخاذل .. وانه ليناجى نفسه فى الرواية قائلا :

« الا لعنة الله عليك ، أيها الفنان العاثر المتشكك ! .. أى ثورى تريد أن تكون بربك ؟ ! . أنظم الشعر اذا أردت ، وأخل الى نفسك وأفكارك وعواطفك الوضيعة الحقيرة ، ولكن ، بالله عليك ، لاتتصور أن نزواتك وغضباتك العصبية تشبه ، من قريب أو بعيد ، غضبة الرجل وثورته الشريفة ! .. هلا أخبرتنى ، يا هملت ، ما العمل ، كيلا أحذو حذوك فى كل شىء ، وخاصة فى تلك اللذة المهينة التى أشعر بها وأنا أنحو باللائمة على نفسى ، وامطرها وابلا من الشتائم واللعنات ؟! » .

ويعانى « نيجدانوف » آلاما ممضة لما يلقاه حوله من قلة ادراك وعدم اكتراث ، فيقول : « لقد انقضى على خمسة عشر يوما وأنا اختلط بأفراد الشعب .. وانه لمن المتعذر على المرء حقا أن يتصور أمرأ أشد سخفا من ذلك .. لست من انصار الصقالبة ، ولست من أولئك الذين يستسلمون لارادة هذا الشعب الساذج القوى .. كلا ، فاننى أريد – على العكس من ذلك – أن أؤثر فيه ، ولكن ما الحيلة ؟ .. ترى كيف السبيل الى بلوغ ما أصبو اليه ؟ .. اننى فى كل مرة أجد فيها نفسى بين أفراد الشعب ، لا يسعنى غير الانصات اليهم ومراقبة ما يحيط بى من أمور .. اننى فى كل مرة أحاول فيها الكلام ، لا تلبث محاولتى ان تبوء بالفشل .. اننى أشعر بانى لا أصلح لشىء ، ويخيل الى انى أشبه بذلك الممثل العاثر الذى يقوم بتمثيل دور يفوق مواهبه ! »

أما خاتمة الرواية ، فتقطر حزنا ومرارة ، اذ يبلغ الفلاحون السلطات عن المتعلمين الذين يتشدقون بعبارات خطرة مثيرة للخواطر ، فيلقى القبض عليهم ، وينتحر « تيجدانوف » وتتزوج « ماريان » من « سولومين » ! .. وفى هذه المرة أيضا ، انتهى الامر بتورجنييف الى أن وهب الفتاة المتحمسة المرهفة الاحساس للرجل القوى ، مؤثرا اياه بذلك على الرجل الخيالى أو الـ « هملت » الروسى .. ومن عجب، ان أكثر الرجال ثقافة واوفرهم علما كثيرا ماينفرون من المنطق ، ويخصون باحترامهم واجلالهم العمل المتواضع الدائب .. وهكذا كان تورجنييف يعجب « بسولومين » لتوازنه اذ كتب يصفه قائلا : « انه يتحلى ببصيرة ثاقبة ويتمتع بصحة كالصخر .. وهذا أمر عجيب عندنا ، لاننا ظللنا نعتقد حتى اليوم ان الرجل الذكى الفطن يجب أن يكون مريضا !.. » ومما يوضح أيضا خلق سولومين قوله : « أما مهمتكن أنتن ، أيتها النساء ، فتنحصر فى تهذيب شقيقاتكن من أفراد الشعب ، وليس هذا بالامر الهين ! .. وعليكن أن تدرسن الحروف الابجدية للاطفال ، وتوزعن الادوية على المرضى .. وقد تقلن ان هذا العمل ليس فيه تضحية ، ولكن اسمحن لى بأن اصارحكن القول بأن تمشيط شعر الطفل المصاب بمرض القراع، تضحية قل من يستطيع الاقدام عليها .. » وكانت خاتمة الرواية فى مصلحة سولومين وحده ، اذ امتدحه تورجنييف وأشاد به قائلا : « اننا فى حاجة الى مثل هؤلاء الرجال الاقوياء ، ذوى الاجسام الضخمة واللون الواحد ، ولسنا بحاجة الى أى شىء سواهم ! » .

وكان طبيعيا الا يرضى الكتاب أحدا ، اذ أثار تورجنييف ـ فى تلك المرة أيضا ـ حفيظة قرائه وسخطهم ، وخيب رجاءهم

.. لقد كان تورجنييف يتمتع بقدرة عجيبة على استثارة المحافظين والتقدميين على السواء !.. فلئن كان الاستياء الذى أظهره الابناء نحو المؤلف قد بدا اذ ذاك عنيفا بالغا ، فان استنكار الآباء ماكان ليقل عنه حدة ، لما تبينوه من اخطار تتهددهم فى تلك القوة العاملة الرهيبة ، الكامنة فى رجال من أمثال « سولومين » .. أما الفنانون ، فكانوا يقولون أن شخصية « سولومين » من نسج الخيال ، وأن روسيا لم تعرف قط رجالا على غرارها !

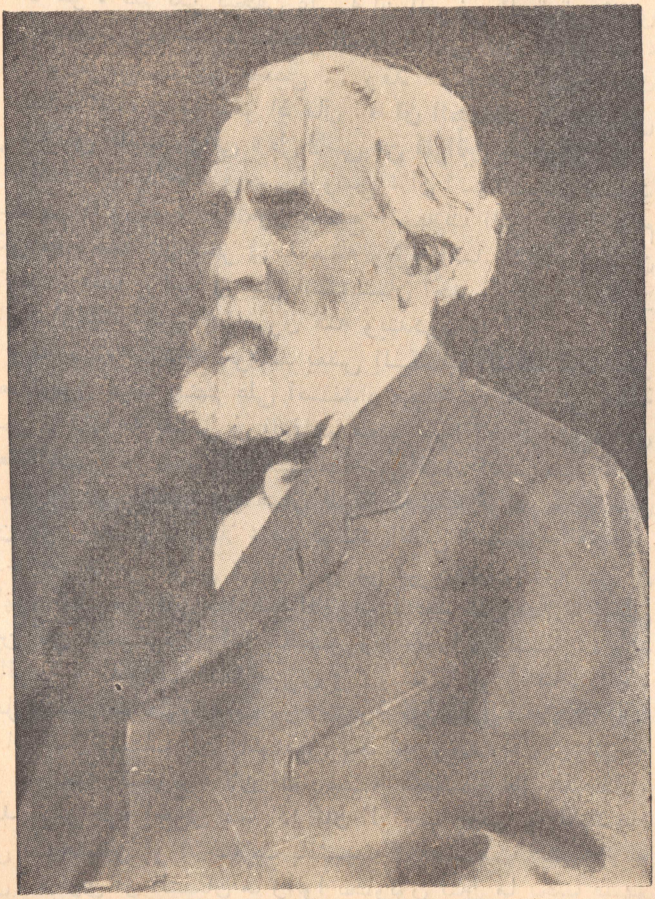
٢٠ – تورجنييف والشبيبة

لما كانت روسيا من البلاد السريعة التقلب والتحول ، فان مسرحها السياسى لم يلبث أن شهد عدة تطورات حاسمة جعلت الاوضاع فيها تختلف كل الاختلاف عما كانت عليه حين فكر تورجنييف فى كتابة « الاراضى العذراء » . فقد أرادت السلطات قمع حركة « المبشرين » بالثورة ، من أمثال « نيجدانوف » و «ماريان» ، الذين كانوا يسعون للاختلاط بالشعب ، فاعدمت البعض منهم ، ونفت البعض الآخر الى مجاهل سيبيريا. فكان ان أساءت تلك التدابير الحاسمة الى نظام الحكم أكثر مما أساءت الى الشبان الثوريين أنفسهم ، اذ سرعان ما تحول هؤلاء الشبان من وسائل الدعاية السلمية الى وسائل الارهاب وما تنطوى عليه من قتل واغتيال وتخريب وتدمير ! .. وقد حدث ، غداة اليوم الذى صدر فيه الحكم على الثوريين المعتقلين ، أن اطلقت فتاة رصاص مسدسها على الجنرال «تريبوف» حكمدار بوليس بطرسبرج ، فأصابته بجروح . ولما سئلت عن السبب الذى دعاها الى ارتكاب فعلتها ، أجابت بأنها لا تكن للجنرال أية ضغينة شخصية ، وان كل ما كانت تبتغيه هو معاقبته ، لانه أمر فى

يوم زار فيه السجن ، بجلد طالب من المعتقلين السياسيين رفض أن يقوم نحوه بواجب التحية.. فما كان من السلطات الا أن أطلقت سراح الفتاة وأخلت سبيلها !

على أن حوادث الارهاب اخذت تنتشر بشكل متزايد فى سائر انحاء البلاد . فلما قررت الحكومة اعلان الاحكام العرفية ، قابلت لجنة الثوريين التنفيذية تلك التدابير التعسفية بأن حكمت بالاعدام على القيصر اسكندر الثانى ، على الرغم مما عرف عنه من طيبة واصلاح ، وما بذله من جهود صادقة فى سبيل انصاف شعبه . فقد اعتبرته اللجنة المسئول الوحيد عما وصلت اليه البلاد من فساد وانهيار !

وعندما رجع تورجنييف الى روسيا فى عام ١٨٧٩ ، دهش لما خصه به مواطنوه من استقبال باهر لا يحظى به غير العظماء. فقد راحوا يدعونه الى جميع الحفلات ، ويطلبون اليه أن يقرأ كتبه على الملأ . أما الفتيات اللاتى سبق أن انهلن عليه بشتائمهن ولعناتهن منذ ستة أشهر فقط عقب نشره لروايته « الاراضى العذراء » ، فقد طفقن يرجونه ان يوقع لهن بامضائه على نسخ من الرواية نفسها ! .. على أن مظاهر المجد التى أخذت تحوط به ، كان لها — فى الواقع — ما يبررها ويعللها ، اذ كان معروفا عن تورجنييف أنه يمثل مبدأ الحرية ، وأنه من المطالبين بالدستور ، **ومن ثم كان الروس المعتدلون الذين يستنكرون وسائل القمع العنيفة وينفرون من وحشية الاعتداءات ، يجدون سلواهم فى تكريم ذلك الكاتب ، رمز الافكار السياسية التى لا يجرؤون على المجاهرة بها .** ثم انه كان قد صار كاتبا كلاسيكيا يشار اليه بالبنان ، حتى أن العمال كانوا يقتربون منه فى محطات السكك الحديدية ، ويسألونه عما اذا كان فعلا مؤلف « مذكرات صياد » !



صورة لترجنيف فى عام ١٨٧٩

أما هو ، فلم يكن ليخفى عليه أن الفرض الحقيقى الذى كان يحتجب وراء جميع مظاهر الحفاوة التى كان يحاط بها ، انما هو غرض سياسى محض .. وقد صرح هو نفسه بذلك فى خطاب ألقاه فى موسكو اذ قال : « **ان الجماهير لا تصفق لى ، لأننى كاتب روائى ، بل لأننى من الموالين للأحرار !** »

ولكنه كان يلاحظ فى حسرة وأسى ، أن أشد الشبان تمسكا بمبادئهم الثورية ، يقاطعون جميع الحفلات التى كانت تقام لتكريمه ، مما كان يحز فى نفسه ويؤلمه أشد الايلام ، اذ أن الانسان قلما يرغب فى نيل استحسان أحد ، رغبته فى الظفر بتأييد أولئك الذين يعرضون عنه ويندون به !

وقد دعاه — ذات مرة — بعض الكتاب الناشئين ممن يتعاونون فيما بينهم على اصدار مجلة ثورية ، الى حفلة سمر . فاذا به يفشل فى التفاهم معهم نظرا لان كل شىء كان يبعده عنهم .. فقد كان مضيفوه من أفراد الشعب الذين اضطروا الى الكفاح والنضال طويلا لكسب قوتهم ، فى حين كان هو رجلا ثريا نبيلا ، من أولئك الذين استغلوا الفلاحين ردحا طويلا من الزمن ، وان يكن عن غير عمد . . فضلا عن أن مظهره الطبيعى كان مناقضا لمظهرهم ، فقد كان عملاقا ، على حين كان مضيفوه أقزاما يتضورون جوعا وبؤسا .. واذ سألوه : « ما رأيك فيما يجرى فى روسيا من أحداث ؟ .. وهل تعتقد أننا على أبواب ثورة كثورة فرنسا فى عام ١٧٨٩ ؟ » ، أجاب تورجنييف بأن المستقبل بيد الله وحده ، وان الثورة غير محتملة الوقوع ، لان المعارضة منقسمة على نفسها .

وقد سئل مرة أخرى عما اذا كان الواجب يقضى بالانضمام الى الارهابيين أو الاختلاط بالشعب ؟ فصمت هنيهة ، ثم قال : « أرى ان الشبان ما زالوا يحاولون تبين ما يجب عليهم عمله . فأولى بهم هم أن يجيبوا على هذا السؤال . . أما فيما

يختص بى ، فاننى لا أزور روسيا الا لماما ، ومن ثم ليس من الميسور على حل المشاكل السياسية العويصة ! »

٢١ ـ تصالح تورجنييف مع تولستوى

فى عام ١٨٨٠ ، ذهب تورجنييف لقضاء بعض الوقت عند « تولستوى » تلبية لدعوته .. وكان هذا الاخير يجتاز أزمة نفسية حادة ، فأراد ـ بدافع المحبة والرغبة فى الوئام ـ ان يتصافى مع من يكون قد اختلف معهم أو أساء اليهم .. ولم تكن الضغينة والحقد من شيم تورجنييف ، ومن ثم فما أن عرض عليه « تولستوى » الصلح ، حتى قبله على الفور عن طيب خاطر ، واذا به يسافر الى (ياسنايا بوليانا) بعد ثلاثة أشهر ، ويمضى فى التردد على منزل صديقه بعد ذلك حتى سنة ١٨٩٠ .. **وقد وجدت الكونتة تولستوى فى شخصه شيخا طاعنا فى السن ، ضعيف الارادة كالاطفال ، بيد أنه استطاع ـ مع ذلك ـ أن يسحرها بحديثه ولا سيما بمقدرته الفائقة على سرد القصص والطرائف ، حتى لقد كان يخيل للمستمع اليه أنه يرى ما يصفه رؤية العين !**

.. أما تولستوى ، فقد وجد فيه شخصية ساحرة جذابة ، ولكنه استاء مما لاحظه عليه من كآبة تدفعه الى الابتعاد عن جوهر الامور والتمسك بقشورها ! .. وعلى أثر رحيل تورجنييف ، بعث اليه تولستوى بخطاب ، رجاه فيه ألا يحدثه قط عن مؤلفاته ، اذ قال : « الله وحده يعلم ما ينتابنى ـ اذ أعيد مطالعة مؤلفاتى أو اسمع أحدا يتحدث عنها ـ من شعور مزدوج ، هو مزيج من الخجل والخوف من أن أكون مثارا لسخرية أحد .. واننى ، وان كنت أحبك واثق بما تكنه لى فى أعماق قلبك من شعور طيب واحساس

صادق ، الا انه يبدو لى انك أنت أيضا تسخر من كل ذلك .. فدعنا اذن من الحديث عن مؤلفاتى » .. واستطرد يقول : « أن المقارنة بين كائنين بشريين مستحيلة ، فان لكل منهما طريقته الخاصة فى حل مشكلاته .. »

وقد رد تورجنييف عليه بقوله : « على الرغم من انك تسألنى الا أحدثك عن كتبك ، فانه لا يسعنى الا أن أصارحك القول بأننى لم أسخر منك قط ، لا كثيرا ولا قليلا .. اننى أحب بعض مؤلفاتك ، ولا أعجب بالبعض الآخر ، ولكن فيم السخرية ؟ .. لقد كنت أعتقد أنك تخلصت من هذا الشعور الصبيانى منذ زمن بعيد ! »

وليس هناك ما هو أدعى الى الأسف حقا من قيام عداء بين روحين عظيمتين ، خلقتا لتجل أحداهما الاخرى وتقدرها وتحترمها ، فاذا بهما تتخاصمان مدى الحياة ، وتنتصبان احداهما فى وجه الاخرى كفارسين مقنعين لا يستطيعان رفع قناعيهما ، رغم أن كل ذلك قد يكون راجعا الى هفوة بسيطة أو مجرد شعور طبيعى !

وانه لمن السهل على المرء أن يتصور كيف كانت الاعمال الصغيرة التى يأتيها تورجنييف ، تثير ثائرة تولستوى وتغضبه .. فقد حدث فى عام ١٨٨٠ ، أن وجد تورجنييف فى (ياسنايا بوليانا) زمرة من الشبان سرعان ما عرف كيف يجتذبهم ويستميلهم اليه بطرائفه والاعيبه ، نتيجة لما اكتسبه من خبرة وبراعة فى مسايرة الناس وارضائهم مدة اقامته عند مدام فياردو .. فضلا عن انه كان يحب دائما أن يفتن من حوله ويثير اعجابهم ! .. وفى احدى الليالى ، طلب الى كل من المدعوين ــ على سبيل التسلية وقضاء الوقت ــ أن يروى قصة امتع تجربة حب اجتازها فى حياته . والمعروف عن تورجنييف أنه من أقدر الناس على

رواية الطرائف وقل أن يبزه أحد فى هذا المضمار .. فانطلق يروى أنه أحب فتاة ، وظن أنها لا تبادله الحب ، ولكنه لاحظ فجأة – وهو يلقى عليها نظرة عابرة – أن أنظارها عالقة به ، فأدرك عندئذ أنها هى أيضا تبادله حبا بحب . فكانت ذكرى غرامه تلك ، من أعطر ذكرياته وأذكاها .. وما أن فرغ تورجنييف من سرد قصته ، حتى أخذ الفتيان والفتيات الحاضرون يتطلعون الى بعضهم بعضا ! .. وفى تلك الليلة نفسها ، انطلق تورجنييف يرقص مع طفلة لا تتجاوز الثانية عشرة من عمرها رقصة « الكانكان » ، وهى رقصة شاذة خليعة الحركات . وقد سجل تولستوى ذلك الحدث فى يومياته قائلا : « تورجنييف .. « كانكان » .. انه لأمر محزن !! » . وفى ليلة أخرى بلغ فيها عدد الجالسين الى مائدة الطعام ثلاثة عشر مدعوا ، قال تورجنييف : « على الذين يرهبون الموت ، ان يرفعوا أيديهم ! » ، ثم رفع هو يده . فذكر تولستوى هذه الليلة أيضا فى يومياته بقوله : « كيف لا يخشى تورجنييف أن يخشى الموت ؟ ! »

وقد بذل الرجلان جهودا صادقة فى سبيل اقرار الصلح والوئام بينهما ، ولكن فى غير جدوى .. وقد كان كل منهما يعرف ويعترف لصاحبه بأنه كاتب عظيم ، بيد انهما كانا على طرفى نقيض .. فما كان يجده أحدهما عظيما قيما ، يعده الآخر تافها سخيفا ، حتى لقد كان تورجنييف يعارض معارضة شديدة مذهب تولستوى فى الادب . ومع انه لم يكن يؤمن فى حياته الا بالفن ، فانه لم يستطع ان يفهم مؤلف كتاب « ما هو الفن ؟ » .. وقد كتب الى الناقد الكبير « بولونسكى » فى هذا الصدد يقول : « اننى أرثى لتولستوى .. ومع ذلك ، فلكل انسان طريقته فى قتل براغيثه !! » . وقال مرة أخرى بشأن اعترافات تولستوى : « انها رائعة

وعظيمة حقا بما تنطوى عليه نبراتها من صدق وأمانة وقوة حجة ، ولكن مبادئها خاطئة ، اذ تؤدى بنا فى النهاية الى انكار كل حياة عاملة وانسانية انكارا تاما .. انها بمعنى آخر نوع من العدمية ! »

٢٢ - « ماريا سافينا »

فى أثناء اقامة تورجنييف فى (ياسنابوليانا) ، خلال عام ١٨٨٠ ، قال للكونتيسة تولستوى انه قد كف عن الكتابة لان قلبه لم يعد ينبض بالحب ، وانه يستحيل عليه أن يخط سطرا واحدا طالما هو محروم من العاطفة التى تملأ كيانه وتهز نفسه .. وليس من شك فى ان مدام فياردو كانت حتى تلك الفترة تحتفظ بسيطرتها كاملة عليه ، بدليل انه كان يسر فجأة الى أصدقائه ، فى تلك اللحظات التى كان يبدو فيها شديد البهجة والسرور باقامته فى روسيا ، قائلا : « اذا دعتنى مدام فياردو فى هذه اللحظة ، فلا مندوحة لى من تلبية دعوتها ! » .. ولطالما كان يستنكر - مع ذلك - تلك الحياة التى يقضيها مع زوجة رجل آخر ، حتى لقد كان يدعو الشبان - فيما مضى - الى مقاطعة الزواج ، ولكن اذا به اليوم يقول لهم : « تزوجوا .. لانكم لا تستطيعون أن تتصوروا مدى قسوة الشيخوخة ، عندما يتحتم عليكم على الرغم منكم أن تمعنوا فى خداع رجل آخر ، فتتلقوا الابتسامة كأنها صدقة ، وتعيشوا كالكلب الهرم الذى يود سيده أن يطرده لولا دافع العادة والشفقة ! . »

وعلى الرغم مما كان تورجنييف يكنه من حب عميق لمدام فياردو ، فقد استرعت نساء اخريات اهتمامه وأثارت شغفه ، فى المدة الاخيرة التى قضاها فى روسيا ، حيث جمعته بهن أواصر وثيقة قوية .. ولكن أتراها كانت أواصر الحب ؟



الممثلة « ماريا سافينا » ، صديقـة ترجنيف فى شيخوخته

.. ربما ، اذ لكلمة الحب اكثر من معنى ، وان تكن عواطف تورجنييف قد ظلت دائما تتأرجح بين الشهوة والصداقة ، حتى لقد كان كثيرا ما يحدث صديقاته الجميلات عن ايديهن وما تثيره فى نفسه من حب واعجاب .. فقد كتب ذات مرة الى « البارونة فريفسكى » يقول : « **اننى أود أن أقضى بجوارك بضع ساعات اتناول خلالها الشاى ، واتطلع الى النقوش التى ترتسم على زجاج النافذة ، وقد غشته سحابة رقيقة من الجليد ، أو بالاحرى ان أحدق فى عينيك الجميلتين الساحرتين ، وألثم من وقت الى آخر أنامل يديك الناعمتين ، فلكم أعبد هاتين اليدين !** » .. وبعد ذلك بفترة وجيزة ، عاد يكتب اليها يقول : « اننى لأشعر بالشيخوخة تسرى فى كيانى ، وليس فى ذلك ما يدعو الى الغبطة ، بل فيه ما يبعث على الكآبه والحزن ! .. واننى أرجو من صميم قلبى — قبل أن ينتهى كل شىء — أن أتمكن مرة أخرى من أن انطلق الى الفضاء .. فهل لك أن تساعدينى ؟ .. » ولكن اتراه كان يرجو حقا مغادرة أرض الصداقة الصلبة ؟ .. لقد مضى يقول لها فى خطابه : « لقد أحببتك كصديقة عند لقائك للمرة الاولى ، وشعرت اذ ذاك برغبة ملحة فى الاستمتاع بك ، ولكن زهرة حياتى كانت قد ذبلت ، وبت على أعتاب الشيخوخة ، وانطفأ ما كان يضطرم فى قلبى من حماس وفى جسمى من قوة ، فلم يكن دافع الرغبة من القوة بحيث يحملنى على طلب يدك للزواج ! .. ورغم انه كانت هناك أسباب تعترض سبيلى فى ذلك الوقت، فقد كنت أعرف حق المعرفة انك لن تقبلى أبدا ما يسميه الفرنسيون « بالمهزلة » ، ولعل هذا ما يفسر سلوكى ! . »

وقد كان مسلك تورجنييف نحو « البارونة فريفسكى » وهو فى الستين من عمره ، أشبه بمسلكه نحو « تاسيانا »

ـ شقيقة صديقه باكونين ـ وهو شاب يافع لم يتجاوز العشرين ربيعا ! .. وقد شاءت الاقدار لهذا الفنان العظيم ، الذى خلد الحب العاطفى فى رواياته ، أن يقع فى شرك حب جديد ، ولكن على طريقته المعهودة ! .. وغير خفى ، أن بين الشيخوخة والشباب وجوه تشابه عديدة ، اذ عندما ينشأ المرء خياليا فى طفولته ، فانه يظل على حاله الى النهاية ، ومن هنا تمتاز غراميات الشيوخ وغراميات الشباب بذلك السحر المقرون بالأسى الذى يخلعه عليها الحياء والخجل !..

ففى عام ١٨٧٩ ، خيل الي تورجنييف أنه اكتشف فى روسيا « بولين فياردو » جديدة ، فى شخص ممثلة مجهولة تدعى « ماريا سافينا » ، وكانت فتاة تقوم اذ ذاك بتمثيل أدوار ثانوية فى مسرحيته الهزلية « شهر فى الريف » . ولكنها سرعان ما استطاعت ، بما اوتيته من موهبة عظيمة ومقدرة فائقة على التمثيل ، أن تبرز فى جميع ما أسند اليها من أدوار ، فاذا بها تسترعى اهتمام المؤلف ، وتظفر باعجابه ، فأقبل يخطب ودها ويتقرب اليها ، وان هى الا فترة وجيزة ، حتى نشأت بينهما أواصر صلة وطيدة .. على ان تورجنييف لم يكن يرى فيها مجرد امرأة جميلة ساحرة ، وانما كان يعتبرها أيضا فنانة موهوبة على جانب عظيم من الفطنة ورقة الشعور . وكان مايختلج عندئذ فى أعماق قلبه من مشاعر نحوها ، يشبه ذلك الاحساس الذى تملكه عندما تعرف الى مدام فياردو ! .. وكانت سافينا ـ شأن مدام فياردو ـ فنانة ساحرة تعرف كيف تلهب حماس الجمهور ، فكان تورجنييف لاينفك يقول لها : « مهلا ، يا صديقتى ، أرجو أن تظل صورتك مطبوعة دائما فى ذاكرتى ، كما أراها فى هذه اللحظة ! » .. وراح يبثها أحلامه ، ويحدثها عن مشروعاته ، ويكاشفها بآرائه الصريحة فى معاصريه من الادباء

والكتاب . وكانت « ماريا » خير من يفهم عواطفه وأفكاره على حقيقتها ، اذ كانت روسية مثله ، فضلا عن أنها كانت تمتاز على مدام فياردو بسحر الشباب ونضارته ، فقدكانت فى الخامسة والعشرين من عمرها ، عندما وقفت على خشبة المسرح ـ لاول مرة ـ لتمثيل مسرحية « شهر فى الريف » . وقد التقى بها تورجنييف ـ على حد قوله ـ فى الوقت الذى تصافى فيه الجمهور الروسى معه ، وصفح عنه ، وأحاطه من الحفاوة والتكريم ما بعث فيه روح الشباب ، ورد اليه شجاعته المفقودة .. وكان يتساءل اذ ذاك قائلا : « ترى هل تنبت فى جذوع هذه الشجرة اليابسة ، براعم جديدة ؟ .. لقد غمرت النساء الجميلات، بعطفهن وحنانهن ، قلبى الهرم ، فاسترد تحت لمساتهن الناعمة لونه الاحمر الارجوانى الذى ذوى منذ زمن بعيد ، فاشتعل فيه ما انطفأ من نار الشباب وحماسته .. » . وقد كتب مرة الى « سافينا » ، اذ فارقها ، يقول : « اننى أحس الآن انك احتللت فى حياتى مكانة لم يشغل مثلها غيرك .. وهذا مايجعلنى أفكر فيك كثيرا بل أكثر مما يجب .. اننى أحبك ! »

وقد دعاها تورجنييف ذات مرة ، الى قضاء بضعة أيام فى (سباسكوى) ، اذ كان العمل يدعوها الى السفر من بطرسبرج الى أوديسا فى جولة مسرحية تمر فى طريقها بسباسكوى. ولكنها رفضت دعوته، واكتفت بأن أذنت له أن يصحبها حتى (اوريول) ، فى المقصورة التى أعدت لها فى عربة السكة الحديدية. . وهناك غادرها ، ولم يلبث أن كتب اليها فى اليوم التالى قائلا : « عزيزتى ماريا جافريلوفنا سافينا .. لقد انقضت على عودتى ساعة ونصف الساعة. . أما الليلة التى أمضيتها فى أوريول، فكانت ليلة ممتعة ، لأننى لم أنشغل فيها الا بالتفكير فيك ، ولكنها كانت مضنية ايضا ، لاننى

نشدت فيها الكرى ، فلم أعرف اليه سبيلا .. وحين كنت ليلة أمس تطلين من نافذة القطار المفتوحة ، وأنا واقف أمامك خاشعا صامتا ، أحسست برغبة ملحة فى اختطافك ، ولكنى اصغيت – فى اللحظة الاخيرة – الى صوت العقل والحكمة .. وخيرا فعلت ، والا لاصبحت مضغة فى افواه الصحف ، ولك ان تتصورى ما كانت ستنشره عنى .. **واننى لأكاد أتخيل مقالا منشورا فى احدى صفحاتها تحت عنوان « فضيحه فى محطة اوريول » ، ويجرى على النحو التالى : « وقع أمس حادث من أغرب الحوادث واشدها مدعاة للدهشة والعجب .. اذ بينما كان الكاتب « ت.. » ، وهو شيخ طاعن فى السن ، واقفا على افريز المحطة ، يودع الممثلة الشهيرة « س .. » قبيل سفرها الى اوديسا حيث دعيت لاحياء سلسلة من الحفلات المسرحية الرائعة ، اذا به ينقض عليها عند تحرك القطار ، وينتزعها فجأة من النافذة وكأن به مسا من الشيطان ! .. الخ .. الخ .. » فيا للفضيحة ، ويا للضجة التى كانت ستثور اذ ذاك فى روسيا ! .. ومع ذلك ، فقد كنت على وشك الاقدام على مثل هذا العمل الطائش الذى كثيرا مايرتكب المرء مثله فى الحياة ! » .**

وفى الايام التى تلت رحيلها ، لم يكن يتردد فى أعماق نفسه سوى صدى نغمة واحدة .. كان يشعر بأن الساعة التى قضاها فى ذلك القطار ، وأحس خلالها انه عاد شابا يافعا فى العشرين من عمره ، كانت بمثابة آخر وميض ينبعث من مصباح شبابه ، وأن الباب الموارب الذى يخفى وراءه شيئا عجيبا غامضا ، قد أوصد الى الابد !

وفى السنة التالية ، قبلت سافينا – لانحراف صحتها – أن تقضى بعض الوقت فى (سباسكوى) . فاحتفل تورجنييف بيوم مقدمها ايما احتفال ، وكان فى الوقت الذى يطالع فيه لضيوفه مقطوعاته الشعرية ، ويتنزه معهم فى الغابة للاستماع الى أنغام الليل ، لايفوته ان يدرس ضيفته ويراقبها عن

كتب .. وقد كتب اليها فيما بعد يقول : « لقد عرفتك فى تلك الايام معرفة تامة ، مع كل ما تتميزين به من صفات وعيوب، فلم تسفر دراستى لك الا عن ازدياد تعلقى بك !.. وانك لتجدين فى صديقا مخلصا تستطيعين أن تثقى به كل الثقة .. »

على انه لم يكد يمضى شهر، حتى عقدت خطبة «سافينا»، فتحول حب تورجنييف – فى تلك المرة أيضا – الى نوع من الصداقة ، ومع ذلك فقد كتب اليها بعد شهرين يقول : « هلا تصورت هذا المنظر الرائع .. البندقية فى شهر أكتوبر .. غريبان جالسان فى جندول ، احدهما عملاق ثقيل الحركات ، اشيب الشعر ، ضخم القدمين ، ولكنه سعيد للغاية ، والآخر امرأة فتية ذات شعر أسود وعينين سوداوين ساحرتين ، ولنفترض انها كانت تحس هى الاخرى بسعادة غامرة .. وانهما ليزوران معا الكنائس والمعالم الاثرية ، ثم يتناولان طعام العشاء ، ويذهبان فى المساء الى المسرح . ثم .. ولكن هنا تقف مخيلتى فى احترام .. » وقد ختم خطابه – كعادته – بالحديث عن اليد ، فقال : « اننى لم أعرف قط يدا بلذ تقبيلها مثل يدك ! »

٢٣ – تورجنييف ، وفلوبير ، ودوديه ، وزولا

لم تكن غراميات تورجنييف فى روسيا لتستطيع أن تلعب الا دورا ثانويا فى حياته ، بعد ان انتقل مقر عائلته نهائيا الى فيلا (لى فرين) ببوجيفال ، ومنزل (دويه) رقم ٤٨ بباريس .. وكان لايفتأ يقول : « اننى لو خيرت بين ان أصبح أعظم عباقرة العالم على الا ارى آل « فياردو » ، وبين أن أصبح بوابا فى أقصى طرف من أطراف العالم ، لاخترت أن أكون بوابا ! »

وانه لمن الميسور على المرء أن يتصور السنوات العشر

التى قضاها تورجنييف فى باريس ، فى بيئة «جورج صاند» ، و «فلوبير» ، والشقيقين «جونكور» ، و « ألفونس دوديه » ، و « زولا » ، و « موباسان » الناشىء ! .. لقد كان يعجب بجورج صاند اعجابا شديدا نظرا للأثر الذى تركته فى نفسه وهو فى شرخ الشباب ، ولكنه سرعان ما تبين ـ بعد أن تقدمت به السن ـ أن صورة العالم التى رسمتها له ، كانت غامضة نوعا ما ، بيد أنه ظل مع ذلك مدينا لها بالحقيقة غير الكاملة التى وجدت وستجد دائما من يتعلق بها فى تلك السن التى يستحيل فيها بلوغ الحقيقة الكاملة ! على أن علاقته بفلوبير كانت أشد توثقا . اذ ما ان تعرف اليه فى عام ١٨٥٨ ، حتى صارا صديقين حميمين ، ازدادت العلاقة بينهما توطدا على مر الزمن . ويقول الفونس دوديه : « كانت هناك رابطة ، وانسجام رقيق ساذج بين هاتين الطبيعتين العبقريتين اللتين جمعت بينهما جورج صاند وشدتهما احداهما الى الاخرى ! .. **فقد كان فلوبير الكثير الدعابة ، والناقد اللاذع ، و الـ « دون كيشوت » ، يمثل بصوته الجهورى الأجش ، ودقة ملاحظته الساخرة ، وما يبدو على مشيته الثابتة وحركاته العنيفة من مظهر النورمنديين الغزاة ، العنصر القوى فى تلك الرابطة الروحية** .. ولكن منذا الذى كان يستطيع أن يتوقع أن ذلك العملاق الآخر انما يحمل بين جنبى هيكله الهائل الضخم ، نفس امرأة كتلك المرأة الرقيقة المشاعر التى وصفها تورجنييف فى مؤلفاته .. تلك الروسية العصبية المزاج ، المسترخية ، الملتهبة الحواس ، الرهيبة كالقوة الثائرة ؟! .. ولكن يبدو أن الارواح تخطىء غالبا ـ وسط ضجيج مصنع البشرية الهائل ـ فى أختيار هياكلها ، فتحل أرواح الرجال فى هياكل النساء ، وتحل أرواح النساء فى هياكل

العمالقة الجبابرة !!

وكان الاديبان الكبيران يبديان نفس الاهتمام بكمال الاسلوب ، مع الفارق أن تورجنييف كان أشد ميلا الى البساطة من فلوبير .. وقد قال اسكندر توماس : **« أن فلوبير عملاق يقطع أشجار الغابات ليصنع منها عيدانا من الكبريت، أما تورجنييف فانه يحول أشجاره الى ألواح رفيعة بيضاء ليشيد بها منازل من الخشب بحجم الانسان ! »** ..

لكن احترامهما للفن مالبث أن قرب بينهما وعزز صداقتهما . وكان فلوبير — الذى كان يلقب تورجنييف « بالمسكوفى الطيب » — يعتبره من خيرة المستشارين فى الادب وأقدرهم ! وقد كتب عنه ذات مرة يقول :

« لقد قضيت أمس مع تورجنييف يوما من أمتع أيام حياتى ، اذ تلوت على مسامعه الصفحات المائة والخمسين التى الفتها من كتاب « القديس انطوان » . وبعد ذلك قرأت عليه ما يقرب من نصف كتاب « الاغانى الاخيرة » .. فياله من مستمع ، وياله من ناقد ! .. لقد بهرنى بسداد رأيه وفطنته .. آه .. ترى أى درس من الممكن أن يأخذه على يده ، جميع الذين يدعون النقد ، لو انه أتيح لهم الاستماع اليه ؟!.. انه يلاحظ كل كبيرة وصغيرة ولا يدع شيئا واحد يفلت منه .. وهو لاينسى أبدا — بعد استماعه الى قصيدة مؤلفة من مائة بيت — كلمة نابية او نعتا فى غير محله .. وقد أسدى الى بشأن كتاب « القديس انطوان » نصيحتين أو ثلاثا من أدق النصائح وأكثرها قيمة ! »

وعلى أثر انتهاء الحرب السبعينيه ، راح تورجنييف يزور كل يوم أحد صديقه فلوبير . وكان هذا الاخير يستقبل أصدقاءه فى منزله « ببارك مونسو » فى باريس ، وهو يلبس عباءة ويضع على رأسه طربوشا مغربيا . وكان تورجنييف

يأتى كل مرة متأبطا أحد مؤلفات «جوته» أو «سوينبورن»، فيترجم لاصدقائه جانبا منها عن ظهر قلب.. على ان فلوبير ما لبث ان ترك منزله الى مسكن آخر بضاحية (سان اونوريه) حيث استؤنفت المجالس الادبية . ويقول «هنرى جيمس » الذى كان يتردد على تلك المجالس من وقت لآخر: **« كان الحديث فيها يتناول أسلوب الكتابة بوجه خاص ، وكان جميع الحاضرين يعتقدون ان الفن والاخلاق شيئان متباينان تماما ، وان أهم ما فى الرواية الاسلوب ! .. »**

وقد أعرب فلوبير فى أحد الايام لمدام جورج صاند عن أسفه لعدم اتفاقه معأصدقائه على أسلوب جديد منأساليب النثر الفرنسى ، كان قد راق له وشغف به ، فقال :

« أن التفاهم معهم امر عسير ! .. وهناك رجلان أحبهما حبا جما واعتبرهما فنانين بكل ما فى هذه الكلمة من معنى ، وهما تورجنييف وزولا . ومع ذلك ، فانهما لايتذوقان البتة نثر « شاتوبريان » ولا « جوته » .. ان العبارات التى تسحرنى ، تبدو فى نظرهما جوفاء . فأينا على صواب ؟.. ولكن كيف يتسنى لى بعد ذلك أن أنال اعجاب الجمهور ، بينما أقرب المقربين الى بعيدون عنى ؟ ! .. ان كل ذلك يبعث الاسى فى نفسى .. لكن بالله عليك .. لا تسخرى ! »

وعندما كان الكاتبان يجتمعان ، كان تورجنييف هو الذى يتكلم غالبا ، بينما كان فلوبير ينصت اليه فى احترام وانتباه بالغين.. وقد وصف موباسان «فلوبير» بقوله : « انه ينصت الى تورجنييف فيما يشبه التدين ، ويحدق فيه بعينيه الواسعتين الزرقاوين ذات الجفون المتحركة ؛ ويرد على ذلك الصوت الناعم العذب بصوت جهورى ينطلق كالنفير تحت شاربيه اللذين يشبهان شاربى المحارب المغولى القديم ! »

على أن هذا الاختلاف الهين فى الذوق، ماكان ليقطع حبل

الود بين الاديبين اللذين كانت تجمع بينهما روابط قوية أخرى .. فقد كان كلاهما يميل الى الشعر .. وقلما كانا يفكران فى المستقبل ويعدان عدتهما له ، فضلا عن أنهما كانا يسعيان الى غرض واحد هو الادب ! **وقد كانت لهما كذلك نفس الفلسفة ، ونفس التشامخ والانفة أمام عالم يناصبهما العداء ، ونفس الترفع عن الابتذال ونفس النزعة الرومانتيكية .**
وقد كان لفلوبير الفضل الاكبر فى توثيق عرى الصداقة بين تورجنييف والكتاب الفرنسيين الآخرين فى ذلك العهد . ففى عام ١٨٧٢ دعاه فلوبير الى تناول طعام العشاء مع « تيوفيل جوتييه » ، و « ادمون دى جونكور » . وقد وصف هذا الاخير تورجنييف الشيخ بقوله : « تورجنييف .. ذلك العملاق الرقيق ، والهمجى الظريف .. لقد سحرنا منذ أول ملعقة حساء ارتشفناها ، بشعره الابيض الغزير المتهدل على عينيه ، والخط العميق الذى يشق جبينه من أحد صدغيه الى الآخر كأنه خط محراث ، ثم بحديثه الصبيانى وبما يمتزج فى نفسه من سذاجة ورقة هما سحر العنصر الصقلبى ، وهو سحر يمتاز عنده بطابع شخصى غريب ، وعلم غزير ، ومعلومات عامة ، وأفق واسع .. »

وقد أقيمت ندوات أخرى ، ثم سرعان ما انضمت مدام جورج صاند الى حلقة الاصدقاء ، وكانت عندئذ تزداد شبها بالمومياء ، ولكنها كانت تفيض سذاجة ورقة ومرحا !.. ووقعت الندوات من نفس فلوبير موقع الاستحسان ، وراقت له كثيرا . فاقترح اقامتها فى كل شهر . وفى اليوم الرابع عشر من شهر ابريل ، أقيمت فى مطعم (كافيه ريش) الندوة الاولى بحضور أربعة من المدعوين لم يفرق بينهم الا الموت وهم : فلوبير وتورجنييف وزولا والفونس دوديه .

ولم يكن زولا بالرجل الذى يعجب تورجنييف . فان

مرارته وشكواه المستمرة من ذلك الحجر الذى يقول انه فرض على مؤلفاته ، كانت تدهش رجلا أكبر منه سنا ارتضى للظلم ورضخ له ، واعتبره من مقتضيات تطاحن الكائنات فى سبيل البقاء ! .. والى جانب ذلك ، لم يكن تورجنييف يحب فن زميله ويتذوقه ، وقد كتب الى فلوبير فى هذا الصدد يقول : « لقد قرأت قصة لزولا واننى لأرثى له .. أجل . انه لايثير فى نفسى غير الاشفاق ، وأخشى الا يكون قد قرأ شيئا لشكسبير . وهذا فراغ يستحيل عليه ملؤه .. » وكان من رأى تورجنييف وفلوبير ، أن الكتاب الناشئين من أمثال زولا ، فى حاجة الى قليل من الشعر فى التعبير ، وسلاسة فى الاسلوب !

على انه غالبا ما كانت تخيم على محافلهم الادبية سحابة من الكآبة والحزن .. فكان « تيوفيل جوتييه » يردد : « انى أشعر بأنى أصبحت فى عداد الاموات ! » . فاذا بتورجنييف يهتف : « أما أنا ، فأحس احساسا آخر .. انكم ولا شك تعرفون المسك حين تنتشر رائحته فى البيت ، ثم لاتلبث أن تملأ الخياشيم وتظل عالقة بها زمنا طويلا .. وهاأنذا أشم دائما حولى رائحة الموت والفناء والانحلال !! » . وكانت رائحة الموت هذه تقض مضجعه ، وتثير الجزع فى نفسه ، حتى ان وفاة كل صديق حوله ، كانت تذكره بقرب أجله .. وقد كتب عقب وفاة جورج صاند يقول : « لقد تألمت أشد الالم لوفاة جورج صاند .. ياللمسكينة ! .. وياالقلبها الذهبى الذى كان يختلج فى صدرها طاهرا نقيا لا تشوبه شائبة ولا يلطخه أى شعور صغير أو حقير أو كاذب ! .. والآن قد استقر كل ذلك فى تلك الحفرة المظلمة البشعة التى فغرت فاهها وابتلعتها ، ويا ليتها علمت ما ابتلعت !.. ولكن

ما العمل ؟ .. ان علينا أن نشمخ برؤوسنا ، ونترفع عن الصغائر ! »

وفي عام ١٨٧٨ ، بلغ تورجنييف الستين من عمره ، فكتب يقول : « انها بداية النهاية ! .. فالحياة بعد الاربعين تنحصر في التخلي عن كل شيء وتصبح بعد الستين حربا دفاعية يخوض الانسان غمارها ضد الموت ! ». وفي أحد أيام ١٨٨٠ ، روى لاصدقائه أنه أصيب خلال الليل بنوبة قلبية ، شاهد خلالها على جدار الغرفة المواجه له بقعة كبيرة سوداء ، صورها له الكابوس الرابض فوق صدره وهو بين اليقظة والنوم ، انها ملاك الموت ! » . وفي تلك السنة بالذات ، قضى فلوبير نحبه فشيع الشقيقان جونكور ، ودوديه ، وزولا ، جثمانه حتى مقبرة روان ، وكانت تفوح في أرجائها رائحة الشجر الزكية .. اما تورجنييف ، فلم يشترك في تشييع الجنازة اذ كان يقوم وقتذاك باحدى رحلاته الاخيرة في روسيا ، حيث جلب لنفسه سخط الشعب الروسي ، على أثر ما اقترحه عليه من فتح اكتتاب لتشييد نصب تذكاري ، تخليدا لذكرى صديقه الراحل !

على ان الندوات الادبية ظلت تعقد في مواعيدها المألوفة ، وأن تكن الاحاديث فيها والمناقشات لم تتناول من الموضوعات غير الموت ! .. وفي ذلك يقول تورجنييف : « **لقد ألفت فكرة الموت ، ولكنني أقصيها بعيدا عني في كل مرة تطرأ على ذهني ، فتضمحل وتتلاشى ، اذ من نعم « الضباب الصقلبي » علينا نحن الروس ، أنه ينقذنا من منطق افكارنا ، ويحول بيننا وبين الاستمرار في طريق الاستدلال والاستنتاج الى النهاية !** »

٢٤ ـ الموت

ما ان حل عام ١٨٨٣ ، حتى بدأ المرض ينتاب تورجنييف ،

فأجريت له عملية جراحية لفتح خراج فى جسمه ، ولكن لما كان أديبا وفنانا قبل كل شىء ، فقد كتب الى دوديه يقول : « كنت أفكر فى أثناء العملية فى ندواتنا ، وأحاول أن أجد الكلمات الملائمة التى أستطيع بها ان اصف لك وصفا دقيقا تأثير مبضع الجراح وهو يشق جلدى ، متوغلا فى لحمى كأنه سكين لقطع الموز ! » . واذ راحت وطأة المرض تشتد عليه ، قرر الطبيب « شاركو » أنه مصاب بالذبحة الصدرية ، ثم أشار عليه بالتزام الفراش وعدم الحركة . واذ ذاك أطلق تورجنييف على نفسه اسم « بطريق الحيوانات الرخوة » ، وحاول أن يجد له عزاء فى فلسفة الاستسلام القائمة على ما يسميه « اليأس المريح » ، وقضى بعض وقته فى وضع طائفة من الحكم ، حتى يسير عليها من هم فى مثل حالته ، ومن هذه الحكم قوله : **« يجب قبل كل شىء التأمل فى الماضى ، وتلبية مقتضيات الحاضر والخضوع لها ، وعدم التفكير فى المستقبل .. ويجب ، كى نعيش فى سلام ، الا نباشر أى عمل أو حتى نقرر القيام به ، كما انه يتعين علينا الا نثق بأحد وألا نخشى شيئا .. وعلى كل حال ، ففيم الحركة ؟.. هل المحار تتحرك ؟ .. ومع ذلك فهو يعيش »** . على أنه سرعان ما تبين أن الذبحة الصدرية التى قيل انه مصاب بها ، لم تكن سوى سرطان فى نخاع السلسلة الفقرية ، وظل تورجنييف يعانى من مرضه آلاما مبرحة ، على الرغم مما كان يتناوله من أدوية ومسكنات .. فكان يقضى الليالى ساهدا ، محاولا ـ بما يتحلى به من صبر وجلد شديدين ـ أن يعمل بنصائح الفيلسوف شوبنهور الذى يأمر بأن يحاول المرء تحليل آلامه كى تخف وطأتها .. على انه كان ـ مع ذلك ـ يصرخ من شدة الالم ، فيستغيث بالموت تارة ، ويتوسل تارة اخرى الى مدام فياردو ان تقذف به من

النافذة . بيد انها كانت ترد عليه مازحة : « ولكنك ياعزيزى تورجنييف ، ضخم ثقيل للغاية .. ثم ان ذلك قد يضرك !! » فلم يكن يتمالك نفسه من الابتسام .. وعاش بعد ذلك ثلاثة شهور فى شبه غيبوبة . ثم ما لبث أن كتب الى الناقد انينكوف قائلا : « لقد كنت فى أعماق البحر ، حيث وقعت أنظارى على وحوش مخيفة شنيعة تلتف بعضها حول بعض .. انه مشهد لم يقدم أحد على وصفه لان أحدا لم يعش بعده ليصفه ! »

وما ان أدرك تورجنييف ان أيامه باتت معدودة ، حتى بدأ يهتم باعادة طبع مؤلفاته كاملة .. وقد كان يود لو دفن تحت قدمى أستاذه بوشكين ، بيد انه كان يعتقد فى قرارة نفسه انه لا يستحق هذا الشرف ! .. وقد أرسل اليه تولستوى خطابا يواسيه فيه قائلا : **« لقد كان لنبأ مرضك وقع أليم فى نفسى .. وعندما بلغنى ما وصلت اليه حالك من خطر ، أدركت مدى حبى لك وتعلقى بك ، وشعرت بأنك لو قضيت نحبك قبلى لمت حزنا وغما عليك .. »** . فرد عليه تورجنييف قائلا : « صديقى العزيز نقولايفيتش ، لم أكتب اليك من أمد بعيد ، لاننى كنت مريضا . والحق اننى الآن ارقد على فراش الموت .. اننى لن أشفى من مرضى أبدا ، ولا داعى للتفكير فى ذلك مطلقا .. اننى أكتب اليك لاعبر لك فقط عن مدى مايخالجنى من غبطة ، لاننى كنت فى أحد الايام من معاصريك ! .. وهاأنذا اتقدم اليك بآخر رجاء متوسلا اليك ان تستأنف أعمالك الادبية .. ولشدما أسر لو اننى كنت واثقا من أن خطابى سيؤثر فيك .. اننى عاجز عن الاكل والكلام والنوم ، ومجرد ذكر هذه الاشياء يرهقنى . فأتوسل اليك يا صديقى ، يا كاتب روسيا الاعظم ، ان تجيبنى الى رجائى . وأرجو ان تفيدنى باستلامك هذا

الخطاب ، واسمح لى بأن اضمك الى صدرى ، واقبلك للمرة الاخيرة ، انت وزوجك وجميع أفراد أسرتك .. لقد بلغ منى التعب والاعياء كل مبلغ .. فأرجو المعذرة ! »

وكانت سافينا الحسناء الساحرة تراسله أيضا .. وقد رد عليها يوما بقوله : « وقع خطابك فى نفسى الحزينة وحياتى الكئيبة وقع زهرة الورد فى نهر عكر .. لقد تخلت عنى شجاعتى ، وانى لا أحاول ان اتطلع الى المستقبل ، فأرجوك الا تسمحى لى بأن أداعب الحلم العذب .. برؤيتك مرة أخرى .. ياصديقتى العزيزة ، اننى لا اجرؤ على التفكير فى معنى كلماتك .. تذكرى من وقت لآخر مدى ما شعرت به من حزن لفراقك فى باريس !.. واننى واثق من انه لو قدر لنا أن نلتقى قبل ذلك فى الحياة .. ولكن ما الفائدة ؟ .. انى لاتطلع الآن الى نعشى .. الى مستقبل زاهر ! »

وقد كتب تورجنييف فى خاتمة أحدى رواياته يقول : **« كيف مرت الحياة بهذه السرعة ؟ .. وكيف أصبح الموت قريبا هكذا ؟ .. ان الموت لاشبه بصياد أوقع فى شبكته سمكة ، ثم تركها لحظة فى الماء .. فالسمكة تواصل التخبط فى الماء وسط الشبكة ، بينما الصياد قد يقبض عليها متى شاء ! »** .

وفى أثناء مرضه ، كان تورجنييف يقرض بعض الشعر المنثور ، ومن ذلك قوله : « هذه السماء الزرقاء الصافية الأديم .. وهذه السحب الناصعة البياض .. واريج هذه الازهار .. ورنة هذا الصوت العذب الحنون .. وجمال درر الفن الوضاء .. وابتسامة السعادة على ثغر الحسناء .. ولكن ما الفائدة ؟ .. ما الفائدة من ذلك كله ؟ .. ان مايلزمنى الآن هو ملعقة من هذا الدواء الكريه العقيم اتناولها كل ساعتين !! »

وقبل أن يقضى نحبه بخمسة عشر يوماً ، دعا مدام فياردو الى الاقتراب منه ، وطلب اليها ، والدموع تترقرق فى عينيه ، أن تكتب ماسيمليه عليها ثم قال : « انني اود ان اكتب قصة تدور فى رأسى » . فقالت : « املها على .. انني لا اكتب الروسية بسرعة ، ولكن أظن انك لو تذرعت بقليل من الصبر ، لوصلت الى نتيجه » . فأجابها : « كلا ، كلا ، انني لو امليت عليك بالروسية لوقفت عند كل كلمة أو عبارة لاختيار ألفاظى .. انني أريد أن املى عليك القصة بجميع اللغات التى يعرفها كلانا ، مستخدما العبارات التى ترد عفوا على ذهنى » ..

ولقد فعل .. أما القصة فكانت قصة نبيل روسى فاسد عنوانها « خاتمة » ..

وما لبث المرض ان بلغ من تورجنييف كل مبلغ حتى أصبح فى حالة هزال وضعف شديدين . وكان يقول : «وأنى للمرء أن يعيش وله قدمان كأرجل الجراد ؟ » . وقدتساءل يوما فى احدى قصائده النثرية قائلا : « ترى .. فيم سأفكر وانا على فراش الموت ؟ » . ولكنه مات فى غمرة الهلوثة والهذيان ، اذ راح يصيح : « أنظروا .. يا للغرابة ! .. ان ساقى معلقة هناك فى الزاوية .. والغرفة ملأى بالنعوش » ومع ان جميع الواقفين حوله كانوا من الفرنسيين ، الا انه طفق يتكلم بالروسية ويردد أشعارا . لعل أستاذه «بابورين» قد لقنه اياها فى صباه على ضفاف البحيرة الرقراقة تحت أغصان الصفصاف ، ولعله قد خيل اليه أنه يشم رائحة الكتان والقمح تنبعث من سهول روسيا التى طالما أحبها فى صباه ..

وأفاق فى لحظاته الاخيرة من غيبوبته ، وعاد اليه صفاء ذهنه ، فقال : « اقتربوا .. لقد أزفت ساعة الفراق ! » ..

ثم نظر الى مدام فياردو وقال : « ها هى ذى ملكة الملكات ، وكم لها من أياد بيضاء على الانسانية ! »

ولم يكن يتألم اذ ذاك ، بل راح ينطفىء رويدا رويدا ، وبعد أن انتفض مرتين كالطير الجريح ، لفظ آخر أنفاسه .. وفى اليوم التالى لوفاته ، بدا جبينه مقطبا تحت تأثير اختلاجات الموت . على ان وجهه سرعان ما استرد مسحته الطيبة المألوفة ، حتى لقد كان أصدقاؤه يتصورون أنهم سيرون شفتيه تنفرجان مرة أخرى عن ابتسامة الارتياح والرضا !

وقد جمعت الحفلة الدينية حول نعش تورجنييف ، جموعا غفيرة من العمالقة الروس المقيمين فى باريس ، وقد اكفهرت وجوههم وتجهمت حزنا على الصديق الراحل .. وجاءت كثيرات من المعجبات به من مختلف البلدان لتوديعه الوداع الاخير .

وكان اصدقاؤه الكتاب يسيرون خلف نعشه الى المحطة وقد عادت الى ذاكرتهم الاقاصيص التى كان يقصها عليهم فى اجتماعاتهم حول مائدة فلوبير ، تلك الاقاصيص التى كان يخال « أنها تخرج من جوف سحابة كثيفة دكناء ثم لاتلبث أن تستحوذ على القلوب والمشاعر ! » .

ونقل الجثمان الى روسيا بعد أن أبن « رينان » الفقيد فى المحطة . وقد كانت جنازته فى روسيا انتصارا لم ير مثله أديب منذ عهد بوشكين ، اذ رافقته جماهير لا تحصى حتى مقره الاخير . وقد وجه حزب الارهاب نداء لتكريمه ، ووضع المعتقلون السياسيون فى مختلف سجون روسيا على قبره أكاليل الازهار وهى تحمل العبارة الآتية : **« من قبل الموتى الى الخالد »** . وهكذا خضعت تلك الشبيبة التى طالما عكر ارتيابها فيه صفو حياته ، وأولت جثمانه فى النهاية من

الاحتـرام والتبجيل ما هو خليق بأن تهتز له جوانح فنـان عظيم على قيد الحياة ! .. ولكن يبدو أن الموت هو وحـده الكفيل بأن يحمل الناس على الاعتراف بالعبقرية وتكريمها !

وبعد خمسة وعشرين عاما من وفاة تورجنييف ، أنشـأ معهد العلوم فى (بطرسبرج) معرضا لمخلفات تورجنييف ، جمعت فيه مختلف الاشياء البسيطة التافهة التى نحـاول بواسطتها عبثـا أن نحيى ذكرى العظمـاء من الراحلين ..

ولقد ضم المعرض كل شيء .. من مفكرة « فافارا بتروفنا » التى حوت تلك العبارة : « ١٨ اكتوبر سنة ١٨١٨ ميلادالابن أيفان » ، الى مكتب سباسكوى الشهير تعلوه بندقية الصيد ..وسرعانما لاحظ الحراس وجود باقة من الازهار الناضرة أمام صورة تورجنييف ، وضعتها سيدة عجوز راحت تعاود الكرة كل يوم .. كانت تلك المرأة هى « ماريا جافريلوفنـا سافينا » ؛ ولا شك فى أنه لم يكن هناك ما يسر له تورجنييف ويرتاح اليه ، خير من تلك الازهار اليـانعة النـاعمة التى تضعها أنامل صديقة وفية !

عزيزى القارىء ..

والآن ، بعد أن قرأت سيرة حياة « ترجنيف » كما أبدع فى تحليلها « أندريه موروا » ، تعال نقرأ معا هذه « الترجمة الكاملة » للقصـة الطويلة « ميـاه الربيع » ـ أو سـيول الربيع » ـ وهى القصـة التى قرر مؤلفهـا ترجنيف عند نشرها انها .. واقعية .. تصور غراما «عاشه» هو بالفعل ، كما أسلفت لك القول فى افتتاحية هذا الكتاب :

مياه الربيع

(أغنية روسية قديمة)
أيتهـا السنون الفرحـة
أيتهـا الايام السـعيدة
ما كان أشـبه جرياتك
بجريان ميـاه الربيـع

- ١ -

فى نحو الساعة الثانية من الصباح ، عاد « سـانين » الى غرفته . فما أن أشعل خادمه الشموع حتى صرفه ، وارتمى على مقعد قرب المدفأة ، ودفن وجهه فى يديه . انه لم يشعر فى حياته يوما بما يشعر به الآن من أعياء ، جسمى ونفسى .. لقد عاد من سهرة قضاها مع نسـاء لطيفات ورجـال مثقفين . كان بعض هاته النساء على حظ وافر من الجمال ، وكان جميـع الرجـال تقريبا على جـانب كبير من الذكاء والموهبة . وقد وفق هو نفسـه فى الحديث ، بل لقـد لمع نجمه . ومع ذلك لم يشعر فى حياته يوما بما يشعر به الآن من السأم ، الذى تحدث عنه الرومانيون فى سالف الازمان ، **لم يشعر فى حياته يوما بما يشعر به الآن من « اشمئزاز من الحياة» ، وهو شعور ملك عليه نفسه ، واستبد به استبدادا !**

لو أنه كان أصغر سنا ، لبـكى من شدة القلق والضـجر والاضطراب . ان مرارة لاذعة كاوية تنفذ الى أعماق نفسه كأنها العلقم مذاقا .. ان شـعورا بالغثيـان والألم يخنقه خنقا ويلفعه بضباب كضباب ليل الخريف ، يحيط به من كل جانب . وهو لا يعرف كيف يتخلص من هذا الظلام ، ولا من

هذه المرارة .. وهو لا ينتظر أن يخفف النوم عنه وطأة هذا العذاب ، فهو يعرف أنه لن ينام !

وأخذ يفكر .. أخذ يفكر تفكيرا كسولا ، ثقيلا ، خبيثا ، فكر فى غرور الانسان ، وسخفه ، وتفاهته ، وزيفه .. واستعرض جميع الاعمار ، فلم يستثن منها عمرا (لقد دلف هو الى الثانية والخمسين من عمره) . ان الانسان ليظل طوال حياته يجهد نفسه فى فراغ ، يضرب الماء بعصا ، يكذب على نفسه ، صادقا نصف صدق ، واعيا نصف وعى . ثم تهبط الشيخوخة على الرأس فجأة كأنها الثلج..ومع هبوط الشيخوخة يدلف الخوف من الموت ، وما ينفك هذا الخوف يشتد ، وما ينفك ينهش ويفترس ويضنى .. الى أن يثب المرء الى الهاوية !

والمحظوظون هم الذين تنقضى حياتهم على هذا النحو .. فسعيد ذلك الذى يبلغ النهاية ، قبل أن يرى الأمراض والآلام تعلوه كما يعلو الحديد الصدأ ! .. ان الحياة لا تبدو لـ « سانين » بحرا متلاطم الامواج ، كما يصورها الشعراء ، بل محيطا هادئا لا يعكره شىء ، ساكنا شفافا حتى أعمق أعماقه المظلمة .. وهو يتصور نفسه جالسا فى مركب مترنح ، يرى هناك ــ فىذلك القاع المظلم ذى الحمأ ــ حيتانا ضخمة وغيلانا شوهاء ، هى شرور الحياة .. هى الأمراض ، والآلام ، والجنون ، والشقاء ، والعمى !

وانه لينظر فيرى غولا من هذه الفيلان يخرج من الأعماق ، ويظهر على سطح الماء ، فتتضح معالمه ، ويصبح فى الوقت نفسه أشد نكرا وهولا . دقيقة واحدة ، ثم يقلب الغول المركب !

.. لكن الغول يختفى ، يبتعد ، يعود الى قاع البحر ،

ويتلبد فيه .. فيدور الماء حوله .. ولكن ساعته آتية .. لسوف يقلب المركب !

هز سانين رأسه ، واندفع ينهض عن مقعده . وسار فى الغرفة جيئة وذهابا ، ثم جلس الى مكتبه ، ففتح أدراجه واحدا بعد آخر ، وأخذ ينبش أوراقه ، وخاصة الرسائل القديمة التى وصلت اليه من نساء .. انه لا يعرف ، هو نفسه ، لماذا يحرك هذه الادراج . انه لا يبحث عن شىء . كل ما يريده هو أن يشغل نفسه بأمر من الأمور ، تخلصا من هذه الافكار التى تعذبه .

وبعد أن فض عددا من هذه الرسائل ، عرضا ، وقد وجد فى احداها زهرة جافة ذهب لونها ، هز كتفيه ، ونظر الى الموقد ، ووضع الرسائل جانبا ، وهو ينوى أن يحرق — عاجلا أو آجلا — هذه الوريقات التى لا طائل تحتها .. ومر بيديه على جميع الأدراج بسرعة ، فاذا هو يحملق على حين فجأة ، **ويخرج ببطء علبة صغيرة ، ثمانية الشكل ، من طراز قديم ، ثم يرفع غطاءها ببطء .. كان فى العلبة ، بين طبقتين من القطن المصفر اللون ، صليب صغير من عقيق !**

ونظر سانين الى هذا الصليب دهشا ، بضع لحظات ، ثم اذا هو يتنهد على حين فجأة .. ان قسمات وجهه تعبر عن الحسرة والفرح معا ! .. كان المعنى الذى ظهر على وجهه أشبه بالمعنى الذى يظهر على وجه انسان يلقى على حين فجأة صديقا لم يره منذ مدة طويلة ، ولكنه أحبه حبا رقيقا ، فاذا هو يظهر له بغتة ، كما كان فى الماضى ، على شىء من التغير ، أحدثه التقدم فى السن !

ونهض سانين ، فعاد الى المدفأة ، ثم جلس على مقعده من جديد ، ودفن وجهه فى يديه مرة أخرى ! ..

« لماذا يحدث هذا .. اليوم ؟ »

كذلك تساءل سانين ! .. وعادت الى ذاكرته أمور انقضت منذ مدة طويلة :

***

فى صيف عام ١٨٤٠ – وكان سانين فى الثانية والعشرين – مر بمدينة فرانكفورت ، فى طريق عودته من ايطاليا الى روسيا . لم يكن يملك يومئذ ثروة كبيرة ، ولكنه كان مستقلا ، بلا أسرة تقريبا . وكان قد ورث بضعة آلاف روبل عن شخص يمت اليه بقربى بعيدة ، فقرر أن ينفق هذا المبلغ فى خارج روسيا ، قبل أن يصبح موظفا من موظفى الدولة ، هذه الوظيفة التى كان يرى أن الحياة بدونها مستحيلة !

وقد نفذ سانين هذه الخطة تنفيذا دقيقا ، حتى انه – يوم وصل الى فرنكفورت – لم يكن قد بقى له من المال الا ما يكفيه للعودة الى (بطرسبرج) . ولم تكن السكك الحديدية كثيرة فى ذلك العصر ، فكان الناس يسافرون فى عربات عامة ، ومن ثم ابتاع سانين تذكرة السفر ، لكن العربة لم تكن لتتحرك الا فى العاشرة مساء ، فكان أمامه وقت طويل يجب أن يقضيه فى فرنكفورت قبل السفر . ومن حسن حظه أن الجو كان جميلا فى ذلك اليوم ، فبعد أن تناول سانين غداءه فى فندق (البجعة البيضاء) ، الذى كان مشهورا فى ذلك الوقت ، أخذ يضرب فى المدينة ، فمضى ليشاهد مسرحية « آريان دانيكير » ، فلم تحظ باعجابه كثيرا . وحج الى بيت « جوته » الذى لم يكن قد قرأ له الا « آلام فرتر » ، فى ترجمة فرنسية .. ثم قام بنزهة على شواطىء نهر (الماين) ، ولم يلبث ان أخذ الضجر يتسرب الى نفسه .. حتى اذا حلت الساعة السادسة ، وقد أعياه المسير وأغبر حذاءه ، وجد نفسه فى شارع من أصغر شوارع فرنكفورت . وهناك لمح ، على جدار بيت من البيوت المتباعدة

فى ذلك الشارع ، هذه اللافتة : (حلوى ايطالية . «جيوفانى روزيلى ») .

فدخل سانين يريد أن يشرب كأسا من شراب الليمون ، لكنه لم يجد فى الحانوت أحدا ! .. ورأى فى مؤخرة المكان ، على رفوف خزانة مطلية ، زجاجات عليها بطاقات مذهبة ، وآنية مليئة بالبسكويت والشوكولاتة والفاكهة المحفوظة ، وكانت الزجاجات تصطف فوق الارفف كما فى الصيدليات . لكن الحانوت كان خاليا ، الا من قطة شهباء كانت فوق مقعد عال قرب النافذة ، تطرف عينيها ،وتهز قوائمها ، وقد اصطبغت بلون ارجوانى ساطع من الاشعة المائلة التى تلقيها عليها الشمس الغاربة . وعلى الارض كرة كبيرة من خيوط الحرير قد تدحرجت على مقربة من سلة الحطب المنقوشة المقلوبة .

وكانت تنبعث من الغرفة المجاورة جلبة غامضة .. لكن سانين ظل ساكنا ، بينما كان جرس الدخول يرن .. وأخيرا هتف يسأل بصوت عال :

ـ أما من أحد هنا ؟

واذا بباب الحجرة المجاورة يفتح فى هذه اللحظة ، فينبهر سانين اعجابا !

ـ ٢ ـ

كانت فتاة فى التاسعة عشرة من عمرها تندفع الى الحانوت ، وقد انسدل شعرها الاسود على كتفيها العاريتين ، وامتدت ذراعاها الى الامام . فلما لمحت سانين هرعت اليه ، وامسكت بيده ، وجرته وهى تصيح بصوت لاهث :

ـ تعال حالا ، من هنا .. تعال انقذه !

على ان دهشة سانين ماكانت لتسمح له بأن يستجيب لنداء الفتاة فى الحال ، فظل مسمرا فى مكانه .. انه لم يكن

قد شهد فى حياته مثل هذا الجمال قط . والتفتت الفتاة اليه مرة أخرى ، وقالت له :

ـ تعال ، تعال !

وكان فى صوتها ، ونظرتها ، وحركة يدها المنقبضة التى وضعتها على خديها الشاحبين فى تشنج ، من الاضطراب والحزن والذعر ما جعل سانين يتبعها سريعا نحو الباب الذى كان قد ظل مفتوحا . فاذا به يرى ـ فى الغرفة التى دخلها وراء الفتاة ـ فتى فى نحو الرابعة عشرة من عمره ، مستلقيا على أريكة من الشعر ذات طراز قديم . وكان الفتى شديد الشبه بالفتاة . فلما لاحظ سانين ذلك ، أدرك أنه أخوها !

وكان الفتى شاحبا بدرجة ملحوظة ، حتى لقد كان لون وجهه قريبا من لون الشمع أو الرخام . وكانت عيناه مغمضتين ، وكان ظل شعره الكثيف الاسود أشبه ببقعة على جبينه الذاوى وحاجبيه الدقيقين الساكنين . وكانت أسنانه المشدودة تبرز من بين شفتيه الداكنتين . وبدا وكأنه كف عن التنفس . أما ذراعاه ، فقد تدلت احداهما على الارض ، بينما استقرت الاخرى وراء رأسه . وكان الفتى مرتديا ملابسه ، حتى لقد كانت أزراره محكمة حتى الذقن ، وربطة عنقه تطوق رقبته .. وصاحت الفتاة تقول :

ـ مات ، مات .. لقد كان منذ لحظة جالسا هنا يتحدث معى ، فاذا هو يسقط فجأة ، ثم لا يتحرك بعد ذلك ! .. رباه .. رباه ، ألا تستطيع أن تنقذه ؟ .. ليت أمى كانت بالبيت !

ثم أردفت تقول بالايطالية :

ـ هيه يا بانتاليون ، هل جئت بالطبيب ؟

فأجابها صوت أجش من وراء الباب ، يقول :

ـ لقد أرسلت لويزا الى الطبيب ، ياآنسة .

ودلف الى الغرفة رجل عجوز قصير ، يرتدى سترة رسمية ، مزدانة بأزرار سوداء ، ولها ياقة تحوطها ربطة عنق عالية ، وكان سرواله من القطن الاصفر ، وجوربه من الصوف الازرق .. وقد دخل يعرج فى مشيته لما كان يعانيه من تصلب فى ساقيه . وكان وجهه الصغير يختفى تماما وراء غابة كثيفة من الشعر الاشهب الاشبه بلون الحديد . وكان شعره الذى يوحى بمنظر الاحراش ، ويتجمع فى خصلات تسقط حول رأسه فى شتى الجهات ، يجعله يبدو كالقنبرة ! .. ومما كان يزيد الشبه تكاملا ، ان المرء ماكان ليستطيع أن يميز تحت تلك الكتلة الشهباء القائمة الا أنفا مدببا ، وعينين صفراوين مستديرتين !

واستطرد العجوز يقول بالايطالية :

ـ ان لويزا أسرع منى ، فأنا لا أستطيع أن اركض !

وكان يرفع قدميه واحدة بعد أخرى ، من فرط ما كان يعانيه من ألم بسبب داء النقرس . وكان ينتعل حذاءين ضخمين عاليين مربوطين بأشرطة .. ولم يلبث ان قال :

ـ لقد جئت بماء .

قال العجوز ذلك ، وهو يمسك بيديه اليابستين المعروقتين عنق القارورة الطويل .

فصاحت الفتاة :

ـ ولكن ، أليس من المحتمل أن يموت ونحن ننتظر الطبيب ؟!

ثم اضافت ، وهى تمد يدها نحو سانين :

ـ لعلك تستطيع أن تفعل شيئا لمساعدتنا يا سيدى !

فقال بانتاليون :

ـ يجب أن ننزف منه دما .. انها السكتة !

وكان سانين يعرف ـ رغم جهله بالشئون الطبية جهلا

تاما ـ ان نوبات السكتة القلبية لا تصيب من هو فى الرابعة عشرة من عمره . فقال لبانتاليون :

ـ بل هذا اغماء ، وليس بسكتة . هل عندكم فرشاة ؟

فرفع العجوز وجهه المنقبض ، وسأل :

ـ ماذا ؟

فأجابه سانين بالالمانية والفرنسية :

ـ فرشاة ، فرشاة !

ثم قال ، وهو يحرك يده بحركة من ينظف ثيابه بفرشاة :

ـ فرشاة ، فرشاة .

ففهم العجوز أخيرا ، فقال بالايطالية :

ـ آه ، فرشاة .. طبعا عندنا فرشاة !

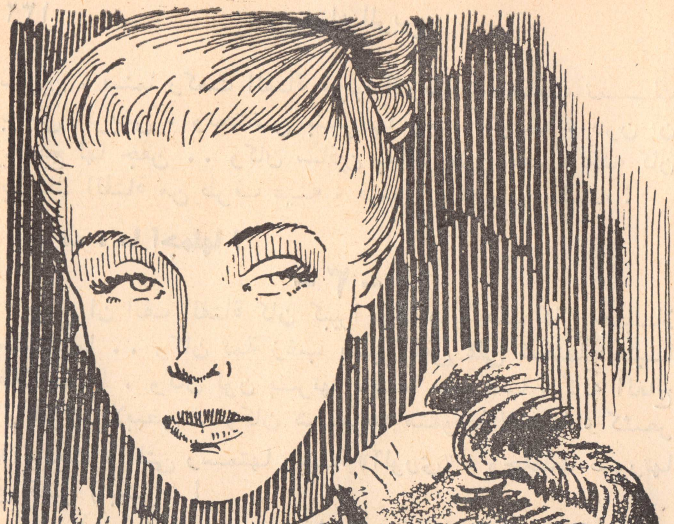
ـ الى بها بسرعة اذن ، فسوف ننضو عنه ملابسه ، وندلك جسمه بالفرشاة .

ـ حسنا ، حسنا .. وهل نصب ماء على رأسه ؟ ألا ترى ان نسكب ماء على رأسه ؟

ـ لا ، لا .. سنرى فيما بعد .. هات الفرشاة أولا ، أسرع !

ووضع بانتاليون قارورته على الارض ، وهرول خارجا من الغرفة ، ثم عاد بعد قليل ، يحمل فرشاة للثياب وأخرى للشعر . ولم يلبث أن أقبل كلب مجعد الوبر ، يحرك ذيله تحريكا عنيفا ، وراح ينظر الى العجوز والفتاة وحتى الى سانين نفسه نظرة مستطلعة ، كأنه يتساءل عن سبب تلك الجلبة وذلك الاضطراب فى البيت !

وفك سانين أزرار سترة الفتى ، وحل ياقة القميص ، ورفع كميه ، ثم تناول الفرشاة ، وأخذ يدلك بها صدر الفتى ويديه بكل قوته . وفى الوقت ذاته ، عكف بانتاليون على تدليك حذاءى الصبى وسرواله بحماسة لا تقل عن حماسة



ونظر ((سابين)) الى الصليب دهشا ، وقد عبرت قسمات وجهه عن الحسرة والفرح معا ! (صفحة ١٢٥)

سانين ، بينما ركعت الفتاة قرب الاريكة ، وطفقت تمسك برأس المريض ، وتحتضن بنظراتها وجه أخيها ، دون أن يختلج لها جفن .. وكان سانين يدلك بلا توقف ، لكنه كان يلاحظ الفتاة من طرف عينه ، فيقول بينه وبين نفسه :

– لله ، ما أجملها !

– ٣ –

ومع أن أنف الفتاة كان كبيرا نوعا ما ، فقد كان جميلا مستقيما .. وكان ثمة زغب يسير يلقى على شفتها العليا ظلا خفيفا . وكان لون بشرتها ناصعا متجانسا ، كأنه العاج أو الزبد الابيض . وكان شعرها متموجا لامعا ، كشعر « يوديث » التى رسمتها ريشة «آلورى» ، وحفظت صورتها فى قصر (بيتى) !

على ان عينيها – بوجه خاص – كانتا تخطفان الابصار .. كان لونهما أشهب قاتما ، وحدقة كل منهما محفوفة بحاشية سوداء .. كانتا عينين رائعتين ساحرتين ، حتى فى تلك الساعة التى يطفىء فيها الذعر والالم ما فيهما من بريق !

وتذكر سانين – رغما عنه – البلاد الجميلة التى عاد لفوره من زيارتها ، لكنه لاحظ أن الجمال الذى كان أمامه الآن ، لم يقع بصره على مثله حتى فى ايطاليا .. وكانت الفتاة تتنهد تنهدا طويلا متفاوتا ، ذلك أنها كانت تحبس أنفاسها ، كأنها تنتظر فى كل مرة أن ترى ما اذا كان أخوها قد عاد يتنفس من جديد .. وكان سانين ماضيا فى تدليك المريض ، دون أن يستطيع أن يمنع نفسه من مراقبة بانتاليون أيضا ، الذى كان وجهه الغريب يستوقف انتباهه .

وكان العجوز قد أدركه التعب ، فراح يلهث .. وكان كلما حرك فرشاته على جسم المريض مرة ، أطلق زفرة

شاكية ، بينما أخذت خصلات شعره الكثيفة المبللة بالعرق تتأرجح ثقيلة فى كل اتجاه ، كأنها مساحة نباتية كبيرة بللها المطر .. وهم سانين بأن يطلب من العجوز أن يخلع حذاءه على الاقل ، الا انه لمح الكلب ، وقد انتصب فجأة على قائمتيه الخلفيتين ، وأخذ فى العواء ، وقد أهاجته جدة المشهد . فصاح العجوز فى الكلب قائلا :

– تارتاجليا !

وفى تلك اللحظة نفسها ، تبدل وجه الفتاة ، وتقوس حاجباها ، وزاد اتساع عينيها ، وأشرق الفرح فى نظرتها .

فأنعم سانين نظره فى المريض ، فرأى وجهه يسترد بعض لونه ، ولمح أهدابه تتحرك ، ومنخريه ينبسطان . وبدأ الفتى يستنشق الهواء من خلال أسنانه التى كانت ما تزال مشدودة ، ثم أطلق زفرة . فصاحت الفتاة :

– **ايمليو .. حبيبى اميليو !**

وأخذت عينا المريض السوداوان تتفتحان رويدا .. كانتا ماتزالان تشعان بنظرة مبهمة ، لكنهما كانتا تشرقان بابتسامة واهنة . وما لبثت ان انتقلت تلك الابتسامة الذاوية نفسها الى شفتيه الشاحبتين ، فاذا به يحرك ذراعه المتدلية ، ويرفعها دفعة واحدة الى صدره .. وعادت الفتاة تردد ، وهى تنهض :

– ايمليو !

وكان وجه الفتاة يفيض اذ ذاك بعاطفة بلغت من العنف أن من كان يراها يحسب أنها ستجهش بالبكاء ، أو ستنفجر ضاحكة ضحكا مجنونا .. وصاح من وراء الباب صوت ، يقول :

– ايمليو ؟ .. ماذا به ؟

***

ودلفت الى الغرفة بخطى سريعة عجوز ترتدى ثيابا نظيفة ، ويعلو وجهها الاسمر شعر أبيض بلون الفضة . ودخل فى أثرها رجل كهل ، ثم خادمة راحت تطل برأسها من فوق كتفه .. وهرعت الفتاة الى لقائهم . وقالت وهى تقبل السيدة بحركة عصبية :

ــ لقد أنقذ يا أماه .. انه حى يا أماه !

فقالت السيدة :

ــ ولكن ما الذى حدث له ؟ .. لقد كنت عائدة الى البيت ، فرأيت لويزا ومعها الطبيب .

وفيما كانت الفتاة تقص على أمها كل ما وقع لأخيها ، اقترب الطبيب من المريض الذى كان قد بدأ يصحو ويبتسم . وكان المريض يبدو وكأنه يشعر بالخجل لما سبب لهؤلاء الناس جميعا من عناء .. وقال الطبيب مخاطبا سانين وبانتاليون :

ــ أرى أنكما دلكتما جسمه بفرشاة .. لقد أحسنتم صنعا .. انها فكرة رائعة ، وسنرى الآن ما الذى نستطيع أن نصفه له أيضا !

قال ذلك ، ثم أخذ يجس نبض الفتى . ولم يلبث أن هز رأسه قائلا :

ــ أرنى لسانك !

وانحنت الأم على ابنها فى قلق بالغ ، فابتسم لها الفتى ابتسامة مشرقة ، ثم مضى يشخص اليها بعينيه ، وقد تضرج وجهه .. ورأى سانين أن وجوده أصبح لا داعى له ، فأراد أن ينصرف ، ولكن ما أن وضع يده على مقبض باب الدخول، حتى رأى الفتاة تنتصب أمامه ، وتستوقفه قائلة :

ــ أتتركنا ؟ .. اننى لا احتجزك ، ولكنك ستعود الينا فى

المساء ، أليس كذلك ؟ .. **ان لك علينا حقوقا . فلعلك أنت الذى أنقذت أخى من الموت ، ونحن نريد أن نشكر لك ما أسديته الينا من يد ..** ان أمى تحرص على أن تعبر لك بنفسها عن امتنانها ، فيجب أن تذكر لنا اسمك ، وأن تعود الينا لتشاركنا فرحنا !

فاعترض سانين قائلا :

ــ ولكننى مسافر هذا المساء !

فهتفت الفتاة فى حرارة :

ــ ان فى الوقت متسعا .. عد الينا بعد ساعة ، فنتناول معا كأسا من الشوكولاته . هل تعدنى بذلك ؟ .. يجب أن أعود الى المريض حالا .. اننا نعتمد عليك !

ولم يجد سانين مفرا من أن يجيبها :

ــ سأحضر .

فصافحته الفتاة بقوة ، وهرعت الى حيث كان يرقد أخوها .

وفى اللحظة التالية ، كان سانين يسير فى الشارع !

ــ ٤ ــ

حين عادسانين بعدساعة ونصفساعة الىحانوت(روزيلى)، استقبل كما يستقبل أحد اقرباء الاسرة .. وكان « ايمليو » جالسا على الاريكة التى كان يرقد عليها فى الصباح ، حين كانوا يدلكون له جسمه . وكان الطبيب قد أوصى له بدواء ، ونصح بالتزام كثير من الحيطة فى معاملته ، وقال ان عليه أن يتجنب الانفعالات ، لأن الفتى كان عصبيا ولديه استعداد للاصابة بأمراض القلب . ومع انه قد سبق أن أغمى على ايميليو قبل ذلك ، الا أن نوبة الاغماء لم تبلغ قط ما بلغته فى تلك المرة من طول وعنف . على أن الطبيب آكد مع ذلك أن

كل خطر قد زال .. وكان ايميليو يرتدى ثوبا فضفاضا ، يليق بمريض فى دور النقاهة ، وقد أحاطت أمه رقبته بوشاح من الصوف الازرق . وكان الفتى مرحا ، حتى لكأنه فى عيد ، وكان كل ما حوله يشع فرحا !

وأمام الأريكة ، وعلى مائدة مستديرة مفروشة بغطاء أبيض ، كان ثمة ابريق كبير من الخزف ، ملىء بالشوكولاته العبقة ، وقد صفت حوله فناجين ، وأقداح ، وفطائر ، وقطع من الخبز ، وبعض أزهار . وكان فى الغرفة ست شموع تحترق على شمعدان من الفضة القديمة . وكان الى جانب الاريكة مقعد وثير من طراز « فولتير » ، وهو الذى دعى سانين أن يجلس عليه حين أقبل .. وكان جميع الاشخاص الذين تعرف اليهم سانين فى الحانوت صباحا قد تجمعوا الآن حول المريض ، بما فيهم الكلب تارتاجليا والهرة . وكانت السعادة تتجلى على وجوههم جميعا ، حتى لقد كان الكلب يتحرك ويعدو فى مرح ، بينما انطلقت القطة تطرف بعينيها تبحث عن شخص يدللها !

وما لبث سانين أن اضطر الى أن يذكر اسمه للموجودين ، ويقول لهم من أين هو ، ويحدثهم عن أسرته . فلما ذكر أنه روسى ، ظهرت الدهشة فى نظرات الام وابنتها ، حتى لقد أفلتت منهما صيحة : « آه ! » . وقالتا انه يجيد الكلام بالالمانية ، لكنهما دعتاه الى الاستمرار فى الكلام بالفرنسية اذا كان يروقه ذلك ، لأن كلتيهما تفهمان الفرنسية وتتحدثان بها .. وبادر سانين ، فاستغل اقتراح محدثتيه . وابدت المرأتان اعجابهما باسم « سانين » ، حتى انهما ما كانتا لتصدقان أن من الممكن لروسى أن يكون اسمه سهلا على النطق الى هذا الحد . وقد أعجبهما اسمه الاول كذلك ، وهو «ديمترى» ، اعجابا كبيرا .. وأسرعت أم الفتاة تقول انها فى شبابها قد

شهدت أوبرا عنوانها «ديمتريو وفيليبو» ، لكنها ترى الآن أن « ديمترى » أجمل وقعا فى الاذن من « ديمتريو » !

وقضى سانين على ذلك النحو ساعة بأكملها ، يتحدث مع هاتين الايطاليتين اللتين افضينا اليه أيضا بجميع أحداث حياتهما .. وكانت الام هى التى تستأثر بالحديث غالبا . فعرف سانين منها اسمها ، وهو « ليونورا روزيلى » ، وعرف أنها أرملة « جيوفانى باتيستا روزيلى » الذى وفد الى (فرنكفورت) منذ خمس وعشرين سنة ، وأنشأ فيها ذلك الحانوت . وكان جيوفانى باتيستا ينحدر أصلا من مدينة (فيسانس) . ولقد كان رجلا ممتازا ، رغم أنه كان نزقا متكبرا ، ورغم أنه كان فوق ذلك « جمهوريا » .. وحين قالت مدام روزيلى هذا الكلام ، أشارت بيدها الى لوحة زيتية معلقة على الحائط فوق الأريكة . ثم أضافت تقول ، وهى تتنهد :

ـ يجب أن اذكر ان الرسام ـ وهو جمهورى أيضا ـ لم يبرز الشبه ابرازا تاما !

ذلك أن ملامح جيوفانى باتيستا كانت تظهر فى الصورة وكأنها ملامح شقى عابس كاسر من قطاع الطرق !

وقد ولدت مدام روزيلى فى تلك المدينة القديمة الجميلة ، مدينة (بارم) ، التى تضم تلك القبة الرائعة التى طلتها ريشة الرسام الخالد « كوريج » ، الا أن مدام روزيلى عاشت شطرا كبيرا من حياتها فى ألمانيا ، حتى كادت تصبح ألمانية .. وأضافت تخبر سانين ـ وهى تهز رأسها فى أسى ـ انه لم يبق لها فى الحياة الا تلك البنت وذلك الابن (قالت ذلك وهى تشير اليهما باصبعها) ، ثم ذكرت أن اسم ابنتها هو « جيما » ، وان اسم ابنها هو « ايمليو » ، وان كليهما

ممتازان مطيعان ، وخاصة ايمليو .. وهنا ، قاطعت الفتاة أمها بقولها :

ـ وأنا ، ألست مطيعة ؟

فأجابتها الأم :

ـ آه .. وأنت جمهورية أيضا !

وصرحت مدام روزيلى فى ختام حديثها بأنها تكسب رزقها ، ولكن الاعمال لم تعد تسير سيرا حسنا كما كانت فى عهد زوجها ، الذى كان فنانا كبيرا فى صناعة الحلوى .. فصدق بانتاليون على قولها بلهجة جادة ، ولغة ايطالية ، قائلا :

ـ لقد كان رجلا عظيما !

ـ ٥ ـ

كانت « جيما » ، وهى تصغى الى حديث أمها ، تضحك تارة ، وتتنهد تارة أخرى ، وتدغدغ كتف أمها تارة ثالثة ، وتلوح لها بأصبعها مهددة تارة رابعة ، ثم تنظر اليها بعد كل ذلك . ونهضت أخيرا ، فاحتضنت أمها بذراعيها ، وقبلتها فى قمة رأسها ، فأثار هذا ضحك الام حتى أخذت تطلق صرخات مدوية .

وما لبث ان قدم بانتاليون أيضا الى الفتى الروسى .. وكان بانتاليون فيما مضى مغنيا فى الاوبرا ، لكنه ختم حياته الفنية منذ مدة طويلة ، وأصبح يحتل فى أسرة روزيلى مكانة خاصة ، فكان صديق الاسرة وخادمها معا ، بل كان شيئا بين الصديق والخادم . ورغم انه كان يقيم بألمانيا منذ عدة سنوات ، فانه لم يتعلم من الالمانية الا الشتائم ، حتى أن شتائمه نفسها كانت تفوح منها رائحة اللغة الايطالية . وكان يقول عن جميع الالمان تقريبا انهم أوغاد انذال . لكنه كان ـ

على العكس من ذلك - يجيد الكلام بالايطالية اجادة كاملة ، ذلك أنه كان ينحدر من مدينة (سينيجا جليا) التي قيل أن المرء يستطيع أن يسمع فيها « اللغة التوسكانية من فم رومانى » !

وكان ايمليو متكاسلا ، مستسلما للاحساسات الممتعة التى تخامر مريضا فى دور النقاهة ، أفلت من خطر كبير . وكان يسهل على المرء أن يلاحظ من جهة أخرى أن أفراد أسرته يحيطونه بجميع أسباب الدلال والرعاية .. ولم يفته أن يعرب عن شكره لسانين فى خجل واضطراب ، لكن انتباهه كان منصبا على الاشربة والحلوى أكثر من غيرها .. وقد اضطر سانين أن يحتسى قدحين كبيرين من الشوكولاته ، وان يأكل مقدارا ضخما من البسكويت ، اذ أنه كان لا يكاد يفرغ من أكل قرص من البسكويت حتى تقدم اليه جيما قرصا آخر ، فلم يكن يسعه أن يرفضه !

وما أن انقضت لحظات قليلة ، حتى أحس سانين أنه كان بين أفراد تلك الاسرة كأنه فى بيته . ومر الوقت فى سرعة البرق .. وقد افاض سانين فى الحديث عن روسيا ، ومناخها ، والمجتمع الروسى ، والفلاح الروسى ، ورجال القوزاق ، وحرب عام ١٨١٢ ، وبطرس الاكبر ، والاغانى الروسية ، والاجراس الروسية . وكانت المرأتان لا تساورهما الا فكرة غامضة عن تلك البلاد التى ولد فيها سانين . فكم كانت دهشته حين سألته السيدة روزيلى ، أو السيدة لينور - كما كانوا يدعونها فى أكثر الاحيان - قائلة :

- الا يزال القصر الذى شيد فى بطرسبرج من الجليد ، فى القرن الماضى ، والذى قرأت منذ مدة قريبة وصفا له فى كتاب عنوانه « روائع الفن » ، قائما الى الآن ؟

فما كان من سانين الا أن هتف دهشا :

— ولكن ، هل تظنين يا سيدتى أن الصيف لا وجود له فى روسيا ؟

فاعترفت له السيدة روزيلى بأنها لم تكن تتصور روسيا الا سهلا تغطيه ثلوج دائمة ، ويسكنه أناس يلبسون الفراء طوال العام ، وانهم جميعا من العسكريين .. واستطردت تقول : « الحق أن هذه البلاد هى أكثر بلاد الدنيا كرما وحفاوة ، وأنها الوحيدة التى يتصف فيها الفلاحون بالولاء والطاعة ! »

وحاول سانين أن يمدها وابنتها بمعلومات أكثر صدقا ودقة عن روسيا . فلما تحدث عن الموسيقى ، رجته هى وابنتها أن ينشدهما لحنا روسيا ، وهما تشيران الى بيانو صغير فى أحد أركان الحجرة . فلبى سانين رجاءهما فى غير كلفة ، وقام الى البيانو ، وأخذ يعزف عليه بأصبعين من اليد اليمنى ، وبثلاث أصابع من اليد اليسرى (هى الابهام والوسطى والخنصر) ، ثم غنى لهما لحن « السارافان » ، ولحن « فى الشارع ، على البلاط » ، بصوت « التينور » الذى يخرج من الانف قليلا .

فامتدحت المرأتان صوته وعزفه كثيرا ، لكنهما انتشتا — خاصة — من عذوبة اللغة الروسية ورنينها ، فسألتاه أن يترجم لهما كلام الاغنيتين . بيد أن سانين رأى أن شعر الاغنيتين لا يعطى فكرة عالية للغاية عن الشعر الروسى ، فآثر أن ينشدهما قصيدة « بوشكين » الغزلية « ذكرى لحظة الهية » ، فترجم لهما تلك القصيدة ثم غناها ، وكان اللحن من الحان « جلنكا » .. فاذا بحماسة السيدة روزيلى وابنتها تتجاوز كل حد . واكتشفت السيدة لينور تشابها مدهشا بين الروسية والايطالية . حتى لقد وجدت أن اسمى

« بوشكين » (وكانت تلفظه بوسكين) و « جلنكا » لهما فى الاذن وقع الاسماء الايطالية .

وطلب سانين من الام وابنتها أن تغنيا له شيئا بدورهما ، فلم تخيبا رجاءه ، بل قامت الام الى البيانو فورا ، وغنت مع جيما بعض الاغانى .. ولعل صوت الام كان رائعا فيما مضى، أما صوت جيما ، فانه على ضعفه ، كان عذبا ساحرا !

- ٦ -

على أن الذى استأثر باعجاب سانين كان جيما ، وليس صوتها .. كان ، وهو جالس وراءها قليلا ، لا ينفك يقول لنفسه : « أن شجرة من أشجار النخيل لا يمكن أن تنافس رشاقة هذه الفتاة الايطالية ! » . وكان يخيل اليه ،حين يراها ترفع عينيها أثناء صداحها بالفقرات المعبرة من الاغنية، أن السماء تتفتح أمام نظرتها .. بل أن العجوز بانتاليون نفسه ، الذى كان يصغى الى الغناء اصغاء خبير ، وقد لاحت على وجهه امارات الجد ، واستند بكتفه الى مصراع الباب ، ودفن ذقنه وفمه فى ربطة عنقه الطويلة ، كان يبدو مفتونا بهذا الوجه الجميل ، رغم أنه يراه كل يوم !

فلما انتهى الغناء ، قالت السيدة لينور ان ايميلو كان له صوت جميل كأنه رنين الفضة ، لكنه الآن فى السن التى يغلظ فيها الصوت ، ومن ثم فكان ممنوعا عن الغناء . ثم جاء دور بانتاليون ، فكان عليه ، تكريما للضيف ، أن يتذكر بعض الالحان التى كان يجيد غناءها فى الماضى أيما اجادة . واستعد بانتاليون للغناء وأخذ يتنحنح ، ويعبث بشعره ، لكنه ما لبث أن قال انه قد هجر الغناء منذ سنين ، رغم أنه كان يستطيع فى وقت مضى أن يفخر بموهبته . واردف يؤكد بأنه ينتمى الى ذلك العصر الذى كان يعيش فيه مغنون

كلاسيكيون كبار ، لا يقاس بهم أولئك التافهون الذين يتألقون في سماء الفن فى هذه الايام ، وأن ذلك العصر قد انشأ مايمكن أن يسمى مدرسة فى الغناء ، وأنه هو – بانتاليون تشيباتولا – قد توج فى (فاريز) يوما باكليل من الغار ، وأطلق الناس فى تكريمه على المسرح حمامات بيضاء ، وأن أميرا يدعى « الامير تاربوسكى » – وكانت تربطه به صداقة حميمة – كان يعذبه كل مساء بالحاحه عليه لكى يقوم بجولة فى روسيا يجنى منها جبالا من ذهب .. لكن بانتاليون كان حريصا كل الحرص على الا يهجر ايطاليا ، بلد « دانتى » .. ثم حلت الكوارث والنكبات ، فقد كان بانتاليون قليل التبصر .. وهنا قطع العجوز حديثه ، واطلق زفرتين عميقتين ، ثم خفض عينيه . وسرعان ما عاد يتحدث عن العصر الكلاسيكى فى الغناء ، وخاصة عن «جارسيا» ، التينور الشهير الذى كان بانتاليون يكن له اعجابا لا حد له . ولم يتمالك أن يصفه قائلا :

– ذلك كان رجلا !

واستطرد فقال :

– ان جارسيا العظيم لم يقبل يوما أن يغنى ، كما يغنى هؤلاء المغنون الصغار الذين نسمعهم اليوم .. كان صوته يخرج دائما من الصدر !

فقال العجوز ذلك ، وضرب صدره ضربة قوية بقبضة يده ، واردف :

– ما كان أعظمه من ممثل ! .. كان كالبركان .. يا الهى ، لقد كان كبركان فيزوف ! ولقد تشرفت بالاشتراك معه فى تمثيل الاوبرا التى ألفها الاستاذ العظيم روسينى .. أوبرا « عطيل » .. كان جارسيا يمثل دور عطيل ، وكنت أنا أمثل دور ياجو .. فكان حين يلفظ هذه الجملة .. (وهنا اتخذ بانتاليون موقف المغنى ، وأخذ يردد بيتين من شعر

« عطيل » بالايطالية ، بصوت مرتعش أجش ، لكنه مؤثر !) .. كان المسرح يهتز تحته .. ياالهى ! .. ولم أكن انا لأتخلف عنه .. كنت اردد بعده : (وهنا انشد بيتين آخرين من أبيات « عطيل » ، بالايطالية) .. وفجأة ، وبسرعة البرق ، وكنمر كاسر ، كان يصيح : الانتقام ! .. الانتقام ! .. أو حين كان يغنى .. حين كان يغنى اللحن المشهور «الزواج السرى» .. يا له من رجل عظيم ! .. جارسيا .. اسمعوا كيف كان يغنى ، اسمعوا كم كان غناؤه رائعا !

وأخذ العجوز يغنى مقطعا شديد التعقيد ، لكنه ما أن وصل الى النغمة العاشرة حتى توقف عن الغناء ، وسعل ، ثم قال وهو يحرك يده حركة تعبر عن اليأس :

ـ لماذا تعذبوننى هذا العذاب ؟

فصفقت جيما تصفيقا قويا ، وهتفت : « مرحى .. مرحى .. »

ثم أسرعت الى « ياجو » المسكين ، وربتت على كتفه بكلتا يديها متوددة .. وكان ايمليو وحده هو الذى يضحك بلا تحرج ، فان هذه السن لا تعرف الرحمة . وأراد سانين أن يواسى المغنى العجوز ، فحاول أن يكلمه بلغته الايطالية .. وكان سانين قد تعلم بضع كلمات ايطالية أثناء رحلته الاخيرة الى ايطاليا . فأخذ يتحدث عن بلد « دانتى » التى يجيد فيها المغنون الغناء » (قالها بالايطالية) . وكانت تلك الجملة مع هذا البيت المشهور من أبيات الشعر : « قد فقدت الآمال والافراح » كل ما يملكه السائح الشاب من زاد شعرى ايطالى !

لكن بانتاليون ماكان ليكترث بتلك الملاطفات ، بل أغرق ذقنه فى ربطة عنقه ، وأخذت عيناه الحانقتان تدوران ، فصار وجهه أشبه بوجه الطائر الاشعث ، أكثر من أى وقت

مضى ، الا انه كان يشبه فى هذه المرة وجه طائر خبيث ، لعله وجه أحـد الغربان . واذ ذاك قال ايمليو ، الذى كان يعلو وجهه الاحمرار فى كل مناسبة ولغير ما سبب ، على نحوما يحـدث عادة للأطفال المدللين ، يخاطب أخته : « اذا كنت تريدين أن تسلى الضيف حقا ، فما عليك الا أن تقرئى عليه أحدى كوميديات مالتس التى تجيدين تلاوتها أيما اجادة ، اذ ليس ثمة شىء خير منها ! »

فانفجرت جيما ضاحكة ، ولطمت يد أخيها لطمة خفيفة ، وقالت له : « أن لك أفكارا عجيبة دائما ! » .. ومع ذلك ، فانها لم تلبث أن قامت الى غرفتها ، ثم عادت بعد قليل وفى يدها كتاب صغير . وجلست الى المنضـدة أمام المصباح ، ونظرت حولها ، ثم رفعت اصبعها كأنها تقول : « صمتا ايها السادة ! » وأخذت تقرأ بصوت عال .

- ٧ -

كان « مالتس » كاتبـا محليا من (فرنـكفورت) ، أجاد تصوير نماذج انسـانية ، باسلوب فـكاهى حتى وان يـكن سطحيا ، فى سلسلة من الـكوميديات الخفيفة ، كتبها باللغة العامية . . والحق أن جيما كانت تجيد القراءة اجادة رائعة ، حتى لقد كانت تبدو ممثلة كوميدية بارعة . فكانت تضفى على كل دور بلونه ، وتبرز طباع الشخصيات ابرازا مدهشا . ولقد ورثت فى دمها الايطالى ما يملكه هذا الشعب من قدرة على التعبير بحركات الوجه . وكانت تستخدم صوتها العذب وملامح وجهها فى آن واحد ، فاذا كان عليها أن تمثل عجوزا مجنونة أو عمدة غبيـا ، قبضت خدها ، وشـدت عينيها ، ونفخت منخريها ، وجعلت صـوتها يزمجر ، وأخرجت الراء من حلقها . وكانت لا تضحك وهى تقرأ ، حتى اذا فاجأها

سامعوها ـ عدا بانتاليون الذى خرج من الغرفة منذ تقررت قراءة تلك الاشياء التافهة ـ بضحكاتهم المدوية ، تركت كتابها ينزلق على ركبتيها ، وردت رأسها الى وراء ، وأطلقت ضحكة رنانة ، كانت تهز قرطيها على جيدها وكتفها . فاذا هدأ ضحك السامعين ، عادت فتناولت كتابها ، واستأنفت قراءتها مرة أخرى فى جد !

وكان سانين لا يكل من الاعجاب بتلك القارئة البارعة ، وكان لا يفتأ يتساءل كيف يستطيع هذا الوجه ، الذى بلغ هذا المبلغ من الجمال ، أن يتبدل تماما ، فيصطنع تعبيرا يصل الى هذه الدرجة من الهزل ، بل ومن الابتذال فى بعض الاحيان . وكانت جيما لا تصيب ذلك النجاح كله فى أدوار الفتيات ، وأدوار « الفتاة الاولى » ، ومشاهد الحب بوجه خاص . فكانت تخفى تقصيرها تحت قناع من السخرية الخفيفة ، كأنها لا تؤمن بتلك الوعود العاطفية ، والالفاظ الملتهبة ، التى كان المؤلف يقتصد فيها على كل حال .

وانقضت السهرة سراعا ، حتى أن سانين لم يتذكر أنه كان عليه أن يسافر فى ذلك المساء نفسه الا حين دقت الساعة العاشرة . فقفز عن كرسيه كمن لسعته أفعى . فسألته السيدة لينور :

ـ ماذا بك ؟

فأجاب :

ـ على أن أسافر هذا المساء الى برلين ، وقد حجزت مكانا فى العربة .

ـ متى تتحرك العربة ؟

ـ فى العاشرة والنصف .

وقالت جيما :

ـ ستصل اذن بعد فوات الاوان ، فابق بعض الوقت ، وسأتم قراءتي .

وسألته لينور :

ـ هل دفعت ثمن التذكرة كاملا ، أم دفعت عربونا فحسب ؟

ـ دفعت ثمن التذكرة كاملا .

قال سانين ذلك ، وقد اكتسى وجهه بمسحة ألم .

فنظرت اليه جيما وهى تطرف بعينيها ، ثم أطلقت من صدرها ضحكة ، فأنبتها أمها قائلة :

ـ ما هذا ؟ أيضيع الشاب ماله ، ثم تضحكين ؟ !

فقالت جيما :

ـ ليس هذا أمرا ذا بال .. فهذا المبلغ الذى ضاع ، لن « يضلع » السيد سانين . وسنحاول أن نواسيه .. هل لك فى كأس من عصير الليمون ؟

وتناول سانين كأسا من عصير الليمون . واستأنفت جيما قراءتها ، وعاد المرح الى الحفل . فلما انتصف الليل ، نهض سانين لينصرف . فقالت له جيما :

ـ عليك أن تبقى بضعة أيام فى فرنكفورت ، ففيم الاسراع فى الرحيل ؟ ستأنس هنا مثلما تأنس فى أى مكان آخر !

وصمتت ، ثم قالت مبتسمة :

ـ أؤكد لك أنك ستأنس هنا أكثر مما تأنس فى أى مكان آخر !

ولم يجب سانين بشىء ، لكنه تذكر أن محفظته كانت خاوية ، وأن عليه أن يبقى فى (فرنكفورت) لينتظر رسالة من صديق له فى برلين قد يقترض منه بعض المال . وقالت له لينور ، بدورها :

ـ ابق معنا فترة من الوقت .. وستتعرف الى السيد

كارل كلوبر خطيب جيما .. انه لم يستطع أن يجيء هذا المساء ، لأنه مشغول بأعمال كثيرة فى مخزنه . هل لاحظت محل (الزايل) ، ذلك المخزن الكبير الذى يبيع أنواع الصوف والحرير ؟ .. ان السيد كلوبر هو مدير البائعين فى ذلك المخزن ، وسيسعده كثيرا أن يعرفك !

ولم يفهم سانين نفسه ، لماذا صعقه هذا النبأ . وقال بينه وبين نفسه : « ياله من خطيب سعيد ! » ثم نظر الى جيما ، فلاح له فى عينى الفتاة تعبير ساخر .. واستأذن مدام روزيلى وابنتها فى الانصراف . وسألته الام قائلة :

ـ الى الغد ، أليس كذلك ؟ ستأتى غدا ، أليس كذلك ؟

ورددت جيما ، تقول بلهجة التأكيد ، كأن ذلك أمر مفروغ منه :

ـ الى الغد !

فأجاب سانين :

ـ الى الغد .

ورافقه ايميليو وبانتاليون والكلب تارتاجليا حتى وصل الى ركن الشارع . ولم يستطع بانتاليون أن يمنع نفسه عن اظهار استيائه من قراءة جيما ، فقال : « كيف لا تخجل .. كيف لا تستحى من أن تتلوى على هذا النحو ، وأن تطلق هذا الصراخ ، وكأنها رسم كاريكاتورى . وكان ينبغى لها أن تمثل دور ميروب ، أو دور كليتمنستر ، أو دور أية شخصية تراجيدية عظيمة .. ولكنها تؤثر على ذلك أدوارا ألمانية سخيفة .. كل الناس يستطيعون ان يفعلوا هذا .. ميرتز ، كرتز ، شبيرتز .. ! ونطق تلك الكلمات بصوت غاضب ، وهو يقدم ذقنه ويطقطق أصابعه . فنبح تجاهه تارتاجليا ، بينما كان ايميليو يضحك . واستدار العجوز فجأة ، وعاد أدراجه .

أما سانين فقد عاد الى فندق (البجعة البيضاء) ، وقد تملكه بعض الاضطراب .. لقد كان ذلك الحديث الايطالى الفرنسى الالمانى ما يزال يطن فى أذنيه .. وقال لنفسه حين رقد فى غرفته المتواضعة بالفندق : « اذن فهى مخطوبة .. يا لها من فتاة رائعة ! ولكن ، لماذا لم أسافر ؟ » . ومع ذلك ، فقد أرسل فى اليوم التالى رسالة الى صديقه فى برلين !

- ٨ -

قبل أن يفرغ سانين من ارتداء ملابسه ، جاءه خادم الفندق لينبئه بأن سيدين قد أتيا لزيارته .. وكان أحدهما هو ايمليو ، والثانى شابا طويل القامة ، أنيق الهندام ، مصفف الشعر .. كان السيد « كارل كلوبر » ، خطيب جيما الفاتنة !

ولم يكن من الميسور على المرء أن يجد فى أى مكان بفرنكفورت مديرا للبيع يفوق السيد كلوبر أدبا ، وحسن مظهر ، وكمال رصانة ، وحلاوة منظر ، وكان هندامه الجميل المنسجم مع رزانته ، ورقة حاشيته التى لا تخلو مع ذلك من شيء من التحفظ والفتور - على ما يعهد فى الانجليز ، فلقد أقام فى انجلترا سنتين - يضفيان عليه رشاقة بديعة وأناقة أخاذة .

وكان المرء يدرك فى الحال أن ذلك الفتى الجميل ، الرصين ، المهذب ، المنظم ، قد تعود أن يطيع أوامر رؤسائه ، وأن يصدرها بدوره الى مرؤوسيه . أما أمانته الدقيقة ، فلم يكن يتطرق اليها الشك قط .. وكان صوته ينسجم مع جملة كيانه ، وكان صوتا رزينا هادئا عذبا ، ولم يكن ليرتفع ، بل كان لرنينه نغم حلو .. كان من ذلك الطراز الذى يناسب اصدار الاوامر الى العمال والموظفين !

وبدأ السيد كلوبر بتقديم نفسه لسانين ، وفقا لجميع

الاصول والقواعد المتبعة ، فقد حنى قامته فى كثير من الرفعة والنبالة ، وقرب ما بين ساقيه فى رشاقة ، ثم ضم كعبى حذائيه أحدهما الى الآخر فى أدب بلغ من الرقة والفتنة أن المرء لم يكن يسعه ازاء ذلك كله الا يهتف قائلا بينه وبين نفسه : « يا لهذا الفتى ! .. ما أجمل ملابسه ، وما أرفع مزاياه ! » .. وكانت أناقة يده اليمنى التى نضى عنها قفازها (وكانت يده اليسرى المرتدية قفازا من السويد تمسك بقبعته، الملساء كأنها مرآة ، وفى داخلها القفاز الآخر) والتى مدها الى سانين فى تواضع ، ولكن فى حزم وقوة ، تفوق كل ثناء .. لقد كان كل ظفر من أظافرها عملا فنيا قائما بذاته !

وقال السيد كلوبر ، بلغة ألمانية صميمة ، أنه جاء يقدم احترامه ، ويعبر عن شكره للسيد الغريب الذى أسدى الى قريبه ـ شقيق خطيبته ـ خدمة جليلة .. قال هذا الكلام وهو يشير بيده اليسرى الى ايميليو الذى احمر وجهه خجلا، واستدار الى جهة النافذة واضعا اصبعه فى فمه .. وأضاف السيد كلوبر الى ذلك مؤكدا بأنه يسعده أن يستطيع تقديم أية خدمة يحتاجها السيد الغريب . فأجاب سانين فى شىء من الاضطراب والتعثر ، وباللغة الالمانية ، بأنه سعيد جدا لذلك ، وان تكن الخدمة التى قدمها ليس لها شأن يذكر ! .. ثم دعا ضيفه الى الجلوس . فشكر له السيد كلوبر لطفه ، ثم رفع أطراف بذلته الرسمية فى رشاقة ، وجلس على أحد المقاعد ، لكنه لم يجلس جلسة مريحة ، بل استند الى المقعد بطرف جسمه ، فكان واضحا من ذلك أنه لم يجلس الا من قبيل التأدب ، وأنه يهم بأن ينهض بعد لحظة وجيزة .

ولم يلبث الضيف أن قام ، فخطا خطوتين الى وراء فى

تواضع ، كما يفعل الراقص حين يتقهقر الى الخلف ، وقال انه لا يستطيع أن يطيل زيارته وان ذلك يؤسفه كثيرا ، لأن موعد ذهابه الى المتجر قد حان .. وأضاف انه قد أعد ، بالاتفاق مع السيدة ليونور والآنسة جيما ـ نظرا لأن اليوم التالى كان يوم الاحد ـ نزهة فى (سودن) ، وأنه يسعده أن يدعو السيد الغريب الى الانضمام اليهم فى هذه النزهة ، ويأمل الا يرفض السيد سانين تشريف النزهة بحضوره .

وقبل سانين دعوة ضيفه . ولم يلبث السيد كلوبر أن حيا سانين مرة ثانية وفقا لقواعد الادب ، ثم انسحب فى رشاقة، مختالا فى سرواله الذى كان فى لون البسلة الخضراء ، قارعا نعليه أحدهما بالآخر قرعا جميلا !

- ٩ -

ظل ايمليو واقفا ، رغم أن سانين كان قد دعاه الى الجلوس ، وكان ملتفتا نحو النافذة . فلما ذهب صهره ، جعل يدور على عقبيه ، ويقبض وجهه كما يفعل الاطفال ، ثم سأل سانين أن يأذن له بالبقاء ، وقد احمر وجهه من الخجل . وأضاف يقول :

ـ لقد تحسنت صحتى اليوم كثيرا ، لكن الطبيب ما يزال يمنعنى من العمل .

فأسرع سانين يقول له :

ـ ابق معى .. انك لا تضايقنى البتة !

والحق أن سانين قد سره كثيرا ـ من حيث هو روسى ـ أن يجد ذريعة تعفيه من أن يعمل شيئا . فشكر له ايمليو ذلك ، وما هى الا دقائق حتى كان الفتى يشعر ، وهو فى غرفة سانين ، أنه فى بيته .. وأخذ يفحص جميع أشياء

المسافر الغريب ، ويسأله عن كل منها ما مصدره وما نوعه .. ثم ساعده على حلاقة ذقنه، وحمله على اطلاق شاربيه . وراح يفيض فى الكلام ، فأفضى الى صديقه الجديد بتفاصيل كثيرة عن أمه، وأخته، وبانتاليون ، وحتى عن الكلب تارتاجليا، ووصف له على الجملة حياتهم جميعا !

ولم يلبث أن زال كل أثر من آثار الخجل فى ايمليو ، فبدأ يشعر بحب شديد نحو سانين ، لا لأن الشاب الروسى قد أنقذ حياته فى الليلة السابقة ، بل لأن الفتى قد افتتن به أشد الافتتان ، فكان يحس برغبة قوية تدفعه الى البوح بأسراره الى صديقه الجديد . فاعترف له بأن أمه تهيؤه للعمل بالتجارة ، مع انه يعلم حق العلم انه خلق ليكون فنانا ، وليصبح موسيقيا ومغنيا ، وأنه مؤهل بمواهبه للمسرح. أما الدليل على ذلك فهو أن بانتاليون كان يشجعه على سلوك هذا الطريق . ومما يؤسفه أن السيد كلوبر يرى رأى أمه ، وان له على أمه سلطانا قويا. فهو الذى أوحى الى السيدة روزيلى أن تقحم ابنها فى التجارة ، لانه ـ وهو البائع ـ لايرى شيئا أروع من التجارة . كما أن مثله الاعلى هو أن يبيع المرء صوفا وقطيفة ، وأن يخدع الزبون ، ويطلب منه « اسعارا خيالية » !!

فما أن انتهى سانين من ارتداء ملابسه ، وكتابة رسالته الى صديقه ببرلين ، حتى هتف ايمليو يقول :

ـ والآن تحضر عندنا ، أليس كذلك ؟

فقال سانين معترضا :

ـ ما يقوم أحد بزيارة فى مثل هذا الوقت المبكر !

فاستطرد ايمليو يقول بلهجة مدللة :

ـ بل لا بأس فى هذا .. تعال معى .. لنذهب أولا الى البريد ، ثم نعد الى بيتنا .. ان جيما سيسرها هذا كثيرا

.. ستتناول افطارك معنا ، وستستطيع أن تحدث أمى فى أمرى ، بصدد ما أريد أن أقف عليه نفسى من عمل فنى ..

فقال سانين :

ـ حسنا ، فلنذهب !

وخرجا من الفندق معا .

- ١٠ -

سرت جيما كثيرا لرؤية سانين مرة أخرى ، واستقبلته السيدة ليونور بكثير من المودة والترحيب . **فكان واضحا أنه ترك فى نفس المرأتين أثرا طيبا منذ الليلة البارحة ..** وأسرع ايمليو يوصى باحضار طعام الافطار ، بعد ان ذكر سانين مرة ثانية بالوعد الذى قطعه على نفسه ؛ وهو أن يدافع عن قضيته أمام أمه . فقال سانين للفتى :

ـ لن أنسى ذلك .. اطمئن !

وكانت صحة السيدة ليونور متوعكة بعض الشىء ، اذ كانت تشكو من صداع فى رأسها ، مما جعلها تستلقى على المقعد ، محاولة الا تأتى بأية حركة .. وكانت جيما ترتدى قميصا أصفر واسعا ، يشده حزام من جلد أسود . وكان يبدو عليها أنها متعبة قليلا هى الاخرى . فقد كانت شاحبة الوجه ، وكانت تحوط بعينيها هالتان سوداوان . لكن الهالتين لم تستطيعا أن تجردا العينين من بريقهما ، بل أن الشحوب الخفيف كان يضفى على الملامح القاسية فى وجه الفتاة الايطالية سحرا غامضا. على أن الشىء الذى استوقف بصر سانين ـ فى هذه المرة ـ كان جمال يدى الفتاة .. فحين كانت تعدل أو ترفع قرطيها الاسودين اللامعين ، لم يكن سانين ليستطيع أن ينتزع نظراته من تلك الاصابع اللينة

الطويلة المتباعدة ، التى كانت أشبه باصابع « فورناريس » التى صورها « رافائيل » !

وكان الجو فى الخارج شديد القيظ . فلما فرغوا من الطعام ، أراد سانين أن يمضي ، لكن أصحاب المنزل قالوا له أن من الخير للمرء الا يتحرك من مكانه فى مثل هذا الجو الحار . فبقى ، ولم ينصرف .. وكان الجو فى الصالون الخلفى الذى جلس فيه سانين مع أسرة روزيلى رطبا منعشا ، فقد كانت النوافذ تطل على حديقة صغيرة مزروعة بأشجار الاكاسيا ، وكان النحل يدندن أسرابا بين أغصان الاشجار الكثيفة ذات الازهار الذهبية ، فكانت دندنته التى لا تنقطع تنفذ الى الغرفة من خلال المصاريع المشقوقة والستائر المسدلة ، كأنها صوت الحرارة فى الخارج ، فكانت طراوة الغرفة المغلقة المريحة تبدو أكثر انعاشا ومتعة !

وقد اسهب سانين فى الحديث ، كالليلة السابقة ، لكن حديثه لم يدر فى هذه المرة حول روسيا أو الحياة الروسية . ذلك أنه ، وقد أراد أن يخدم صديقه الفتى ـ الذى كان قد بعث به بعد الافطار الى السيد كلوبر ليتعلم فى متجره فن مسك الدفاتر ـ قد حرص على تركيز كلامه فى مزايا كل من التجارة والفن . **ولم يدهشه أن رأى السيدة ليونور تؤثر التجارة على الفن ، فذلك أمر كان يتوقعه ، لكن الذى أثار دهشته هو أن جيما كانت تشارك أمها الرأى .** فقد قالت الفتاة وهى ترفع يدها بحركة عنيفة :

ـ من أراد أن يصبح فنانا ـ وموسيقيا بوجه خاص ـ عليه أن يحتل المكانة الاولى .. أما أن يكون فى المقام الثانى ، فذلك أمر لا قيمة له .. ولكن ، أنى للمرء أن يعرف أنه قادر على أن يحتل المكان الاول ؟ !

وما لبث بانتاليون أن اشترك فى الحديث ، فأعلن أنه من أنصار الفن . وكانت حججه واهية ـ والحق يقال ـ فانه لم يزد على أن قرر أن أهم شيء هو أن يؤتى المرء شعلة الالهام .. ثم تدخلت السيدة ليونور فى الحديث ، فقالت :

ـ لا شك فى أن بانتاليون كان قد أوتى هذه الشعلة ، ومع ذلك ..

فأجاب بانتاليون يقول فى أسى :

ـ لقد كان لى أعداء كثيرون !

ـ وانى لك أن تعرف أن ايمليو لن يكون له أعداء هو الآخر ، وان يكن قد أوتى هذه الشعلة !

فقال بانتاليون فى حسرة :

ـ فاجعلى منه تاجرا اذن . لكننى أؤكد لك أن جيوفانى باتستا ما كان له أن يفعل هذا لو كان حيا ، رغم أنه كان هو نفسه صاحب متجر للحلوى

ـ لقد كان زوجى جيوفانى باتستا رجلا عاقلا ، وان انزلق أثناء شبابه فى بعض الامور

ولم يشأ بانتاليون أن يمضى فى الحديث اكثر من ذلك ، فخرج من الغرفة وهو يردد بلهجة عاتبة : « رحمة الله عليك يا جيوفانى باتستا ! » . واذ ذاك هتفت جيما :

ـ لو أن ايمليو كان يشعر فى قلبه بالنزعة الوطنية ، ويحرص على أن يقف جميع جهوده على انقاذ ايطاليا ، اذن لكانت هذه المهمة المقدسة تستحق منه أن يغامر بمستقبله . أما فى سبيل المسرح ، فلا .. ! »

فلما سمعت السيدة ليونور هذا الكلام ، استبد بها القلق ، فتوسلت الي ابنتها الا تضلل أخاها ، وحسبها أن

تكون هى من أنصار الجمهورية .. وما ان قالت السيدة ليونور هذا الكلام ، حتى أخذت تتأوه ، وتشكو من صداع حاد يسبب لها ألما لا يحتمل . فأسرعت جيما تعنى بأمها ، فراحت تبلل جبينها بماء الكولونيا ، وتمسحه بانفاسها ببطء ثم قبلت خديها فى رفق، ووضعت رأسها على الوسادة ، بعد أن منعتها من الكلام ، وعاودت تقبيلها . ثم التفتت نحو سانين ، وأخذت تثنى على أمها بصوت يختلط فيه الانفعال بالمزاح ، قائلة :

– ليتك تعلم كم هى طيبة ، وكم كانت جميلة ! .. ماذا أقول ؟ انها ما تزال جميلة ، أنظر الى عينيها !

قالت جيما ذلك ، وأخرجت من جيبها منديلا أبيض ، غطت به وجه أمها ، ثم أخذت تهبط به شيئا فشيئا ، حتى كشف عن الجبين ، فالحاجبين ، فالعينين ، واذ ذاك رجت أمها أن تفتح عينيها . فأطاعتها السيدة ليونور ، فلم تتمالك جيما من أن تطلق صيحة اعجاب .. والحق أن عينى السيدة ليونور كانتا فاتنتين فعلا . غير ان الفتاة تركت المنديل الابيض يخفى الجزء الاسفل من وجه أمها – اذ كان أقل تناسقا من القسم الاعلى – وراحت تغرق أمها بالقبل مرة أخرى .

فكانت مدام روزيلى تنفجر ضاحكة ، وتشيح بوجهها ، متظاهرة بأنها تريد أن تدفع ابنتها عنها . وكانت جيما ، من جهتها ، تتظاهر بأنها تغالب أمها ، لا بمداعبات خفيفة على غرار ما يفعله الفرنسيون ، وانما بتلك الرشاقة الايطالية التى تفيض قوة ونشاطا !

على أن السيدة ليونور اعلنت أخيرا أنها بدأت تحس بالتعب . فنصحتها جيما بأن تغفو فى مقعدها ، ووعدتها بأن تلتزم هى والسيد الروسى السكينة التامة أثناء قيلولتها .

فأجابتها السيدة ليونور بابتسامة ، ثم تنهدت قليلا، وراحت فى سبات .. وجلست جيما على مقعد صفير قرب أمها ، وظلت ساكنة لا تتحرك . وكانت كلما لاحظت أن سانين يهم بأن يأتى بادنى حركة ، بين الحين والآخر ، وضعت اصبع احدى يديها على فمها ، بينما طفقت تسند باليد الاخرى الوسادة وراء رأس أمها ، وتهمس بصوت لا يكاد يسمع ببضع كلمات ، وهى تنظر الى سانين من طرف عينيها .. وما لبث سانين أن اخلد الى السكينة هو الآخر ، حتى لبدا وكأنه قد نوم تنويما مغناطيسيا . وراح يعجب من أعماق نفسه بتلك اللوحة الرائعة : غرفة معتمة قليلا ، وأزهار نضرة جميلة مبعثرة هنا وهناك وكأنها نقاط حمراء متقدة ، وقد استقرت فى آنية قديمة خضراء اللون ، وهذه المرأة المستلقية الثانية يديها فى وقار بالغ ، ووجهها الطيب يحف به فى اطار جميل بياض الوسادة الناصع كالجليد، وأخيرا هذه المخلوقة الشابة التى تحنو عليها بكل ما فى قلبها من عطف وحب ، فى حنان ما بعده من حنان ، وطهر يمس شغاف القلوب ، وقد اشرق وجهها بفتنة تجل عن الوصف ، وعينين سوداوين ، عميقتين ، مليئتين بالظلال ، وتشعان ـ مع ذلك ـ بريقا ولمعانا .. وتساءل سانين : أين أنا ؟ .. أهذا حلم ؟ .. أهى قصة خرافية ؟ .. ما الذى جاء بى الى هنا ؟

- ١١ -

ذق جرس الباب ، وذلف الى الحانوت فلاح ، يرتدى صديرية حمراء وقبعة من الفراء . وكان اول عميل يفد الى الحانوت فى ذلك اليوم .. وكانت السيدة ليونور ما تزال نائمة، وكانت جيما تخشى أن توقظها اذا هى سحبت ذراعها . فقالت للشاب الروسى بصوت خافت :

ــ هل لك أن تستقبل العميل عنى ؟

فخرج سانين من الغرفة على أطراف أصابعه ، وتوجه الى الحانوت .. وكان الفلاح فى حاجة الى ربع كيلو من مكسرات النعناع ، فعاد سانين الى جيما ، وسألها من خلال شق الباب بصوت خافت :

ــ كم يجب أن آخذ منه ؟

فقالت له جيما هامسة :

ــ ستة قروش !

وبعد أن وزن سانين ربع كيلو المكسرات ، أخذ يبحث عن ورقة ليغلف بها البضاعة حتى وجدها ، فصنع منها كيساً ، وضع فيه المكسرات ، فكانت تتناثر منه هنا وهناك ، لكنه استطاع أخيرا ، فى كثير من العناء ، أن يدخلها فى الكيس ، ثم دفع بها الى المشترى ، وقبض منه الثمن . وكان الرجل ينظر الى سانين فى ذهول ، وقد راح يدير قبعته فوق صدره ، بينما كانت جيما ، فى الغرفة المجاورة ، تضع يدها على فمها لتخنق ضحكها العنيف .. وما ان خرج العميل ، حتى دخل ثان ، فثالث ، فقال سانين لنفسه : « لا شك اننى محظوظ !» . وقد طلب المشترى الثانى قدحا من شراب اللوز ، على حين طلب الثالث نصف كيلو من المكسرات . واستطاع سانين أن يلبى رغبات جميع العملاء ، فكان يدير الملاعق فى الاقداح بقوة ، ويهز الاطباق ، ويخرج الفطائر الجافة وقطع الحلوى من الاوانى والعلب فى كثير من الهمة والحماسة . فلما حسب النقود بعد ذلك ، أدرك أنه باع شراب اللوز بأقل من سعره ، وانه باع الحلوى أغلى من ثمنها بقرشين .. وكانت جيما ما تزال تضحك ، وكان سانين نفسه يشعر بمرح لا عهد له بمثله من قبل ، ويحس بسعادة غامرة ، حتى

لقد خيل اليه أنه يتمنى لو عاش حياته كلها فى الحانوت يبيع الحلوى وشراب اللوز ، بينما ترنو اليه تلك الفتاة الجميلة بعينين ماكرتين فى مودة وصداقة ، وتنفذ شمس الصيف من خلال أوراق الاشجار الكثيفة ، فتملأ الغرفة بأشعتها الذهبية المائلة الى الخضرة ، فيذوب قلبه من نشوة الخمول ، والاسترخاء ، والحب !

وطلب العميل الرابع قدحا من القهوة . فكان لا بد لسانين فى هذه المرة من أن يلجأ الى بانتاليون ، فسأله أن يلبى طلب الرجل، ثم مضى هو الى مكانه قرب جيما. وكانت السيدة ليونور ما تزال نائمة ، وكانت ابنتها مرتاحة لنومها ، حتى لقد قالت لسانين :

– حين تنام أمى ، يزول صداعها فورا !

وعاد سانين يتحدث عن « تجارته » بصوت خفيض ، فسأل عن أسعار البضاعة فى جد واهتمام ، فكانت جيما ترد على أسئلته بهذه اللهجة نفسها ، على انهما كانا – مع ذلك – يحسان فى قرارة نفسيهما أنهما يمثلان دورا من الادوار .. وفجأة دوى فى الشارع صوت أرغن يعزف عليه لحن « فرايشوتز » .. « من خلال الجبال ، من خلال السهول» ، وانبعث هادرا مزمجرا ، فى الجو الساكن الهادىء. فانتفضت جيما . وقالت : « ان هذه الموسيقى ستوقظ أمى ! » . فهرع سانين الى الشارع ، ودفع بحفنة من النقود الى عازف الارغن ، ثم رجاه أن يبتعد عن المكان . فلما عاد الى الغرفة ، شكرته جيما بايماءة خفيفة من رأسها ، وأخذت – وهى تبتسم ابتسامة ساهمة – تدندن هى نفسها لحن « فيبر » العذب الذى يعبر فيه « ماكس » عن شكوى الحب الاول . ثم سألت سانين ما اذا كان يعزف لحن

فرايشوتز ، ويحب فيبر ، ولم تنتظر جوابه بل أضافت انها تؤثر هذه الموسيقى على كل ماعداها ، رغم كونها ايطالية !

وانتقل الحديث بعد ذلك من الموسيقى الى الشعر ، الى الرومانسية ، ثم الى قصص «هوفمان» التى كانت رائجة فى ذلك الوقت .. وكانت السيدة ليونور ما تزال نائمة ، حتى لقد كانت تغط قليلا فى نومها ، بينما كانت الاشعة ، التى تتسلل من خلال النافذة حزما ضيقة مائلة ، تتحرك بلا انقطاع ، ملامسة أرض الغرفة ، وقطع الاثاث ، وثوب جيما ، وأوراق الازهار !

- ١٢ -

لم تكن جيما مشغوفة بحكايات « هوفمان » ، بل كانت تراها سخيفة مضجرة . فقد كانت طبيعتها الواضحة التى هى من طبيعة أبناء الجنوب ، تنفر من ذلك الجانب الغامض الخيالى الذى تتميز به هذه القصص . فكانت تقول فى شيء من الازدراء : « ان هذه الحكايات لا تصلح الا للأطفال ! » .. وكانت تصف المؤلف بأن آثاره يعوزها الشعر . غير أن قصة واحدة من قصصه كانت تعجبها كثيرا ، وخاصة بدايتها ، اذ انها كانت قد نسيت الخاتمة ، ولعلها لم تكن قد قرأتها أصلا .. أنها قصة فتى يلتقى عرضا — ربما فى متجر للحلوى — بفتاة يونانية باهرة الجمال ، كان يصحبها عجوز غريب يكتنفه الغموض والابهام . **فما ان وقع بصر الفتى على الفتاة حتى أحبها ، ونظرت هى اليه نظرة متوسلة مستعطفة ، كأنها تسأله أن ينقذها ..**

وخرج الفتى بضع لحظات ، فلما عاد وجد أن الفتاة والعجوز قداختفيا ، فهرع فى اثرهما يحاول أن يلحق بهما ، لكن جميع جهوده ذهبت ادراج الرياح ، فلم يعثر لهما على أثر .. لقد أضاع الفتاة الى الابد !.. بيد انه لم يستطع

أن ينسى قط نظرتها المتوسلة الضارعة ، فظلت الحسرة تهصر قلبه والندم يشمل كيانه لتركه سعادة حياته كلها تفر من بين يديه.. على ان خاتمة القصة التى كتبها هوفمان لم تنته على النحو الذى روته الفتاة ، لكن ذلك ما بقى منقوشا منها فى ذاكرة جيما .. واستطردت جيما تقول : «يخيل الى أن مثل هذا اللقاء والفراق ، يقعان فى الحياة أكثر مما نظن .. » ولم يجب سانين على ملاحظتها بشىء ، لكنه ما لبث أن نقل الحديث الى الكلام عن السيد كلوبر !

وكانت تلك أول مرة يتحدث فيها عن كلوبر ، بل انه لم يتفق له من قبل أن فكر فى خطيب جيما .. ولم تجب الفتاة بشىء أيضا ، بل ظلت واجمة شاردة الذهن ، وهى تعض أظافرها عضا خفيفا ، وتغض من بصرها . ثم أخذت تثنى على خطيبها ، مشيرة الى النزهة التى رسم خطتها لليوم التالى ، لكنها عادت الى صمتها مرة أخرى ، وقد ألقت على سانين نظرة تفيض حرارة وحياة .. ولم يجد الفتى الروسى فى هذه المرة ما يقوله .. وسرعان ما دخل ايميليو الى الغرفة راكضا ، مثيرا من الصخب ما أيقظ أمه من نومها . وفرح سانين بوصول صديقه الصبى . وان هى الا لحظات حتى نهضت السيدة ليونور من مقعدها ، ثم دخل بانتاليون ليقول ان المائدة قد أعدت .. لقد كان صديقا للاسرة ، ومغنيا قديما ، وخادما .. وفضلا عن ذلك ، كان طاهيا لا يشق له غبار !

- ١٣ -

بقى سانين مع الاسرة للغداء . وما لبثوا ان تشبثوا به بعد الغداء أيضا بحجة أن الحر كان شديدا ، فلما انخفضت الحرارة ، دعوه الى الحديقة لتناول القهوة تحت ظلال أشجار الاكاسيا . وقبل سانين الدعوة على الفور ، اذ كان

يحس أن السعادة تملأ قلبه.. لقد كانت الحياة تسير اذ ذاك سيرا هادئا رائعا ، فاستسلم سانين لفتنتها سعيدا قرير العين ، ولم يطلب من اللحظة الراهنة شيئا آخر ، بل ولم يفكر فى المستقبل ، ولا ينشغل بالماضى قط . فأين عساه يجد من السحر مثلما يجده فى صحبة تلك المخلوقة التى تستحوذ على القلوب استحواذا ؟ .. لقد كان عليه أن يفارقها بعد قليل ، وأغلب الظن أنه لن يراها بعد ذلك أبدا ، فطفق يردد لنفسه ما ورد فى أغنية « أوهلاند » ، اذ يحمل الشاب والفتاة على أمواج الحياة مركب واحد : « **افرح واستمتع بالحياة ، أيها المسافر !** » .. وكان كل شىء يبدو للمسافر السعيد جميلا رائعا !

واقترحت عليه السيدة ليونور أن يتبارى معها ومع بانتاليون فى لعبة « التريزيت » ــ وهى لعبة بسيطة غير معقدة من ألعاب الورق التى يحبها الايطاليون ــ فربحت منه بعض المال ، وأحس سانين من جراء ذلك بسعادة كبيرة . وسرعان ما استجاب بانتاليون لطلب ايمليو ، فأمر كلبه تارتاجليا بتنفيذ جميع الحركات التى يعرفها ، فقفز تارتاجليا فوق عصا ، وأخذ ينبح ويعطس ، ثم أغلق الباب برأسه ، وجاء بخف سيده القديم ، ولما ألبسوه معطفا ، بدأ يمثل دور « الجنرال برنادوت » حين راح نابليون يصب عليه أقذع اللوم وأقساه لما ارتكبه من خيانة .. وكان بانتاليون هو الذى يمثل دور نابليون ، وكان فى تمثيله أمينا نوعا ما ، فقد كتف ذراعيه ، ووضع فوق عينيه قلنسوة ذات ثلاثة قرون ، وأخذ يقرع « الجنرال » باللغة الفرنسية فى غضب وحنق .. ويا لها من لغة فرنسية ، تلك التى كان يتكلمها بانتاليون ! .. وقد جلس تارتاجليا ، خافض الذيل ، أمام « امبراطوره » ، وأخذت عيناه تطرفان وجلا تحت حافة المعطف المائل ، حتى

اذا رفع « نابليون » صوته بين الحين والآخر ، نهض « برنادوت » واقفا على قائمتيه الخلفيتين . وكان بانتاليون يصيح فى الكلب باللغة الايطالية : « اذهب أيها الخائن ! » ، ناسيا فى غمرة غضبه أن عليه أن يحافظ على طابعه الفرنسى .. وكان « برنادوت » يختبىء تحت الديوان ، ثم لا يلبث أن يعود وهو ينبح نباحا فرحا ، يدل على أن التمثيل قد انتهى. وكان المتفرجون يضحكون ملء أشداقهم حتى لتدمع عيونهم ، وكان سانين أكثرهم ضحكا وسعادة . وكانت لجيما ضحكة خلابة ترسلها متصلة بطيئة ، وتقطعها صيحات ضعيفة شاكية لا تخلو من حلاوة . **فكان سانين يسكر نشوة من تلك الضحكة ، حتى ليكاد يتمنى أن يغرق وجه الفتاة بالقبلات كلما سمع صرخة من صرخاتها العذبة ..** ولكن ما اسرع أن هبط الليل ، وآن للشاب أن ينصرف !

واستأذن سانين أصحابه فى الانصراف ، وراح يردد لكل منهم مكررا : « الى غد ! » . حتى أنه قبل ايمليو ، وانصرف حاملا فى خياله صورة الفتاة ، ضاحكة تارة ، مطرقة هادئة أو غير مبالية تارة أخرى ، فائضة سحرا فى جميع الاحوال. وكانت عيناها اللتان تتسعان وتضيقان ، ويلمع فيهما بريق المرح كأنهما النهار ، ثم تحجبهما الاهداب وتظلمان كأنهما الليل ، ماثلتين أمامه فى كل لحظة ، وكانتا تبثان اضطرابا غريبا فى نفسه ، وتحجبان فى ذهنه كل ما عداهما من صور وافكار . بيد انه لم يتفق له قط ـ ولو مرة واحدة ـ أن خطر بباله السيد كلوبر ، ولا الاحداث التى كانت تحمله على البقاء فى (فرنكفورت) ، بل أن كل ما كان يشغله ويقض مضجعه فى الليلة السابقة ، قد زال من نفسه تماما !



ثم تناول « سانين » الفرشاة ، وأخذ يدلك بها صدر الفتى ويديه
بكل قوته (صفحة ١٣٠)

- ١٤ -

كان سانين شابا وسيما ، فارع القامة ، رشيقها ، ذا قسمات لطيفة هادئة ، وعينين ضاربتين الى الزرقة تفيضان طيبة ، وشعر ذهبى ، وبشرة بيضاء متوردة . ولعل ما كان يميزه قبل كل شيء ، هو ذلك الذى كان يتبدى على وجهه من معانى المرح الصادق المشوب بالسذاجة ، وتلك الضحكة الواثقة المشرقة التى كان يعرف بها فى الماضى ـ لاول وهلة ـ أبناء الطبقة النبيلة الصغيرة من الفلاحين الروس . وقد كان أبناء تلك الاسر من الشبان الطيبين الصالحين الذين ولدوا وترعرعوا فى حرية بين ربوع بلاد تنتشر فيها المراعى المترامية الاطراف !

وكانت لسانين مشية تنبىء عن قلق صاحبها ، وصوت يصفر قليلا ، وكان متى نظر اليه أحد ، يرد على النظرة بابتسامة أشبه بابتسامة طفل. وكان جسمه يفيض نضارة وصحة ، غير ان وجهه كان يتميز قبل كل شيء بالرقة والنعومة . **وما كان ليعوزه الذكاء ، وقد تعلم العديد من الامور ، واحتفظ بنضارة تفكيره** . أما العواطف التى كانت تقلق نفوس الصفوة من الشبيبة الروسية فى ذلك الحين ، فانها لم تجد الى نفسه سبيلا .. ولقد اخذ الروائيون الروس فى الآونة الاخيرة ، اذ أعياهم البحث عن شخصيات جديدة لمؤلفاتهم ، يصورون شبانا يتباهون قبل كل شيء بالحيوية ، لكنها حيوية أشبه ما تكون بنضارة أسماك الصدف التى يؤتى بها من (فلنسبورج) الى (بطرسبرج) .. على ان سانين لم يكن من ذلك الطراز من الشبان . وما دمنا بصدد التشبيه والمقارنة، فلنقرر ان سانين كان كشجرة تفاح كبيرة فى بستان روسى تحرث تربته ، أو كحصان قوى فى السنة الثالثة من عمره ، قد أحسن علفه ، ورق وبره ،

وقويت ساقاه ، ولم يتم ترويضه بعد . بيد ان الذين التقوا بسانين بعد ذلك ـ وقد حطمته الحياة ، ففقد نضارة شبابه الاول ـ عرفوا فيه انسانا آخر مختلفا كل الاختلاف !

وفى صباح اليوم التالى ، كان سانين ما يزال فى فراشه ، حين دخل عليه ايمليو مرتديا ثياب يوم الاحد ، حاملا بيده عصا ، مسرفا فى التعطر . وقد أقبل مهرولا ، ولم يكد يرى صديقه حتى أخبره بأن السيد كلوبر سيصل بالعربة عما قليل ، وان الجو يبشر بأن اليوم سيكون مشرقا جميلا ، وأن كل شىء قد أعدت عدته ، لكن أمه لن تستطيع مصاحبتهم فى النزهة ، لان الصداع كان قد عاودها . ثم حثه على الاسراع فى ارتداء ملابسه ، حرصا على عدم اضاعة الوقت .. وان هى الا لحظات ، حتى وصل السيد كلوبر قبل أن يفرغ سانين من زينته ، فقرع الباب ، ودخل ، وحيا سانين وقد أحنى جسمه انحناءة شديدة ، ثم أبلغه انه مستعد لان ينتظره طالما شاء ، ولم يلبث أن أخذ مكانه على احد المقاعد ، ثم وضع قبعته على ركبته فى رشاقة !

ويبدو ان صاحب المتجر ، الذى كان أنيقا مسرفا فى الاناقة ، كان قد سكب على نفسه قارورة كاملة من العطر ، حتى لقد كانت كل حركة يأتيها تبعث وراءها تيارا من العبق الناعم العذب .. وقد قدم فى عربة مكشوفة ذات أربعة مقاعد ، يجرها حصانان كبيران قويان .. ولم ينقض ربع ساعة ، حتى كان سانين وكلوبر وايمليو يصلون مهللين أمام رصيف متجر الحلوى . وقد رفضت السيدة روزيلى فى اصرار أن تشترك معهم فى النزهة . فلما ارادت جيما أن تبقى معها ، دفعتها أمها الى الخارج عنوة ، وقالت لها :

ـ لست فى حاجة الى أحد يبقى معى ، فاننى أريد أن أنام

.. وقد كنت أود لو أرسلت معكم بانتاليون ، لولا انه يتحتم وجود أحد بالمتجر !

وسأل أيمليو والدته :

ـ هل نستطيع أن نأخذ تارتاجليا معنا ؟

ـ طبعا يا بنى !

وقفز تارتاجليا فورا وهو يثب من الفرح ، فجلس على المقعد الى جانب الحوذى ، وأخذ يلعق شفتيه، فكان واضحا أنه قد اعتاد مثل هذه النزهات .. وكانت جيما تضع على رأسها قبعة من القش مزدانة بشرائط بلون القرفة ، وكانت حافة القبعة تنثنى على الجبهة لتحمى الوجه كله من الشمس ، فكان الظل ينتهى عند الشفتين اللتين كانتا تصطبغان بحمرة محببة، وكأنهما بعض أوراق احدى الزهور، بينما كانت أسنانها ترسل بريقا غامضا ، فى براءة كبراءة الاطفال . وجلست جيما فى مؤخرة العربة مع سانين ، على حين أخذ كلوبر وايمليو مكانهما وجها لوجه أمامهما . وقد ظهر وجه السيدة ليونور شاحبا فى النافذة ، فلوحت لها جيما بمنديلها ، وانطلق الجوادان بالعربة !

- ١٥ -

(سودن) مدينة صغيرة فى ضواحى (فرنكفورت) ، تقع فى مكان جميل عند سفح أحد فروع جبل (تاونوس) ، وقد اشتهرت فى روسيا بمياهها التى يقال انها تفيد من يشكو ضعفا فى الرئة .. ويذهب سكان فرنكفورت الى (سودن) التماسا للتسلية . ففيها حديقة جميلة غناء ، وفيها مقاصف شتى يستطيع المتنزهون ان يتناولوا فيها البيرة والقهوة ، تحت ظلال أشجار الزيزفون الباسقة وأشجار الجميز .. والطريق من فرنكفورت الى سودن

يحازى الضفة اليمنى من نهر (الماين) ، وهو مفروس من أوله الى آخره بالاشجار المثمرة .

وفيما كانت العربة تسير الهوينى على الطريق الممهد ، كان سانين يرقب خلسة سلوك جيما مع خطيبها - فقد كان يراهما معا لاول مرة - فلاحظ أن الفتاة هادئة طبيعية ، وأن تكن أكثر تحفظا ورصانة من مألوف عادتها . وكان يبدو على كلوبر مظهر رئيس متواضع ، قد أباح لنفسه ولمرءوسيه متعة معتدلة مناسبة . ولم يلمس سانين فى خطيب جيما أى لهفة أو اندفاع . فلقد كان واضحا ان السيد كلوبر يعد زواجه امرا مفروغا منه ، لا يستوجب ادنى قلق او انشغال!

على ان السيد كلوبر لم يبارحه شعوره بالتفوق لحظة واحدة .. ففى أثناء نزهة طويلة قاموا بها قبل الغداء حول الغابة ، وفى الجبال والوديان التى تحيط بمدينة سودن ، كان السيد كلوبر ، حين يظهر اعجابه بمفاتن الطبيعة ، يعامل خطيبته فى تواضع يمازجه شعور بالتفوق . فكان لا يفتأ يعلن أن تلك الساقية كان ينبغى لها الا تجرى على خط مستقيم ، وانما كان من الافضل أن تتعرج وتنثنى ، فيكون منظرها أجمل وأروع ، وان ذلك العصفور كان يحسن به الا يجرى فى تغريده على وتيرة واحدة ، وانما كان يجب أن ينوع أنغامه !!

ولم يبد على جيما أنها كانت تضيق بالنزهة ، بل لقد بدا عليها أنها مسرورة بها . ومع ذلك فقد أحس سانين أن جيما اليوم غيرها بالامس .. حقيقة انه لم يلمح على وجهها أمارات الحزن والكآبة ، ولا كان جمالها أكثر اشراقا فى يوم من الايام منه فى ذلك اليوم ، الا أنها كانت منطوية على نفسها بشكل واضح . وكانت تسير الهوينى ، وقد فتحت مظلتها ولبست قفازيها ، وكانت تخطر فى خطوات هادئة

ليس فيها تعجل، كما تخطر الفتيات اللواتى أحسن تهذيبهن ورقت حاشيتهن . وكانت لا تتكلم الا قليلا .. اما ايميليو فكان يبدو أنه غير مرتاح كل الارتياح هو الآخر . ولم يكن سانين بأكثر منه ارتياحا أيضا ، فقد كان عليه - بحكم الضرورة - أن يتحدث بالالمانية طوال الوقت . وكان تارتاجليا يحس وحده بأنه حر طليق .. فقد راح يلاحق الطيور وهو يرسل نباحا مجنونا ، وكان يقفز فوق الحفر وجذوع الاشجار المقطوعة، ويغطس فى جداول المياه، ويتلقف الطعام شرائح كبيرة ، ويهتز ويقفز ، ثم يمضى سريعا وقد مد لسانه الاحمر حتى بلغ كتفه !

وكان السيد كلوبر يعمل من جانبه كل ما يراه لائقا لادخال السرور على قلوب صحبه . فلم يلبث أن دعاهم الى الجلوس فى ظل شجرة كبيرة من أشجار السنديان ، وأخرج من جيبه كتابا صغيرا عنوانه : « صواريخ ، أو يجب أن تضحك وستضحك حتما » ، ثم أخذ يقرأ فيه النوادر والفكاهات لتسلية رفاقه . بيد انه قرأ ما يزيد على عشر نوادر ، دون أن يستطع اضحاك أحد . وكان سانين وحده ، يرى أن عليه ، من باب اللياقة ، ان يبتسم عند ختام كل أقصوصة من تلك الاقاصيص، التى كان السيد كلوبر نفسه يختمها بضحكة مقتضبة هادئة ، يكتنفها أيضا شىء من التواضع !

ولما أزفت ساعة الظهيرة ، قصد السيد كلوبر وضيوفه الى أحد مطاعم المدينة . وكان عليهم أن يختاروا ما يروقهم من طعام . فاقترح السيد كلوبر أن يتناولوا غداءهم فى « صالون » الحديقة ، وهو جناح مغلق منعزل . وسرعان ما اعترضت جيما ، معربة عن رغبتها فى ان تتناول الطعام فى الحديقة ، حيث الهواء الطلق ، وان تجلس على احدى

الموائد الصغيرة فى واجهة المطعم ، مبررة رغبتها بأنها قد سئمت أن تظل دواما مع أشخاص بعينهم ، وانها تريد أن ترى وجوها جديدة . ومع ان معظم الموائد كان مشغولا ، فقد أذعن السيد كلوبر ل « نزوة » خطيبته . وفيما كان يتحدث على انفراد مع رئيس الخدم ، كانت جيما تقف ساكنة ، وقد خفضت عينيها ، وعضت على شفتيها . فقد كانت تحس أن سانين يرقبها بلا انقطاع ، فبدت وكأنها مستاءة من نظراته المستمرة !

وعاد السيد كلوبر أخيرا يقول ان الغداء سيكون معدا بعد نصف ساعة ، واقترح تمضية تلك الفترة فى لعبة الاسطوانات ، باعتبارها لعبة تفتح الشهية للطعام . فكان يظهر براعة فائقة فى اللعب ، وكان حين يرمى الكرات يتخذ أوضاعا هرقلية ، مستخدما جميع عضلاته ، رافعا ساقه قليلا فى الوقت نفسه . فبدا رجلا رياضيا مفتول الجسم حسن الشكل .. وكان من المستحيل على المرء أن يرى أنصع بياضا وأشد نعومة من يديه !

وحل موعد الطعام أخيرا ، واستطاعت الجماعة أن تجد لها مكانا حول مائدة صغيرة !

- ١٦ -

كان الغداء الذى تناوله أعضاء الرحلة يتألف من الالوان الالمانية التقليدية .. فقد كان يشتمل على حساء فيه كريات كبيرة من العجين ، ولحم مسلوق جاف كأنه السدادة ، يسبح فى دهن أبيض لزج ، وتحف به البطاطس ملطخة ومعها فجل مبشور ، وطبق من السمك المسقى بالخل والمضاف اليه بعض الكزبر ، ثم لحم مقلى يقدم مع المكسرات ، وتعقبه تلك الحلوى التى لا بد منها والتى تسمى

« ميلشبايزى » ، وهى نوع من البالوظة يضاف اليها سائل أحمر لاذع . على أن الخمر والبيرة كانتا ، على العكس من ذلك ، من أطيب الاصناف وأفخرها .. وقد جرى كل شىء فى جو من الكلفة التامة ، فلم يكن ثمة حرارة او حماس يسود بين الحاضرين ، حتى انه حين رفع السيد كلوبر كأسه قائلا : « لنشرب نخب من نحب » : لم يكد أحد يتجاوب معه أو يبدى ميلا الى الشراب على الاطلاق . حتى اذا انتهى الطعام ، قدمت لهم قهوة صفراء رائقة ، تخصصت ألمانيا فى صنعها . ثم طلب السيد كلوبر من خطيبته - فى كثير من الادب - أن تأذن له بتدخين سيجار !

ولم يلبث أن وقع أمر لم يكن فى الحسبان ، سرعان ماأثار انزعاج الرفاق واستنكارهم .. ذلك ان عددا من ضباط حامية مدينة (ماينتس) كان يجلس الى مائدة مجاورة . وكان من الميسور على المرء أن يدرك ، من اتجاه نظراتهم ومن همساتهم ، ان جمال جيما قد بهرهم ! .. وكان واحد منهم - بوجه خاص - لايحول بصره عن الفتاة قط ، وكأنه كان يعرفها حق المعرفة . وكان هؤلاء الضباط قد شربوا وأسرفوا فى الشراب ، اذ كانت مائدتهم مغطاة بالزجاجات الفارغة . وفجأة ، نهض الضابط الذى كان لا يكف عن النظر الى جيما ، وقد أمسك بقدحه ، واتجه الى المائدة التى كانت تجلس اليها الفتاة الايطالية .. وكان شابا فى مقتبل العمر ، أشقر الشعر ، جميل القسمات ، لطيف الملامح ، لكن الشراب كان قد شوه وجهه ، فجعل وجنتيه غائرتين ، وعينيه ملتهبتين ، وقد تبدى فيهما شىء من القحة والصفاقة .

وقد حاول رفاقه - فى أول الأمر - أن يصدوه ، لكنهم مالبثوا ان تركوه قائلين : « ليكن ما يكون ! » . فلما وصل

الى جيما ، وقف أمامها وقد انثنت ساقاه قليلا ، وصاح بصوت جهورى مرتعد ، تدل نبراته على صراع داخلى :

ـ أشرب نخب أجمل بائعة عصير ليمون فى فرنكفورت ، وفى العالم بأسره !

وبعد أن أفرغ الكأس فى جوفه دفعة واحدة ، استطرد قائلا :

ـ وآخذ هذه الوردة التى قطفتها أصابعها الالهية !

ثم تناول وردة كانت على المائدة أمام جيما .. وذهلت الفتاة ازاء تصرف الضابط الثمل ، واذا بوجهها يمتقع امتقاعا شديدا وقد لاحت عليه أمارات الذعر والفزع . ثم حل الاستياء والاستنكار محل الالتياع ، فاصطبغ وجهها بحمرة قانية ، وطفقت نظراتها تنقض على الرجل الذى يهينها انقضاض الصاعقة . وتملك الضابط اضطراب عارم ، فأخذ يتمتم ببعض كلمات مبهمة غير مفهومة ، ثم أحنى رأسه محييا ، وعاد ادراجه الى رفاقه ، فاستقبلوه بضحكات صاخبة وتهنئات مكتومة . واذ ذاك نهض السيد كلوبر واقفا ، فوضع قبعته على رأسه ، وقال فى وقار ، وبصوت غير مرتفع :

ـ هذه وقاحة لم أر مثلها من قبل !

ثم نادى الخادم بصوت قاس ، وطلب منه أن يوافيه بورقة الحساب فورا . ولم يكتف بذلك ، بل أمر باعداد العربة ، وقال انه ما ينبغى لاناس محترمين أن يعرضوا أنفسهم للمهانة فى المحال العامة .. وكان ايميليو يرتعش من فرط الغيظ والحنق . ثم استطرد السيد كلوبر ، يقول بتلك اللهجة القاسية نفسها :

ـ انهضى يا آنستى ، فليس مكانك هنا .. سندخل الى المطعم فى انتظار العربة .

ونهضت جيما دون أن تنبس بكلمة . وقدم اليها السيد كلوبر ذراعه ، فتناولتها ، واتجه معهـا صـوب المطعم فى خطوات مختالة ، راحت تزداد اختيالا وكبرياء مع ابتعاده عن المكان . وتبعهما المسكين أيمليو .. وفيما كان السيد كلوبر ينقد الخادم حسابه ـ بعدان اقتطع منه «البقشيش» على سبيل الغرامة ـ كان سانين يمضى مسرعا نحـو مائدة الضباط .. وكان الضابط الذى أهان جيما يقرب الوردة ، التى انتزعهـا لفـوره من أمام الفتـاة ، من أنوف رفاقه ليستروحون رائحتها ، فاتجه اليه يخـاطبه بالفرنسـية ، قائلا بصوت واضح :

ـ ان ما صنعته ، يا سيدى ، لا يليق بانسان شريف ، ولا يليق باللباس العسكرى الذى ترتديه ، وانما جئت اليك الآن لأقول لك انك انسان صفيق وقح !

فانتفض الضابط الشاب من مجلسه ، لكن أحد رفاقه ـ وكان ضابطا أكبر منه سنا ـ أمسك به ، وأرغمـه على الجلوس ، ثم اتجه الى سانين ، وقال له :

ـ أأنت قريب لهذه الآنسـة ؟ أم تراك شقيقها ؟ .. أم خطيبها ؟

ـ بل أنا رجل أجنبى .. أنا روسى..ولكننى لا أستطيع أن اقف مكتوف اليدين ازاء مثل هـذه الوقاحة ! .. هاك بطاقتى وعنوانى ، وسـيجدنى السيد الضابط مستعدا لمبارزته فى الوقت الذى يشاء !

قال سـانين ذلك ، وهـو يلقى ببطاقته على المائدة ، ثم استولى على الوردة التى كانت قد سقطت اذ ذاك من يـد أحد الضباط فى طبقه . وأراد الضابط المهان أن ينهض مرة أخرى ، لكن رفيقه منعه قائلا :

ـ مهلا يا دنهوف ، مهلا !

ثم قام هو أخيرا ، فرفع يده الى خوذته ، وقال لسانين بلهجة لا تخلو من الاحترام، ان أحد ضباط فرقته سيتشرف بمقابلته فى اليوم التالى . فحياه سانين تحية جافة ، وأسرع يلحق بأصدقائه !

وقد تظاهر السيد كلوبر بأنه لم ينتبه الى غياب سانين ، وانه لم يلحظ مشاجرته مع الضباط . وكان يستحث الحوذى على الاسراع فى اعداد العربة ، ويؤنبه على بطئه . ولم توجه جيما - هى الاخرى - كلمة واحدة الى سانين ، بل انها لم تنظر اليه قط ، بيد انه كان واضحا ، من تقطيب وجهها ، واصفرار شفتيها وانقباضهما ، وصمتها ، انها كانت تعانى ألما شديدا . وكان ايميليو يتمنى لو تحدث الى سانين ، وسأله عن جلية الامر . فقد رآه يدنو من الضباط، ويلقى اليهم بقطعة من الكرتون لاشك انها كانت بطاقته.. وكان قلب الصبى يخفق بشدة ، ووجنتاه باديتى الاحمرار. وكان يتمنى أن يرتمى بين أحضان الشاب ، وأن يبكى على صدره ، ثم يمضى معه فورا ليحطم جميع اولئك الضباط الالمان السفلة . لكنه استطاع أن يكبح جماح نفسه، واكتفى بأن راح يتابع ، فى كثير من الانتباه ، حركات صديقه الروسى النبيل !

***

وانتهى الحوذى أخيرا من أعداد العربة ، فصعدوا اليها جميعا ، واختار ايميليو لنفسه أن يجلس مع تارتاجليا قرب السائق ، فذلك كان أدعى الى راحته ، اذ سيكون هنالك بعيدا عن وجه السيد كلوبر ، الذى أصبح لا يطيق أن يراه دون ان يستبد به الغضب !

وظل السيد كلوبر يتحدث طوال الطريق بغير انقطاع ،

لكنه كان يتكلم وحده ، فلم يكن أحد يعارضه ، أو يوافقه على ما يقول . فأخذ يردد انهم قد أخطأوا اذ لم يتبعوا نصيحته حين اقترح عليهم تناول الفداء فى الصالون ، رغم الحاحه وتشدده ، فلو انهم وافقوه على رأيه لوفروا على أنفسهم تلك المتاعب والمنغصات . ثم مضى يعلن بعض الآراء الجريئة التى راحت تأخذ على الحكومة تساهلها وتهاونها مع الضباط الذين يخلون بقواعد الآداب العامة ، ولا يتورعون عن الاستهتار باحترام الناس ، وأكد بأن مثل هذه الامور انما تولد الاستياء شيئا فشيئا ، ومن الاستياء تخرج الثورة . ثم ضرب مثالا لذلك ماحدث فى فرنسا .. وأطلق السيد كلوبر زفرة هادئة ، لكنها كانت قاسية . واستطرد يقول انه ، شخصيا ، يحترم السلطات كل الاحترام ، وانه لا يمكن اطلاقا أن يكون رجلا ثوريا فى يوم من الايام ، لكن ذلك لا يمنعه من أن يلوم مثل هذا الخروج على الاخلاق لوما صريحا .. واسترسل السيد كلوبر على هذا النحو ، يصدر آراء وأحكاما فيما هو أخلاقى وغير أخلاقى ، وفيما هو لائق وغير لائق ! .

وكانت جيما ، منذ النزهة التى قاموا بها قبل الغداء ، غير راضية عن مسلك السيد كلوبر ، وكانت لذلك السبب عينه متحفظة مع سانين ، فلما استرسل السيد كلوبر فى ذلك الحديث الذى لم يشاركه فيه أحد ، أخذ يتولاها شعور واضح بالخزى تجاه خطيبها .. وفى نهاية الرحلة ، كان من السهل على المرء أن يتبين أنها لم تعد تطيقه ، حتى لقد راحت ترنو الى سانين بنظرات متوسلة ، دون أن تخاطبه بكلمة !

وكان سانين ، من جهته ، يشعر بالاشفاق على جيما أكثر مما يحس بالحنق على السيد كلوبر . وكان فى قرارة

نفسه سعيدا بما حدث – رغم أن ثمة مبارزة كانت تنتظره فى اليوم التالى – دون أن يجد تعليلا واضحا لتلك السعادة التى شملت كيانه .. وانتهت تلك النزهة المزعجة أخيراً . وفيما كان سانين يعاون جيما على النزول من العربة ، دس فى يدها الوردة دون أن يتكلم ، فتضرج وجه الفتاة بشدة ، وشدت على يد الشاب ، ثم أسرعت تخفى الزهرة !

ولم يكن سانين يعتزم العودة الى الحانوت ، رغم ان الوقت لم يكن فى ساعة متأخرة من المساء . فضلا عن ان جيما لم تدعه الى ذلك .. وما لبث بانتاليون ان خرج ليستقبل العائدين عند الباب الخارجى ، وابتدرهم يقول ان السيدة ليونور كانت نائمة . فاستأذن ايميليو صديقه سانين ، وكأنما كان يخشاه من فرط إعجابه به . أما السيد كلوبر ، فقد رافق سانين حتى فندقه . ثم ودعه بتحية فاترة . وكان يشعر بشىء من الانزعاج ، رغم ثباته وشدة اعتداده بنفسه . والحق ان الركب كله كان يحس بانزعاج ، لكن هذا الشعور سرعان ما زال من نفس سانين ، وحلت محله حالة نفسية لا يمكن تحديدها ، ولكنها كانت لذيذة ، ولا تخلو من حرارة وحماس .. وظل سانين يذرع غرفته جيئة وذهابا . لا يريد أن يفكر فى شىء ، وقد راح يصفر أحد الالحان ، وهو يشعر بالارتياح والرضا يملآن قلبه !

- ١٧ -

قال سانين لنفسه وهو يرتدى ملابسه فى صباح اليوم التالى : « سأنتظر الضابط حتى الساعة العاشرة ، فاذا لم يأت حتى ذلك الموعد ، كان فى وسعه أن يجدنى فى المدينة! » .. غير ان الالمان دأبوا على الاستيقاظ فى وقت مبكر ، فما

ان اقتربت الساعة من التاسعة ، حتى جاء الخادم يبلغ سانين بأن السيد الملازم « فون ريشتر » كان يطلب مقابلته !

وأسرع الشاب يرتدى بذلته الرسمية ، ثم أمر بادخال الضابط . وكم كانت دهشته حين رأى أن السيد « فون ريشتر » شاب صغير يكاد أن يكون فتى يافعا . وقد حاول الفتى أن يضفى على تعبير وجهه - الذى لم تنبت لحيته بعد - شيئا من الصرامة ، لكنه لم ينجح فى ذلك ، ولا استطاع أن يخفى اضطرابه الشديد . حتى انه حين جلس على أحد المقاعد ، تعثر فى سيفه ، وكاد أن يسقط على الارض . ولم يلبث ان أخبر سانين - فى كثير من التردد والتلعثم - انه جاء ، باسم رفيقه البارون « فون دنهوف »، ليطلب الى السيد « فون زانين » ، أن يقدم اعتذاره عما بدر منه بالامس فى حق البارون « فون دنهوف » ، فاذا رفض السيد فون زانين أن يعتذر ، فان البارون يطلب - فى هذه الحالة - منازلته . فأجابه سانين بأنه ليس فى نيته مطلقا أن يعتذر ، وانه مستعد للمبارزة ! .. واذ ذاك سأله الملازم - مترددا أيضا - عن الشخص الذى يختاره شاهدا، الساعة التى يحددها ، والمكان الذى يمكن أن تجرى فيه المباحثات . فأجاب سانين بأن فى وسع السيد فون ريشتر أن يعود اليه بعد ساعتين، فيكون فى تلك الاثناء قد عثر على الشاهد المنشود . لكنه راح يسائل نفسه : « ترى أين يمكن أن أجد مثل هذا الشاهد ؟ ! » .

ونهض « فون ريشتر » أخيرا ، وحياه ، لكنه وقف عند عتبة الباب كمن وخزه ضميره ، ثم التفت الى الشاب الروسى ، وصرح له بأن رفيقه البارون « فون دنهوف » قد اعترف بأنه أساء صنعا بالامس ، وأنه لذلك يكتفى بمجرد اعتذار بسيط . على ان سانين أسرع يخبره بأنه لا ينكر فى

تقديم أى اعتذار ، بسيط كان ام غير بسيط ، لانه لا يرى أنه قد أساء أو أخطأ فى شىء !

فقال السيد فون ريشتر وقد اشتدت حمرة وجهه :

ـ اذن تتبادلان طلقات الرصاص وديا ؟

فسأله سانين مستنكرا :

ـ كيف ؟ هل تريد أن نطلق الرصاص فى الهواء ؟

ففمفم الملازم ، وقد بلغ به الاضطراب غايته :

ـ كلا ، لم أقصد أن أقول ذلك ، ولكننى قلت لنفسى : ما دام الامر بين أناس محترمين ..

وسكت ، ثم أردف يقول فى حرارة :

ـ سأدبر هذه التفاصيل كلها مع الشاهد الذى ستختاره!

ثم غادر الغرفة فجأة ..

***

ما ان انصرف الضابط ، حتى تهاوى سانين على أحد المقاعد ، وراح يناجى نفسه قائلا : « ما معنى هذا كله ؟.. وما هذا الاتجاه الذى تسلكته حياتى فجأة ؟ .. هل انمحى الماضى ، وتبدد المستقبل ؟ .. » فلم يشعر سانين الا بشىء واحد ، هو أنه فى فرنكفورت ، وأنه يوشك أن ينازل أحد الاشخاص . وفجأة تذكر عمة له كانت قد فقدت عقلها وجنت ، فكانت ترقص وهى تغنى أغنية تنادى فيها ضابطا ، وتدعوه الى أن يجىء ويراقصها .. وانفجر سانين ضاحكا ، وطفق يردد أغنية عمته : « تعال ارقص معى ايها الضابط .. يا حبيبى ! » ولكنه ما لبث ان قال لنفسه : « ولكن يجب أن اعمل ، وليس ثمة وقت اضيعه » . وارتعش حين رأى امامه بانتاليون يحمل بيده رسالة ، وهو يقول :

ـ لقد قرعت الباب عدة مرات ، فلم تجبنى ، فظننت أنك غائب !

ثم قدم اليه رسالة قائلا :

ـ انها من الآنسة جيما !

وتناول سانين الورقة فى لهفة ، وفضها ، وأخذ يقرأها .. لقد كتبت اليه جيما تقول انها تحس بانزعاج بالغ منذ الليلة السابقة ، وانها تناشده أن يوافيها بأقصى سرعة .. وأضاف بانتاليون يقول ، اذ كان يعرف مضمون الرسالة :

ـ ان الآنسة جيما مضطربة للغاية ، وقد سألتنى أن أجىء اليك لاعرف اخبارك ، وأن أصحبك الى البيت .

فتأمل سانين العجوز الايطالى ، وأخذ يفكر . فقد راوده خاطر عجيب ، مضحك ، واذا به يقول له هاتفا :

ـ أيها السيد بانتاليون !

فارتعش العجوز ، وأغرق ذقنه فى ربطة عنقه ، ونظر الى سانين .

ـ هل سمعت بما وقع أمس ؟

وعض بانتاليون شفتيه ، وهز رأسه ، وقال :

ـ أعرف كل شىء !

ذلك أن ايميليو كان قد روى للعجوز ما حدث بمجرد عودته من الرحلة .

ـ آه .. اذن فأنت على علم بالامر ! .. حسنا .. لقد زارنى ضابط منذ لحظة .. ان الضابط الوقح الذى تحرشت به بالامس يدعونى الى النزال ، وقد قبلت المبارزة ، ولكن ليس لى شاهد ، فهل لك أن تكون شاهدى ؟

فلما سمع بانتاليون هذا الكلام اختلج جسمه فى عصبية ، ورفع حاجبيه حتى غارا تحت شعره المتدلى . ثم قال :

ـ هل لابد من أن تقتتلا ؟

ـ قطعا . ويستحيل على أن أتراجع ، والا لوثت اسمى طوال حياتى !

ـ واذا رفضت أنا أن أكون شاهدك ، فهل تجىء بشاهد غيرى ... ؟

ـ طبعا .. لانني لا أستطيع الاستغناء عن شاهد !

فمال بانتاليون برأسه نحو الارض ثم قال :

ـ ولكن اسمح لى بسؤال يا سيد « سانينيو » : ألا تظن أن هذه المبارزة تلقى ظلا على سمعة الفتاة ؟

ـ لا أظن .. ومهما يكن من أمر ، فلا حيلة لنا فى منعها !

ـ أم ..

واختفى وجه بانتاليون تماما فى ربطة عنقه . ثم صاح فجأة ، وهو يرفع رأسه :

ـ ولكن ماذا يصنع ذلك السيد « كلوبيريو » الهمام ؟

ـ هو ؟ لا شىء ؟ ..

ـ هه !

وهز بانتاليون كتفيه ، علامة الاحتقار . ثم قال بصوت مضطرب :

ـ على كل حال يجب أن أشكر لك أنك عددتنى رجلا محترما .. انك اذ تفعل ذلك انما تبرهن على أنك أنت نفسك رجل محترم . وسأفكر الآن فيما اقترحته على !

ـ ليس أمامنا متسع من الوقت أيها السيد

ـ ولكننى لا أطلب الا ساعة واحدة للتفكير .. ان الامر يتعلق بمستقبل ابنة أولياء نعمتى . ومن واجبى اذن ان أفكر .. سأوافيك بجوابى بعد ساعة ، أو بعد ثلاثة أرباع الساعة !

ـ حسنا .. أنا فى انتظارك !

– والآن ، ما هو الرد الذى يجب أن أحمله الى الآنسة جيمـا ؟

فتناول سانين ورقة وكتب عليها :

« اطمئنى .. سأحضر اليك بعد ثلاث ساعات، وسأقص عليك كل شىء . وانى لأشكر لك تلطفك من أعماق قلبى .»

ثم طوى الورقة ، ودفع بها الى بانتاليون . فتناولها العجوز ، ودسها فى جيبه بعناية ، وهو يكرر قوله : « بعد أقل من ساعة ! » . فلما وصل الى الباب ، التفت فجأة ، وعاد أدراجه راكضا نحو سانين ، فتناول يد الشاب وشدها الى صدره ، وصاح وهو يرفع عينيه الى السماء :

– أيها الشاب النبيل ، أيها القلب الكبير ، اسمح لعجوز ضعيف أن يشد على يمناك العظيمة !

ثم وثب الى وراء ، وضرب الهواء بيديه ، وخرج من الغرفة . تابعه سانين بنظرة ، ثم تناول احدى الصحف ، وأخذ يقرأ . الا أن عينيه كانتا تتابعان السطور فى شرود ، فلم يفهم مما يقرأه شيئا !

– ١٨ –

بعد ساعة دخل الخادم على سانين مرة أخرى، وقدم اليه بطاقة ، قرأ فيها سانين : « بانتاليون شيباتولا الفاريزى : مغن فى بلاط صاحب السمو الملكى دوق مودين ! »

وما ان خرج الخادم ، حتى دخل بانتاليون . وكان قد غير ملابسه من قمة رأسه الى أخمص قدميه ، فكان يلبس رداء أسود أحمر الاطراف ، وصديرية بيضاء تتلوى عليها سلسلة من النحاس المذهب ، وعلى السروال الملتصق بالجسم ، كان يهبط خاتم ثقيل من العقيق . وكان يمسك بيمناه قبعة سوداء من وبر الارانب ، بينما حمل باليد

اليسرى قفازين كثيفين من الجلد . وكان قد وسع ربطة عنقه أكثر مما يفعل عادة ، وغرز فى عروة قميصه المنشى دبوسا تعلوه قطعة من حجارة كريمة . وكان خنصره يزدان بخاتم ذى طرفين يتشابكان حول فص لامع .. وكانت تفوح من جسمه رائحة هى مزيج من الكافور والعفن والمسك . وكان ما اصطنعه من هيئة الجد والخطورة خليقا بأن يستوقف نظر أى انسان مهما بلغ عدم اكتراثه وقلة ملاحظته .. ولما خف سانين لاستقباله ، ابتدره قائلا :

— سأكون شاهدك !

ثم انحنى أمام سانين انحناءة كبيرة ، مباعدا ما بين الكعبين على طريقة الراقصين . وعاد يقول :

— لقد جئت أتلقى أوامرك . فهل تنويان أن تقتتلا حتى الموت ؟

— ولم حتى الموت ، أيها السيد العزيز شيباتولا ؟ .. لا شىء فى الدنيا يمكن أن يحملنى على التراجع ، ولكننى لست ممن يحبون شرب الدماء .. انتظر على كل حال !.. أن الشاهد الذى اختاره خصمى سيصل بعد قليل . وحين يصل ، سأنتقل الى غرفة أخرى ، وأدع لكما أن ترتبا شروط القتال . وثق اننى لن أنسى مدى الحياة هذه الخدمة التى تقدمها لى ، واننى لأشكرك من أعماق قلبى !

— الشرف قبل كل شىء !

ثم جلس بانتاليون على مقعد دون أن ينتظر دعوة الى الجلوس . وما لبث ان أردف قائلا :

— لئن لم يفهم ذلك البائع « كلوبريو » واجبه ، لئن خاف وذعر ، فبئس ما فعل .. انه امرؤ لا يساوى قلبه درهما واحدا .. حسبى أن أقول فيه هذا .. أما عن شروط المبارزة ، فأنا شاهدك ، ومصالحك مقدسة عندى .. وحين

كنت أسكن مدينة بادو ، كانت الحامية تضم فرقة من سلاح الفرسان ، وكنت على علاقات طيبة بعدد من الضباط .. فأنا لذلك أعرف قوانين الشرف عندهم من أولها الى اخرها .. وكثيرا ما تناقشت مع أميركم تاربوسكى .. هل ذلك الشاهد آت بعد قليل ؟

ـ اننى أنتظر وصوله بين لحظة وأخرى .

ثم هتف يقول ، وقد ألقى نظرة على الشارع :

ـ ها هو ذا ..

ودخل الملازم الشاب ، مضطربا احمر الوجه ، فى هذه المرة أيضا . وتولى سانين تقديم الشاهدين أحدهما للآخر:

ـ السيد ريشتر ، ملازم .. والسيد شيباتولا ، فنان!

وقد دهش الملازم قليلا حين رأى العجوز .. ترى ماذا كان عساه أن يقول ، لو علم ان هذا الفنان كان يمارس فن الطهى أيضا !! .. **واصطنع بانتاليون مظهر شخص لم يكن له فى حياته كلها من عمل الا أن يهيىء المبارزات . وقد أسعفته فى موقفه هذا ذكريات مهنته على خشبة المسرح ، فنهض بمهمة الشاهد كما لو كان يمثل دورا !**

ونظر الشاهدان أحدهما الى الآخر دون أن يقولا فى أول الامر شيئا . ثم لم يلبث بانتاليون أن قطع الصمت ، وهو يعبث بخاتمه العقيقى قائلا :

ـ نعم .. لنتحدث فى الشروط !

فأجابه الملازم :

ـ أجل .. لنتحدث فى الشروط ، ولكن وجود أحد الخصمين ...

فقاطعه سانين :

ـ سأترككما وحدكما أيها السيدان .

ثم حياهما ، ودلف الى حجرة النوم ، وأقفل بابها عليه

بالمفتاح . وألقى بنفسه على السرير ، وأخذ يفكر فى جيما . لكن صوت الشاهدين كان يتناهى اليه من الباب الموصد .. وكان الشاهدان يتحدثان بالفرنسية ، وان راحايشوهان الفاظها ، فى غير ما رحمة ولا شفقة ، كل على طريقته ! ..

وتحدث بانتاليون مرة أخرى عن فرسان (بادو) ، وعن الامير « تاربوسكى » . كما تحدث الملازم عن « الاعتذارات الخفيفة » وعن « طلقات الرصاص الودية » .. أما العجوز الايطالى ، فلم يشأ أن يسمع شيئا عما يسمى «بالاعتذارات» .. وما كان أشد ما شعر به سانين من خزى ، حين أخذ العجوز يتكلم فجأة عن آنسة بريئة فى ريعان الصبا ، يساوى ظفرها كل ما فى الدنيا من ضباط . وكان بانتاليون لا ينفك يردد : « هذا عار ! .. هذا عار ! »

ولم يجب الضابط بشىء فى أول الامر ، بيد ان صوته ما لبث ان ارتجف من شدة الغضب ، فقال انه لم يأت ليتلقى دروسا فى الاخلاق .

فقال له بانتاليون :

ــ انه ليفيد من فى سنك دائما أن يسمع الحقيقة ! ..

وتطورت المناقشة بين الشاهدين الى عاصفة عدة مرات . وأخيرا ، وبعد مجادلة حامية دامت ساعة كاملة ، انتهيا الى الشروط التالية :

« يقتتل البارون فون فنهوف والسيد سانين غدا فى الساعة العاشرة ، وذلك فى الغابة الصغيرة القريبة من (هاناو) . وتكون المسافة بين المتبارزين عشرين خطوة . ولكل منهما الحق فى أن يطلق طلقتين عند صدور الاشارة . والسلاح مسدس غير مخطط ، وليس بذى انتفاض مزدوج » .

وانصرف السيد فون ريشتر ، وأقبل بانتاليون يفتح باب

غرفة سانين منتصرا مظفرا ، وبعد أن أبلغه نتيجة المباحثات، أخذ يردد :

— مرحى أيها الروسى ، مرحى جيوفانيو .. لسوف تكون الغالب !

وبعد بضع دقائق ، كانا يدخلان معا حانوت روزيلى .. وكان سانين قد طلب الى بانتاليون ، أثناء الطريق ، ان يبقى أمر المبارزة سرا بينهما . وكان جواب المغنى العجوز أن قال، وهو يرفع أصابعه الى السماء ، ويغمض عينيه :

— هذا سر .. هذا سر !

وكان بانتاليون يسير فى خفة وكأنه ارتد شابا فى ميعة الصبا . فقد نقلته تلك الاحداث — رغم خطورتها — الى تلك الفترة من حياته ، التى كان يلقى هو فيها بالقفاز ، ولكن على المسرح طبعا ! ..

— ١٩ —

كان ايمليو يترقب وصول سانين منذ أكثر من ساعة ، فلما وصل الشاب الروسى ، خف ايمليو اليه ، وأسر فى أذنه خلسة بأن أمه لم تكن تعرف شيئا عما جرى بالامس ، وأن من الخير الا يشار الى شىء من ذلك أمامها ، الا أنه قد أمر بأن يتوجه الى السيد كلوبر على عادته ليعمل تحت اشرافه، ولكنه قد عقد العزم على التظاهر بالذهاب ، دون ان يذهب فعلا !

قال الصبى ذلك كله دفعة واحدة فى بضع ثوان ، ثم مال برأسه على كتف سانين ، فقبله قبلة دافقة ، وهرول الى الشارع !

وفى الحانوت سارعت جيما الى سانين، وأرادت أن تكلمه، لكن الكلمات لم تسعفها ، فارتعشت شفتاها ، وزاغت عيناها

تحت أهدابها المسبلة . فبادر سانين يطمئن الفتــاة مؤكدا بأن المسألة قد سويت ، وان عليها الا تفكر فى الامر بعدالآن.
وسألته جيما :
ـ الم يجىء اليك أحد اليوم ؟
ـ بل جاءنى شاب ، فتفاهمنا فى الامر ، وأغلقنا الموضوع على نحو يرضى الجميع !
فعادت جيما الى مكانها بالحانوت . وقال سانين بينـه وبين نفســه : « انها لم تصــدق ! » . ثم مضى الى الغرفة المجاورة ، فوجد فيها السيدة ليونور ، وكانت قــد شفيت مما تعانيه من صداع ، لكنهـا كانت مازالت متعبة . وقـد استقبلت السيد سانين فى كثير من اللطف ، الا أنهـا حذرته من أنه سيسأم اليوم صحبتها ، فهى تشعر بأنها عاجزة عن الترويح عنه !
وجلس سانين الى جانب الســيدة ليونور ، فلاحظ أن جفنيها كانا شديدى الاحتقان ، فسألها :
ـ ما بك يا سيدة لينور ؟ هل بكيت ؟
ـ صه .. لا تتكلم بصوت مرتفع !
قالت له ذلك هامسة ، وهى تشير برأسها الى المكان التى كانت فيه ابنتها . فعاد سانين يسألها :
ـ ولكن لماذا بكيت ؟
ـ آه يا سيد سانين ، أنا نفسى لا أعرف لماذا بكيت !
ـ هل أغضبك أحد ؟
ـ أبدا .. وانما احسست بأننى حزينة على حين غرة .. لقد فكرت فى جيوفانى باتيستا .. وفى صباى .. ما أسرع ما مضى هذا كله ! .. اننى أشيخ يا صديقى ، ولا أستطيع أن أمتثل لهذه الفكرة .. أحس بأننى ما زلت كما كنت، ومع ذلك فقد دهمتني الشيخوخة .. دهمتني ! ،

ورأى سانين دموعا تترقرق فى عينى السيدة لينور . واذ ذاك استطردت تقول :

ـ هل يدهشك هذا الاعتراف ؟ ولكنك ستشيخ أنت أيضا يا صديقى ، وستعرف مدى المرارة التى يكابدها المرء حين يدلف الى الشيخوخة !

وأراد سانين أن يسرى عن السيدة روزيلى بالكلام عن ولديها اللذين يتمثل فيهما صباها ، بل لقد حاول أن يمازحها ، فابتدرها قائلا : « لعل السيدة روزيلى تحب الاطراء ! .. » ، لكنها رجته جادة أن يكف عن المزيد من المزاح ، فتبين سانين ـ لاول مرة فى حياته ـ أن ثمة حزنا يستحيل على المرء أن يواسى فيه صاحبه ويسرى عنه ، وهو حزن الانسان الذى يتقدم فى السن ، ويفطن الى هذه الحقيقة . فقال فى نفسه : « يجب أن أدعها تهدأ من تلقاء ذاتها ! » .. واقترح سانين على السيدة لينور أن يلعبا الورق (وهذا كل ما استطاع أن يجده ليسرى به عنها) ، فوافقت على الاقتراح ، ولاح عليها أنها استردت رباطة جأشها .

واستمر اللعب حتى حان وقت الفداء ، ثم استؤنف بعد ذلك ، واشترك فيه بانتاليون كطرف ثالث . وكان شعر المغنى القديم كثير التهدل على جبينه ، وكانت ذقنه تضغط بشدة على ربطة عنقه ، وكانت كل حركة من حركاته ينبعث منها وقار نبيل لا يخفى على أحد ، حتى لقد كان يستحيل على المرء أن يراه دون أن يتساءل فى الحال : « ترى ما ذلك السر الذى يحرص هذا الرجل على اخفائه بمثل هذه الضراوة ؟ » .

وظل بانتاليون طوال النهار ينتهز كل مناسبة ، ليبرهن لسانين على ما يكنه له من احترام عظيم .. فحين جلسوا

الى المائدة ، أسرع يقدم له الطعام قبل أن يقدمه للسيدتين ، وفى أثناء اللعب كان يتنازل له عن دوره ، ولا يسمح لنفسه بأن ينافسه ، وكان لاينفك يصرح بأن الشعب الروسى أكثر شعوب الارض بسالة وشهامة وبطولة .. وكان سانين يقول لنفسه ، حين يسمع هذا الكلام : « انه ممثل قديم ! .. » .

على ان الشاب فوجىء ـ بوجه خاص ـ بموقف جيما منه . فقد تبين انها لم تعد تتحاشاه ، وانما راحت تأتى فى كل لحظة ، فتجلس بجواره ، وتصغى الى مايقوله ، وترنو اليه، لكنها كانت تتجنب أن تشاركه فى الحديث ، اذ كان لا يكاد يوجه اليها الكلام ، حتى تنهض من مكانها ، فتمضى الى الغرفة المجاورة ، حيث تبقى بعض الوقت ، ثم لاتلبث أن تعود الى مكانها فى أحد الاركان ، فتجلس ساكنة ، مشغولة البال ، قلقة .. انتبهت السيدة ليونور الى حالة ابنتها ، فسألتها مرتين عما بها ، فكانت جيما تجيبها بقولها :

ـ لا شىء ! .. أنت تعرفين أننى أكون هكذا أحيانا !

فكانت الام تقول ، تصديقا على كلام جيما :

ـ نعم ، هذا صحيح .

ولو ان سلوك جيماكان مغايرا ، فلربما ما استطاع سانين أن يقاوم اغراء الظهور بمظهر البطولة ، أو لربما استسلم لحزن شديد ، فى تلك الليلة التى تسبق فراقا لعله لا لقاء بعده .. ولما لم تتح له فرصةالتحدث الى جيما مرة واحدة، فقد اكتفى بأن توجه الى البيانو قبل تناول قهوة المساء ، وأخذ يعزف بعض الالحان لمدة ربع ساعة .

وعاد ايمليو فى ساعة متأخرة ، لكنه لم يلبث أن خرج ، ليتحاشى أن يوجه اليه أحد أى سؤال عن السيد كلوبر . ثم آن لسانين أن يستأذن، وفيما كان يودع جيما ، تذكر فراق « لنسكى وأولغا » فى قصة (أوجين ونيجين) التى كتبها

« بوشكين » . فشد على يد الفتاة بقوة ، وحاول أن ينظر اليها فى عينيها ، لكنها أشاحت بوجهها قليلا ، وسحبت أصابعها من يده !

- ٢٠ -

حين نزل سانين الى الشارع ، كانت السماء قد امتلأت بالنجوم . وما أكثر ماكانت النجوم ، وما أشد ماكان تنوعها وتباين أحجامها ! .. كانت تلتمع ، متزاحمة ، متكاثفة ، وكأنها تتبارى فى ارسال الاشعة . ولم يكن يسطع فى قبة السماء بدر ، غير أن كل شىء كان يتميز واضحا فى ذلك الضوء المعتم !

وتابع سانين سيره الى آخر الشارع . ولم يكن راغبا فى العودة الى غرفته بالفندق ، اذ كان يحس بالحاجة الى البقاء فى الهواء الطلق . فاذا به يعود أدراجه ، لكنه ، وقبل أن يصل فى سيره الى حانوت الحلوى ، رأى احدى النوافذ تفتح . ولم تكن الغرفة مضاءة ، ثم لاح له فى اطار النافذة المظلم شبح امرأة ، ولم يلبث أن سمع صوتا يناديه : « ياسيد ديمترى ! » .. فلما اقترب من النافذة ، تبين انها جيما ، وقد استندت بمرفقيها الى النافذة ، ومالت بجسمها الى الخارج .. وسرعان ما قالت بصوت وجل :

- يا سيد ديمترى ، هناك شىء ظللت طوال النهار أريد أن أعطيك اياه ، لكننى لم أجرؤ .. والآن وقد رأيتك مصادفة ، قلت لنفسى لاشك انه القدر ..

ثم كفت عن الكلام فجأة ، اذ عجزت عن متابعة الكلام .. وفجأة ، وفى قلب ذلك السكون الشامل ، وتحت سماء لا تعكرها غيوم ، هبت ريح عاتية .. كانت اعصارا بلغ من درجة عنفه أن ارتجت الارض ، واهتزت اشعة النجوم

الواهنة . ثم التف هواؤه الساخن كأنه لفح النار ، فعقف رءوس الاشجار ، وزعزع الجدران ، وزلزل الشارع كله !

وأطاحت الريح بقبعة سانين ، وتطايرت خصائل شعر جيما السوداء .. **وكان رأس الفتى على مستوى الحاجز الذى تستند اليه جيما، فتشبث بالحاجز على غير ارادة منه، فأمسكته جيما من كتفيه بيديها، وأهوت برأسها على وجهه !** .. ودامت قرقعة الاجراس والضوضاء المروعة ما يقرب من دقيقة ، ثم ابتعدت الجلبة كأنها سرب طيور هائل ، وعاد الجو الى سكونه العميق !

ورفع سانين رأسه . فرأى وجه الفتاة ، وقد بلغ من الفتنة فى غمرة اضطرابه وجزعه ماجعل قلبه يخفق فى عنف . وكانت عيناها الواسعتان الوجلتان أشد ما تكونان سحرا وجمالا .. ومر الفتى بشفتيه على خصائل شعرها التى دفعتها الريح فوق صدره ، وتمتم :

ـ جيما !

ـ ما الذى حدث ؟ أهى عاصفة ؟

ثم أخذت جيما تنظر حولها ، دون أن ترفع ذراعيها العاريتين عن كتفى سانين . وسمعته يقول مرة أخرى :

ـ جيما !

وارتجفت الفتاة ، وألقت نظرة على الغرفة ، ثم مدت يدها الى صدرها بحركة سريعة ، فأخرجت وردة ذابلة دفعت بها الى سانين ، وهمست :

ـ كنت أريد أن أعطيك هذه الزهرة .

وتبين سانين أنها كانت الزهرة التى استردها من الضابط فى اليوم السابق . ولم تلبث النافذة أن أغلقت ، فأصبح سانين لا يميز وراء زجاجها المعتم شيئا البتة . وعاد الى فندقه بغير قبعة ، حتى أنه لم يلاحظ ان الريح قد أطارتها !

- ٢١ -

وظل مسهدا حتى الفجر .. وكان قد أدرك - أثناء العاصفة المفاجئة - ان جيما لم تكن أجمل فتاة فحسب ، وانه لم يكن معجبا بها فقط ، فذلك كله كان يعرفه منذ فترة طويلة ، وانما عرف أيضا انه قد هام بها حبا وغراما !

لكنه كان عليه أن يبارز الضابط ، فكان ذلك الخاطر يبعث الانقباض فى نفسه ، ويجعله يوجس من نتيجة المبارزة ، فضلا عن انه كان يعلم انه انما يكن حبا لفتاة مخطوبة لشخص آخر ! .. على أنه ما كان ليعمل حسابا لخطيبها ، اذ كان يحس أن جيما لن تلبث أن تحبه ، وانها ربما تكون قد أحبته بالفعل . ولكن ترى ماذا عسى أن تؤدى اليه تلك الامور كلها ؟ .. وراح يذرع غرفته جيئة وذهابا ، ثم يجلس ، فيتناول ورقة ، ويكتب عليها بضعة أسطر ما يلبث أن يشطبها .

وكانت جيما مازالت تتراءى له فى اطار النافذة المظلمة ، تحت ضياء النجوم ، فكان يرى ذراعيها المرمريتين ، اللتين تشبهان ذراعى ربة من ربات الاوليمب . واذا به يحس على كتفيه بثقل هاتين الذراعين . وشم سانين الوردة التى أهدتها اليه جيما . وخيل اليه أن أوراقها الذابلة يفوح منها عطر أذكى من عطر جميع الورود .. وتذكر انه سيكون عليه عما قليل أن يعرض نفسه للموت .. ترى أيعود من القتال حيا ؟ .. أليس محتملا أن يرجع منه مشوها ؟ .

ولم ينم سانين فى فراشه ، وانما استلقى على الاريكة دون أن يخلع ملابسه . وفجأة أحس بيد تلامس كتفه ، فانتفض ، واذا به يرى بانتاليون الذى ابتدره قائلا :

- انك تنام كالاسكندر الاكبر ، غداة معركة بابل !

ـ كم الساعة الآن ؟

ـ السابعة الا ربعا .. والطريق الى هاناو يستغرق ساعتين ، ويجب أن نكون أول الواصلين الى المكان . كذلك شأن الروس دائما . وقد استأجرت أحسن عربة بمدينة فرنكفورت .

ـ أين المسدسات ؟

ـ سيأتى بها صاحبنا .. وقد تعهد أيضا باصطحاب طبيب !

وكان سانين يحاول أن يحافظ على مستوى الشجاعة التى أظهرها أمس . وحين جلس فى العربة مع بانتاليون ، وقرقع سوط الحوذى ، وجرت جياد العربة سريعة ، تبدلت حال الصديق القديم لفرسان مدينة (بادو) ، فبدا مضطربا ، خائفا بعض الشىء ، ولاح كأن شيئا فيه قد انهار كما ينهار الجدار المتداعى .. وسمعه سانين يقول لنفسه ، وهو يمسك شعره بكلتا يديه :

ـ ماذا تفعل هنا يا سيدى ؟

واستطرد يسأل نفسه : « ماذا تفعل هنا ، أيها العجوز الاحمق ، أيها المجنون ؟ » .. وقد دهش سانين قليلا فى أول الامر ، ثم أخذ يضحك ، وهو يحيط العجوز بذراعه فى رفق قائلا :

ـ لقد صبت الخمر ، ولا بد لنا أن نشربها !

ـ نعم ، نعم ، سنتجرع هذه الكأس .. لكن هذا لا ينفى أننى مجنون ، مجنون ، مجنون ! .. لقد كنا غاية فى الهدوء ، وكانت الامور كلها تجرى على نحو ما نحب ، وفجأة .. تاتاتا .. تراتاتا .. !

فقال سانين ، وهو يحمل نفسه على الابتسام :

ـ ولكن الذنب ليس ذنبك !

— أعرف ذلك . غير أننى تصرفت فى الامر تصرف مجنون .. يالى من شيطان ، يالى من شيطان ! .

وراح يهز خصلة شعره وهو يتنهد . وكانت العربة تنطلق مسرعة . وكان الصباح صافيا مشرقا، وكانت شوارع فرنكفورت قد أخذت تدب فيها الحياة . وقد بدت نظيفة مريحة أكثر من ذى قبل ، ولاحت نوافذ البيوت أشد سطوعا ولمعانا . وما ان اجتازت العربة الحاجز ، حتى دوى صوت سرب من الطير وكأنه جوقة فى أعالى السماء التى لم تكن الشمس قد اضاءتها بعد .. وفجأة ، عند منعطف الطريق ، ووراء احدى أشجار الحور السامقة ، برز لهما شبح شخص أخذ يدنو منهما ، ثم توقف . وأنعم سانين النظر فيه ، وصاح

— رباه..انه ايمليو ! .. هل تراه يعرف عن الامر شيئا ؟

فهتف الايطالى فى حزن واسى :

— ألم أقل لك اننى مجنون ؟ .. لقد ظل هذا الصبى الشقى يلاحقنى بأسئلته طوال الليل ، حتى اعترفت له فى هذا الصباح بكل شىء !

فقال سانين لنفسه : « أهذا هو السر عندك اذن يا بانتاليون ؟ ! » .. وما لبثت العربة أن أدركت ايمليو ، فأوقفها سانين ، ونادى الصبى . فتقدم ايمليو بخطى مترنحة ، وكان ممتقع اللون كما رآه سانين يوم أصيب بالاغماء ، حتى لقد بدا عاجزا عن الوقوف على قدميه . وسأله سانين :

— ماذا تفعل هنا ؟ ولماذا لم تبق فى البيت ؟

فأجابه ايمليو بصوت مرتعش ، وهو يرفع يديه متوسلا :

— دعنى ارافقك !

وكانت أسنانه تصطك وكأنه فى حمى . وعاد يقول لسانين مستعطفا :

ــ لن أضايقك ، خذنى معك !

ــ اذا كنت تشعر نحوى بشىء من الاحترام والحب ، فعد الى البيت أو الى متجر السيد كلوبر . ولا تبح لأحد بشىء مما تعرفه ، وانتظر عودتى !

فقال ايمليو متأوها :

ــ أنتظر عودتك ؟ !

ثم استطرد ، وقد اشتد اضطرابه :

ــ ولكن اذا ..

فقاطعه سانين وهو يشير الى الحوذى :

ــ ايمليو ، ايمليو ، فكر فيما تفعل . أطعنى يا صفيرى ، أرجوك ! .. عد الى البيت .. ألم تقل انك تحبنى ؟ اذن ..

ثم مد يده اليه ، فوثب الصبى ، وتناول يد سانين ، فرفعها الى شفتيه وهو يجهش بالبكاء ، ثم انطلق خلال الحقول عائدا الى (فرنكفورت) . واذ ذاك هتف بانتاليون :

ــ وهذا قلب نبيل أيضا !

وألقى عليه سانين نظرة استياء ، فالتصق العجوز بأعماق العربة .. وكان يحس أنه مذنب ، فأخذ يسائل نفسه فى دهشة واستنكار : « أأنا شاهد مبارزة حقا ؟ .. وهل أنا الذى دبرت كل هذه الخطوات ، واستأجرت العربة ، وغادرت منزلى الهادىء فى الساعة السادسة من الصباح ؟ ! » ..

وفيما هو يعانى هذا الاضطراب ، أخذ يشعر بآلام فى فخذيه

.. فرأى سانين أن يبث فيه شيئا من الشجاعة ، فاهتدى الى خير وسيلة لذلك ، اذ أخذ يحمسه بقوله :

ـ أين بسالتك ، أيها السنيور شيباتولا ؟ .. أين .. أين الجرأة المعهودة ؟

فردد بانتاليون بصوته الاجش :

ـ الجرأة المعهودة .. نعم ، الجرأة المعهودة .. ما زلت احتفظ بها !

واسترد بانتاليون شعوره بأنه انسان محترم ، فعاد يتحدث عن مهنته ، وعن الاوبرا ، وعن المغنى « التينور » جارسيا .. وما أن وصل الى (هاناوا) ، حتى كان قد استرجع عزيمته وروحه المعنوية العالية !

(ترقب العدد القادم الذى يحوى الجزء الثانى والأخير من هذه القصة الخالدة .)

طبع بمطابع مؤسسة روز اليوسف

هذه القصة الخالدة..

كما تذوب الثلوج فى روسيا فى الربيع ، فتترقرق مياهها الصافية فى الغدران ، بعد طول التجمد ، وتزدهر الحياة .. كذلك أذابت الذكريات جليد الكهولة ، وجمود قلب بطل القصة ، فترقرق فيه الحب القديم ، حب الربيع ، ليروى ظمأه الطويل .. ويبعث فيه اعنف خلجات ذلك الغرام الذى وشى أيامه بالسعادة ، فى كنف تلك الحسناء الايطالية التى التقى بها ذات يوم ، أثناء رحلته فى المانيا .. فلم يلبث قلبه أن صار نهبا لصراع موجع بين عاطفتين .. وامرأتين : إحداهما تعده بدفء العاطفة الحارة التى تشعها قلوب الايطاليات .. والأخرى تغريه بالحب العارم الذى يلهب قلبها .. قلب الروسية الثرية ، العاشقة !

فأيهما يختار .. وأيهما ينبذ؟

ذلك ما يرويه كاتب روسيا العاطفى الأشهر "إيفان ترجنيف" فى هذه القصة الرائعة التى تدور أحداثها فى أجواء خلابة ، تنقلنا من روسيا .. إلى المانيا .. إلى باريس !

يصدرها حلمى مراد

مطبوعات كتابى

الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية